

القصص القرآني ومتوازياته التوراتية

أساطير الأولين

فراس السواح

القصص القرآني ومتوازياته التوراتية

أساطير الأولين

تأليف
فراس السواح



القصص القرآني ومتوازياته التوراتية

فراس السواح

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٢١٤ ٠

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

الكتب الإلكترونية، هِبة العصر

في عام ١٩٧٠م بدأَت الأفكارُ العامة لكتابي الأول «مغامرة العقل الأولى» تَتشكَّل في ذهني، وعندما بذلتُ المُحاوَلات الأولى لكتابتها، شعرتُ بحاجةٍ إلى مَراجِع أكثر من المَراجِع القليلة التي في حَوزتي، فرُحتُ أبحث في منافذ بيع الكتب، وفي المراكز الثقافية التابعة لوزارة الثقافة السورية، وفي مكتبة جامعة دمشق؛ عن مَراجِع باللغة الإنجليزية فلم أجِد ضالَّتي، فتأكدَت لي استحالة إتمام المشروع وتوقفتُ عن الكتابة.

وفي عام ١٩٧١م قمت برحلةٍ طويلة إلى أوروبا والولايات المتحدة دامت ستة أشهر، رُحتُ خلالها أشتري ما يلزمني من مَراجِع وأشحنها بالبريد البحري إلى سوريا، وعندما عدتُ شرعت في الكتابة وأنجزت الكتابَ في نحو سنة ونصف. بعد ذلك رُحتُ أستعين بأصدقائي المُقيمين في الخارج لإمدادي بما يلزمني من مَراجِع، وكانت مهمةً شاقة وطويلة تستنفد المالَ والجهد، وكان عمل الباحث في تلك الأيام وفي مثل تلك الظروف عملًا بطوليًّا، إن لم يكن مهمةً مستحيلة.

بعد ذلك ظهر الحاسوب الشخصي في أوائل الثمانينيات، ثم تأسَّسَت شبكةُ الإنترنت التي لعبَت دورًا مُهمًّا في وضع الثقافة في مُتناوَل الجميع، ووفَّرَت للباحثين ما يلزمهم من مَراجِع من خلال الكتب الإلكترونية المجانية أو المدفوعة الثمن، فأزاحَت همَّ تأمينِ المَراجِع عن الكاتب الذي يعيش في الدول النامية، ووصَّلَته بالثقافة العالَمية من خلال كبسةِ زرٍّ على حاسوبه الشخصي.

لقد صار حاسوبي اليومَ قطعةً من يدي لا أَقدر على الكتابة من دونه، مع إبقائي استخدام القلم في الكتابة، لا برنامج الوورد. ولرد الجميل للإنترنت، أردتُ لطبعةِ الأعمال الكاملة لمُؤلَّفاتي التي صدرت في ٢٠ مجلدًا، أن تُوضَع على الشبكة تحت تصرُّفِ عامةِ القُراء والباحثين، واخترتُ «مؤسسة هنداوي» لحملِ هذه المهمة؛ لأنها مؤسسةٌ رائدة في

النشر الإلكتروني، سواءٌ من جهةِ جودةِ الإخراج أو من حيث المواضيع المتنوِّعة التي تُثْرِي الثقافة العربية.

جزيل الشكر لـ «مؤسسة هنداوي»، وقراءة ممتعة أرجوها للجميع!

مقدمة لطبعة الأعمال غير الكاملة

عندما وضعتُ أمامي على الطاولة في «دار التكوين» كومةَ مُؤلَّفاتي الاثنين والعشرين ومخطوطَ كتابٍ لم يُطبَع بعد، لنبحث في إجراءاتِ إصدارها في طبعةٍ جديدة عن الدار تحت عنوان «الأعمال الكاملة»، كنتُ وأنا أتأمَّلها كمَن ينظر إلى حصاد العمر. أربعون عامًا تَفصل بين كتابي الأول «مغامرة العقل الأولى» والكتابِ الجديد «الله والكون والإنسان»، ومشروع تَكامَل تدريجيًّا دون خطةٍ مُسبقة في ثلاثٍ وعشرين مُغامَرة هي مشروعي المعرفي الخاص الذي أحببتُ أن أُشرِك به قُرَّائي. وفي كل مُغامَرة كنت كمَن يَرتاد أرضًا بِكرًا غير مطروقة ويكتشف مَجاهِلها، وتقودني نهايةُ كل مُغامَرة إلى بدايةٍ أخرى على طريقةِ سندباد الليالي العربية. ها هو طرفُ كتاب «مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة» يبدو لي في أسفل الكومة. أسحبه وأتأمَّله، إنه في غِلاف طبعته الحادية عشرة الصادرة عام ١٩٨٨م، التي عاد ناشِرها إلى غلاف الطبعة الأولى الصادرة عام ١٩٧٦م، الذي صمَّمه الصديق الفنان «إحسان عنتابي»، ولكن ألوانه بهتَت حتى بدَت وكأنها بلون واحد لعدم عنايةِ الناشر بتجديدِ بلاكاتها المتآكلة من تعدُّد الطبعات التي صدرت منذ ذلك الوقت. وفي حالة التأمل هذه، يَخطر لي أن هذا الكتاب قد رسَم مسارَ حياتي ووضعني على سكةٍ ذاتِ اتجاهٍ واحد؛ فقد وُلِد نتيجةَ ولعٍ شخصي بتاريخ الشرق القديم وثقافته، وانكبابٍ على دراسةِ ما أنتجَته هذه الثقافة من مُعتقَدات وأساطير وآداب، في زمنٍ لم تكن فيه هذه الأمور موضعَ اهتمامٍ عام، ولكنني لم أكن أُخطِّط لأن أغدو مُتخصِّصًا في هذا المجال، ولم أنظر إلى نفسي إلا كهاوٍ عاكفٍ بجدٍّ على هوايته. إلا أن النجاح المدوِّي للكتاب — الذي نفَدَت طبعته الأولى الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق في ستة أشهر، ثم تَتابَعت طبعاته في بيروت — أشعرني بالمسئولية؛ لأن القراء كانوا يَتوقَّعون مني عملًا آخَر ويتلهفون إليه.

إن النجاح الكبير الذي يَلْقاه الكتاب الأول للمُؤلِّف يضعه في ورطةٍ ويفرض عليه التزاماتٍ لا فَكاكَ منها، فهو إما أن ينتقل بعده إلى نجاحٍ أكبر، أو يسقط ويَئُول إلى النسيان عندما لا يتجاوز نفسَه في الكتاب الثاني. وقد كنتُ واعيًا لهذه الورطة، ومُدرِكًا لأبعادها، فلم أَتعجَّل في العودة إلى الكتابة، وإنما تابعتُ مَسيرتي المعرفية التي صارت وقفًا على التاريخ العام والميثولوجيا وتاريخ الأديان. وعامًا بعد عام، كان كتاب «لغز عشتار» يَتكامَل في ذهني وأعدُّ له كلَّ عُدَّة ممكنة خلال ثمانية أعوام، ثم كتبتُه في عامين ودفعته إلى المطبعة فصدر عام ١٩٨٦م؛ أيْ بعد مرور عشر سنوات على صدور الكتاب الأول، وكان نجاحًا مُدوِّيًا آخَر فاق النجاحَ الأول، فقد نفَدَت طبعتُه الأولى، ٢٠٠٠ نسخة، بعد أقل من ستة أشهر، وصدرت الطبعة الثانية قبل نهاية العام، ثم تتالت الطبعات.

كان العمل الدَّءُوب خلال السنوات العشر الفاصلة بين الكتابَين، الذي كان «لغز عشتار» من نواتجه، قد نقلني من طور الهواية إلى طور التخصُّص، فتفرَّغتُ للكتابة بشكل كامل، ولم أفعل شيئًا آخَر خلال السنوات الثلاثين الأخيرة التي أنتجتُ خلالها بقية أفراد أسرة الأعمال الكاملة، إلى أن دعَتني جامعة بكين للدراسات الأجنبية في صيف عام ٢٠١٢م للعمل مُحاضرًا فيها، وعهدَت إليَّ بتدريس مادة تاريخ العرب لطلاب الليسانس، ومادة تاريخ أديان الشرق الأوسط لطلاب الدراسات العليا، وهناك أنجزتُ كتابي الأخير «الله والكون والإنسان». على أنني أفضِّلُ أن أدعو هذه الطبعة بالأعمال غير الكاملة، وذلك على طريقةِ الزميلة «غادة السمان» التي فعلت ذلك من قبلي؛ لأن هذه المجموعة مُرشَّحةٌ دومًا لاستقبالِ أعضاءٍ جُدد ما زالوا الآن في طي الغيب.

وعلى الرغم من أنني كنت أخاطب العقل العربي، فإني فعلتُ ذلك بأدواتِ البحث الغربي ومناهجه، ولم أكن حريصًا على إضافة الجديد إلى مساحة البحث في الثقافة العربية، قَدْر حرصي على الإضافة إلى مساحة البحث على المستوى العالمي، وهذا ما ساعدني على اختراق حلقة البحث الأكاديمي الغربي المُغلَقة، فدعاني الباحث الأميركي الكبير «توماس تومبسون» المُتخصِّص في تاريخ فلسطين القديم والدراسات التوراتية إلى المشاركة في كتابٍ من تحريره صدر عام ٢٠٠٣م عن دار T & T Clark في بريطانيا تحت عنوان:

Jerusalem in History and Tradition

ونشرتُ فيه فصلًا بعنوان:

Jerusalem During the Age of Judah Kingdom

كنتُ قد تعرَّفت على «تومبسون» في ندوةٍ دولية عن تاريخ القدس في العاصمة الأردنية عمان عامَ ٢٠٠١، شاركت فيها إلى جانبِ عددٍ من الباحثين الغربيين في التاريخ وعلم الآثار، وربطَت بيننا صداقةٌ متينة استمرت بعد ذلك من خلال المُراسَلات، إلى أن جمعَتنا مرةً ثانية ندوةٌ دولية أخرى انعقدَت في دمشق بمناسبة اختيار القدس عاصمةً للثقافة العربية، وكانت لنا حواراتٌ طويلة حول تاريخ أورشليم القدس وما يُدعى بتاريخ بني إسرائيل، واختلفنا في مسائلَ عديدةٍ أثارها «تومبسون» في ورقة عمله التي قدَّمها إلى الندوة. وكان الباحث البريطاني الكبير «كيث وايتلام» قد دعا كلَيْنا إلى المشاركة في كتابٍ من تحريره بعنوان:

The Politics of Israel's Past

فاتفقنا على أن نثير هذه الاختلافات في دراستَينا اللتين ستُنشَران في ذلك الكتاب، وهكذا كان. فقد صدر الكتاب الذي احتوى على دراسات الباحثين من أوروبا وأميركا عام ٢٠١٣م عن جامعة شيفلد ببريطانيا، وفيه دراسةٌ لي عن نشوءِ الديانة اليهودية بعنوان:

The Faithful Remnent and the Invention of Religious Identity

خصَّصتُ آخِرَها لمناقشة أفكار «تومبسون»، ولـ «تومبسون» دراستان الأولى بعنوان:

What We Do And Do Not Know About Pre-Hellenistic Al-Quds

والثانية خصَّصها للرد عليَّ بعنوان:

The Literary Trope of Return – A Reply to Firas Sawah

أي: العودة من السَّبْي كمجاز أدبي – رد على فراس السواح.

الكتاب يشبه الكائن الحي في دورة حياته؛ فهو يُولَد ويعيش مدةً ثم يختفي ولا تجده بعد ذلك إلا في المكتبات العامة، ولكن بعضها يقاوم الزمن وقد يَتحوَّل إلى كلاسيكيات لا تخرج من دورة التداول. وقد أطال القُرَّاء في عمر مُؤلَّفاتي حتى الآن، ولم يَختفِ أحدها من رفوف باعة الكتب، أمَّا تحوُّل بعضها إلى كلاسيكيات فأمرٌ في حُكم الغيب.

فإلى قُرَّائي في كلِّ مكان، أهدي هذه الأعمالَ غير الكاملة مع محبتي وعرفاني.

فراس السواح

بكين، كانون الثاني (يناير) ٢٠١٦

فاتحة

ينشأ كل دينٍ في بيئةٍ ثقافيةٍ معينة تُقدم له الخلفية الاعتقادية والميثولوجية التي يُشيد بنيته الجديدة انطلاقًا من نقدها وتجاوزها، ولكن مع الإبقاء على بعض آثار تلك الخلفية القديمة. فالعلاقة بين القديم والجديد هنا علاقةٌ جدليةٌ، يتبادل الاثنان فيها التأثُّر والتأثير وصولًا إلى حالةٍ من الاستقرار يلتقي عندها الاثنان في تركيبٍ لايشبه أيًّا منهما.

إن الأمثلة التي يمكن إيرادُها عن العلاقة بين القديم والجديد في تاريخ الأديان كثيرة، ويمكن أن تأخذنا بعيدًا عن مقاصد هذه الدراسة؛ ولهذا سوف أكتفي بما يتلاءم مع هذه المقاصد، وأُقدم عرضًا سريعًا يتناول الأديان الثلاثة المعروفة بالتوحيدية أو السماوية، على الرغم من تحفُّظي على هذه التسمية؛ لأن صفة التوحيدية يمكن إسباغها أيضًا على أديان أخرى مثل الزرادشتية والمانوية، بينما يمكن الطعن بصفة التوحيدية التي تُسْبَغ عادةً على اليهودية.

فعلى الرغم من تميز كتاب التوراة عن بقية الأدب الديني المشرقي، إلَّا أنه يحتوي على الكثير من مادة ذلك الأدب، لا سيما الرافديني منه والكنعاني. وعلى الرغم من الاستقلالية التي أعلنها يسوع المسيح عن التاريخ الديني اليهودي منذ البدايات الأولى لكرازته، إلا أن سيرته التي تقصُّها علينا الأناجيل الأربعة تحتوي على الكثير من المادة التوراتية، ومؤلفوها يقتبسون في معظم الأحيان مقاطعَ توراتيَّةً من أجل توضيح مقاصدهم، وكثيرًا ما نجد مثل هذه المُقتبسات في أقوال يسوع، مثل قوله: «الحجر الذي رذله البناءون صار رأس الزاوية»، وهو مقتبس عن سفر المزامير، ١١٨: ٢٢. وقبل أن يسلم الروح على الصليب قال: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»، وهو نداء يبتدئ به المزمور ٢٢ من سِفْر المزامير التوراتي حيث نقرأ: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني بعيدًا عن خلاصي عن كلام زفيري ... إلخ». فإذا

جِئنا إلى القرآن الكريم وجدناه على تفرُّده واستقلالية رسالته عن كلٍّ من التوراة والإنجيل، يُشير في أكثر من آية إلى وجود ما يربطه بهما، وإلى كونه الحلقة الأخيرة في سلسلة الوحي التي لم تنقطع منذ أيام آدم. نقرأ في مطلع سورة آل عمران على سبيل المثال: ﴿الم ❁ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ❁ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ❁ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ...﴾، أي إن القرآن قد صادَقَ على ما ورد في الكتابَين السابقَين؛ لأن الوحي واحدٌ لا يتجزَّأ من حيث جوهره، وإنما في تفاصيله التي تأتي في اتفاقٍ مع كل عصرٍ.

وهكذا نكون أمام نظريتَين في تفسير تشابك الكتب المقدسة؛ الأولى: تنظر إلى الدين باعتباره ظاهرةً ثقافيةً ينطبق عليها ما ينطبق على بقية ظواهر الثقافة الإنسانية من نشوءٍ وتطورٍ وتأثرٍ وتأثيرٍ؛ والثانية: تنظر إلى الدين باعتباره نتاج وحيٍ إلهيٍّ مباشر أُلْقِي في قلب النبي (= القرآن الكريم)، أو باعتباره نتاج إلهامٍ من الروح القُدُس خطَّتْه يدٌ بشريةٌ (= التوراة والإنجيل).

في هذه الدراسة التي أتابع فيها ما بدأته في كتابي السابق «الإنجيل برواية القرآن»، لا أنطلق من موقفٍ مسبقٍ من مسألة التشابه بين القصص القرآني والقصص التوراتي، وإنما من موقف باحثٍ يعتمد منهج علم الأديان المقارن. أما عن مادة المقارنة، وهي التي دعوتها بالقصص، فإنها لا تقتصر على القصص بمفهومه الضيق، مثل قصة يوسف والطوفان الكبير، بل تشتمل أيضًا على أخبار الأنبياء، وعلى مسائل لاهوتية معينةٍ مثل البعث والقيامة وما إليها من تصورات أخرويةٍ، وموضوعات متفرقةٍ أخرى. ومن الجدير بالذكر أن المادة التوراتية التي اعتمدتها للمقارنة لا تقتصر على ما ورد في الأسفار الرسمية للكتاب، وإنما تتعداها إلى تلك الأسفار غير الرسمية التي بقيَت على هامش التوراة، ولكنَّها أدَّت مع ذلك دورًا هامًّا في تشكيل الصيغة الأخيرة لليهودية بدءًا من القرن الثاني الميلادي، وهي اليهودية التلمودية.

مدخل

إطلالة على النَّصَّين

تاريخ التوراة العبرانية

«العهد القديم»

التوراة العبرانية، هو الكتاب المقدس عند اليهود، ويُشكل القسم الأول من الكتاب المقدس المسيحي تحت اسم «العهد القديم». ويؤمن كلا الطرفين بأن أسفار هذا الكتاب قد دُوِّنَت بإلهامٍ من روح الله، على الرغم من أن يد البشر هي التي خطَّته.

والتوراة أشبه بمكتبةٍ منها بكتاب؛ فهي مجموعةٌ من الكتب عكف على تدوينها محرِّرون مختلفون وعلى فتراتٍ زمنيةٍ متباعدةٍ، ولكن فكرة واحدة تنتظمها جميعًا، وهي علاقة الإله يهوه بشعب إسرائيل الذي اختاره شعبًا خاصًّا له، وسار إلى جانبه عبر جميع مراحل تاريخه. أما عن زمن تدوين هذه الكتب فأمرٌ خلافيٌّ بين علماء التوراة، ولكن الرأي الأكثر قبولًا لدى معظمهم اليوم هو أنها قد دُوِّنت بعد عودة سبي يهوذا من بابل، وعلى مدى قرنَين أو ثلاثة قرون، وذلك من أواسط القرن الخامس قبل الميلاد إلى أواسط القرن الثاني قبل الميلاد. وبما أن التاريخ الذي تكتبه التوراة لشعب إسرائيل القديم ينتهي مع تدوين سفر نحميا، وأن آخر حدثٍ في هذا السِّفْر هو سِفْر نحميا إلى البلاط الفارسي عام ٤٣٣ق.م.، فإن المحررين الذين عكفوا على رواية تاريخ بني إسرائيل، كانوا يقصُّون عن أحداثٍ معظمها مغرق في القِدَم وتفصلهم عنها قرون متطاولة. وهذا ما يُلقي اليوم ظلالًا من الشك على مصداقية الرواية التوراتية، التي دُوِّنَت من وجهة نظر دينيةٍ، وعلى قيمتها التاريخية.

لقد وُلِدَت الوحدات الأساسية للرواية التوراتية كلٌّ على حِدَة، وتم إنتاجها من قِبَل محررين مختلفين ومتباعدين زمنيًّا، ثم جاءت عملية التنسيق الأخيرة لتجمع بينها في روايةٍ مطردةٍ، ومن خلال منظورٍ أيديولوجي وكرونولوجي مفروض عليها من خارجها. وقد استخدم كل محررٍ، أو مجموعة محررين، مصادر وموروثاتٍ متباينة المنشأ؛ من قصصٍ شعبيٍّ، وموروثات متداولة شفهيًّا، إضافة إلى مصادر مكتوبة أشاروا إليها في مواضع مختلفة من النص، لا نعرف منها سوى عناوينها، ولا نعرف شيئًا عن مصداقيتها التاريخية، ولا عن الطريقة التي استفادوا بها منها. وهذا ثبتٌ بعناوينها والمواضع التي وردت فيها الإشارة إليها:

(١) كتاب حروب الرب: (سِفْر العدد ٢١: ١٤).
(٢) سِفْر ياشر: (سِفْر يشوع ١٠: ١٣ وصموئيل الثاني ١: ١٨).
(٣) سِفْر أمور سليمان: (سِفْر الملوك الأول ١١: ٤١).
(٤) سِفْر أخبار الأيام لملوك يهوذا: (سِفْر الملوك الأول ١٤: ١٩ و١٥: ٧).
(٥) سِفْر أخبار الأيام لملوك إسرائيل: (سِفْر الملوك الثاني ١: ١٨ و١٤: ٢٨).
(٦) أخبار صموئيل الرائي: (سِفْر أخبار الأيام الأُوَل ٢٩: ٢٩).
(٧) أخبار ناثان النبي: (سِفْر أخبار الأيام الثاني ٩: ٢٩).
(٨) أخبار شمعيا النبي وعِدُّو الرائي: (سِفْر أخبار الأيام الثاني ١٢: ١٥).
(٩) أخبار ياهو بن حناني: (سِفْر أخبار الأيام الثاني ٢٠: ٣٤).

تُدْعَى الكتب المؤَلِّفة للتوراة بالأسفار، مفردها سِفْر، ويعني في الأصل دَرْجًا أو لفافة الورق؛ لأن كل كتابٍ كان يُدوَّن على صحيفةٍ طويلةٍ من الورق، ثم تُدرج وتُحفظ إلى جانب الصحف المدروجة الأخرى. وتتوزَّع هذه الأسفار على أربع مجموعاتٍ رئيسةٍ، هي:

(١) الأسفار الخمسة، أو الـ Pentateuch باللغة اليونانية. وتُدْعَى أيضًا بأسفار موسى الخمسة؛ لأن الأسطورة تعزو إلى موسى نفسه أصولها الأولى. وهي: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، وتثنية الاشتراع. تنقسم موضوعات سِفْر التكوين إلى قسمَين؛ في القسم الأول يقصُّ المحرر عن خلق العالم وخلق نباتات الأرض وكائناتها الحية ثم خلق الإنسان، وعن الأجيال الأولى للبشرية، وعن الطوفان الكبير الذي أفناها، ثم عن عروق البشر التي تسلسلت من أولاد نوح الثلاثة؛ وفي القسم الثاني يرُكز على سيرة أسرةٍ واحدة فقط هي أسرة الأب الأول إبراهيم، وأولاده وأحفاده وصولًا إلى يوسف الذي رحل إلى مصر واستقدم

إليه أباه إسحاق وإخوته الأحد عشر، حيث تكاثروا هناك ثم وقعوا تحت نير العبودية بعد وفاة يوسف.

في سِفْر الخروج، وسِفْر العدد، واللاويين، وتثنية الاشتراع، يقصُّ المحرر عن خروج موسى ببني إسرائيل من مصر وإنقاذهم من العبودية، وإعطائهم الشريعة التي تلقَّاها من الرب، والسير بهم إلى الأرض التي وعد الرب إبراهيم أن يعطيها لنسله.

(٢) الأسفار التاريخية: وتحكي قصة بني إسرائيل منذ دخول أرض كنعان حتى العودة من السبي البابلي، وهي:

- سِفْر يشوع: ويحكي قصة الاقتحام العسكري لفلسطين، أو بلاد كنعان كما يدعوها النص التوراتي، وذلك بقيادة يشوع بن نون خليفة موسى، وكيف وزَّع يشوع الأراضي المكتسبة على القبائل الإسرائيلية الاثنتي عشرة، ويُفترض أن أحداثه قد تمَّت في آخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد.
- سِفْر القضاة: ويغطي أحداثًا جرت على مدى قرنَين من الزمان فيما بين عام ١٢٠٠ق.م. و١٠٣٠ق.م. وقد عاش بنو إسرائيل خلال هذه الفترة دون سلطةٍ مركزيةٍ تجمعهم، وكانوا موضع اضطهادٍ وتعدياتٍ من قبل ممالك الفلسطينيين المجاورة لهم، وممالك شرقي الأردن.
- سِفْر صموئيل الأول: ويحكي قصة صعود الملك شاؤل وتأسيسه لأول سلطةٍ مركزيةٍ للقبائل الإسرائيلية، وحروبه مع أعداء بني إسرائيل حتى مقتله في آخر معركة له مع الفلسطينيين. ومن المفترض أن شاؤل قد حكم من عام ١٠٣٠ق.م. إلى عام ١٠٠٩ق.م.
- سِفْر صموئيل الثاني: ويقصُّ عن عصر الملك داود الذي بدأ حياته العامة كحامل لسلاح الملك شاؤل، وكيف شقَّ طريقه في الجيش والحياة العامة وصولًا إلى كرسي الملك، وكيف أسَّس بعد ذلك لمُلْك مستقر، ووسَّع حدود ممتلكاته التي امتدَّت من حدود مصر إلى نهر الفرات. ومن المفترض أن داود قد حكم من ١٠٠٩ق.م. إلى ٩٦٩ق.م.
- سِفْر الملوك الأول: ويقصُّ عن العصر الذهبي للمملكة الموحَّدة لكل إسرائيل، إبَّان فترة سليمان بن داود، وعن حكمته وثرائه وأعماله وسلطته على كل مَنْ حوله من الممالك، وبنائه لبيت الرب في العاصمة أورشليم، ومنجزاته العُمرانية الأخرى، ثم وفاته وانقسام مملكته إلى مملكةٍ شماليةٍ تُدْعَى إسرائيل (أو السامرة فيما بعد)،

ومملكة جنوبية تُدْعَى يهوذا عاصمتها أورشليم. ومن المفترض أن سليمان قد حكم من ٩٦٩ق.م. إلى عام ٩٣١ق.م.

- سِفْر الملوك الثاني: ويتناول الأحداث التي جرت في المملكتَين، ودورهما في الصراعات الإقليمية، وصولًا إلى نهاية مملكة إسرائيل وتدمير عاصمتها السامرة من قبل الآشوريين عام ٧٢١ق.م.، ثم نهاية مملكة يهوذا بعد ذلك بنحو قرنٍ ونصف القرن، وتدمير عاصمتها أورشليم على يد الكلدان البابليين عام ٥٨٧ق.م. وقد أعقب كلا التدميرين سبيٌ واسع النطاق لسكان المملكتَين باتجاه مناطق بلاد الرافدَين.
- سِفْرا أخبار الأيام الأول والثاني: ويعيد هذان السِّفْران (اللذان كُتِبَا في وقتٍ متأخر) سَرْد الأحداث الواردة في أسفار صموئيل والملوك من منظورٍ سياسيٍّ وأيديولوجي مختلف.
- سِفْرا عزرا ونحميا: ويقصَّان عن عودة سبي يهوذا من بلاد بابل وإعادتهم لبناء مدينة أورشليم المهدَّمة، وبناء هيكل سليمان القديم بشكلٍ أكثر تواضعًا. وعلى هذا الشكل تنتهي الرواية التوراتية نحو أواسط القرن الخامس قبل الميلاد.
- سِفْر أستير: ويحكي قصة فتاة يهودية تُدْعَى بهذا الاسم، تزوَّجها الملك الفارسي، وقد أفادت من مكانتها لديه وحَمَتْ شعبها من الإبادة التي كان يُخطط لها الوزير هامان.

(٣) أسفار الحكمة: مجموعة أسفارٍ يغلب عليها التأمل الفلسفي، وهي: راعوث، ويونان، وأيوب، والأمثال، والمزامير، ونشيد الإنشاد.

(٤) أسفار الأنبياء: وتحكي عن حياة وتعاليم ونبوءات عددٍ من أنبياء بني إسرائيل، وهم: إشعيا، وإرميا، وحزقيال، ودانيال، وهوشع، ويوئيل، وعاموس، وعوبديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجي، وزكريا، وملاخي.

ويبدو أن هذه الأسفار الـ ٣٩ التي تؤلف اليوم التوراة العبرانية قد اتخذت وضعًا شبه قانونيٍّ منذ القرن الثاني قبل الميلاد؛ لأن الترجمة اليونانية للتوراة التي قام بها يهود الإسكندرية، والتي اكتملت في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، قد احتوت على هذه الأسفار الـ ٣٩، إضافة إلى عددٍ قليلٍ آخر من الأسفار دُوِّنَت أصلًا باللغة اليونانية، وهي: يهوديت، وطوبيا، والحكمة، ويشوع بن سيراخ، وباروخ، ورسالة إرميا. إلا أن الأصل

العبري الذي قامت عليه هذه الترجمة المدعوة بالسبعينية Septuagent[1] (ويُرْمَز إليها بالأحرف LXX) مفقود. والترجمات التي بين أيدينا اليوم إلى اللغات الحية بما فيها العربية، تعتمد مخطوطات للتوراة يعود تاريخها إلى القرن التاسع أو العاشر الميلادي، وهذا ما يقودنا إلى إلقاء نظرةٍ عامةٍ على تاريخ النص التوراتي، وترجماته القديمة المتنوعة التي أعقبت الترجمة السبعينية.[2]

عندما اكتملت الترجمة السبعينية للتوراة في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، على يد عددٍ متنوعٍ من المترجمين وعبر عقودٍ طويلةٍ متتاليةٍ، كانت هذه الفترة تشهد نشاطًا أدبيًّا يهوديًّا لا مثيل له في الفترات السابقة، الأمر الذي أدى إلى ظهور أسفارٍ توراتيةٍ جديدة كتبها مُؤلفون مجهولون ونسبوها إلى شخصياتٍ توراتيةٍ بارزةٍ. وعندما شاع تداول هذه الأسفار الجديدة بين اليهود (وبعد ذلك بين المسيحيين)، وذابت الفوارق بين ما هو قانونيٌّ وغير قانونيٍّ في الأدبيات التوراتية، لا سيَّما بعد دمار أورشليم على يد الرومان عام ٧٠م، وفقدان السلطة الدينية المركزية، ارتأى عددٌ من الربانيين اليهود وَضْع حدٍّ لهذه الفوضى، فاجتمعوا في مدينة يمنيا (يبنة القديمة) قرب حيفا، من أجل إقرار قراءةٍ موحدةٍ للأسفار من بين قراءاتٍ متعددةٍ، وأيضًا من أجل إقرار الأسفار التي اعتبروها مُلهمةً من الرب، والأسفار الأخرى الزائفة. وبذلك ظهر إلى الوجود النص الموحد للتوراة العبرانية الذي بين أيدينا اليوم، وعدد أسفاره ٣٩ سِفْرًا، بعد أن استبعد مجمع يمنيا الأسفار الثمانية الزائدة في الترجمة السبعينية التي كُتِبَت أصلًا باليونانية، وغيرها من الأسفار العبرية التي اعتُبِرَت زائفةً، ولكن القول بأن نص مجمع يمنيا الموحد هو النص الذي بين أيدينا اليوم، ليس دقيقًا تمامًا؛ وذلك لأننا لا نملك نسخةً من ذلك النص من جهة، ومن جهةٍ أخرى لأن النص القانوني الأول كان مكتوبًا بالأحرف العبرية الساكنة، وكان تحريكه يعتمد على التقاليد الشفوية المتوارثة. أما النص الحقيقي الذي يُشكل أساس الترجمات الحديثة فهو النص

[1] والاسم مأخوذ من الحكاية التي تقول: إن اثنَين وسبعين يهوديًّا من علماء التوراة قد اجتمعوا لترجمة الكتاب إلى اليونانية، فقبعوا كل واحدٍ في غرفةٍ مغلقة مدة ٧٢ يومًا أنهَوْا خلالها الترجمة. وعندما جرت مقارنة الاثنتين والسبعين ترجمة على بعضها وُجِدَت متطابقةً تمامًا، الأمر الذي يدل على أن النص هو كلمة الله الموحاة.

[2] هذه الإطلالة على تاريخ النص العبري للتوراة وترجماته القديمة تعتمد الفصل الرابع من كتاب:

John Allegro, The Dead Sea Scrolls, Penguin Books, 1996.

الماسوري المحرَّك الذي أنجزه العلماء الماسوريون أثناء الفترة الانتقالية من القرن التاسع إلى القرن العاشر الميلادي، انطلاقًا من النص القانوني لمجمع يمنيا، وكلمة ماسوريين وماسوري مُشتقةٌ من ماسوراه التي تعني التقليد أو الموروث؛ لأن علماء الكتاب في ذلك الوقت قرَّروا وَضْع الصيغة التقليدية النهائية لقراءة كتاب التوراة؛ خوفًا من الاختلاف في القراءات بعد أن صارت اللغة العبرية القديمة في عداد اللغات الميتة، وحلَّت محلها لهجات عبرية شعبية كان اليهود يستعملونها في حياتهم اليومية.

نعود الآن إلى موضوع ترجمة الكتاب إلى لغات العالم القديم، فقد كانت الترجمة السبعونية إلى اللغة اليونانية هي أول الترجمات، وقد اعتمدها في البداية يهود الإسكندرية الذين كانوا لا يقرءون العبرية؛ كما اعتمدها المسيحيون الأوائل ومؤلفو الأناجيل وبقية أسفار العهد الجديد. ومعظم المقتبسات التوراتية التي أوردها هؤلاء المؤلفون، مثل النبوءات بخصوص قدوم المسيح وغيرها، مأخوذة عن النص السبعيني. وبذلك فقد شاعت هذه الترجمة بين اليهود المتكلمين باليونانية في بلدان حوض المتوسط وبين المسيحيين؛ وما لبثت الكنيسة الناشئة حتى اعتمدتها نصًّا قانونيًّا للعهد القديم. ولكن عندما أخذ المسيحيون يحاجُّون اليهود اعتمادًا على النص السبعيني؛ فقدَ هذا النص جاذبيتَه عند اليهود، فعمدوا إلى إنجاز ترجمةٍ يونانيةٍ بديلة، وهكذا ظهرت إلى الوجود ترجمة Aquila، وذلك نحو منتصف القرن الثاني الميلادي. ويبدو أن هذه الترجمة قد اعتمدت نصًّا عبريًّا أقرب إلى النص القانوني منه إلى أصل الترجمة السبعينية؛ وبذلك حلَّ نص Aquila محل النص السبعيني لدى اليهود. وبعد ذلك بقليلٍ ظهرت Symmachus التي تميَّزت بحريةٍ أكثر في التعبير وبأسلوبٍ يونانيٍّ أكثر جزالة، وبعدها ظهرت ترجمة Theodotion التي يبدو أن أصلها العِبْري كان أقرب إلى نص Aquila والنص القانوني منه إلى أصل السبعينية. ونحو منتصف القرن الثالث قام أوريجين الإسكندري بوضع نصٍّ مقارنٍ قسَّمه إلى عدة أعمدة، حيث وضع في العمود الأول النص التقليدي القانوني، وفي العمود الثَّاني ترجمة Aquila، وفي الثالث ترجمة Symmachus، وفي الرابع ترجمة Theodotion، وفي الأخير النص السبعيني مراجعًا من قبله. وما لبثت هذه المراجعة التي قام بها للنص السبعيني حتى غَدَتْ بحدٍّ ذاتها ترجمة مستقلة، وتم تداولها على هذا الأساس. وفي هذه الأثناء أيضًا ظهرت أكثر من ترجمة آرامية كانت واحدتها تُدْعَى ترجوم. ويتميز الترجوم بتداخل المتن مع الشروح والتعليقات، الأمر الذي يجعله أقرب إلى عامة اليهود المتكلمين بالآرامية، سواء في فلسطين أم في بقية أنحاء سوريا وبلاد الرافدَين. كما ظهرت الترجمة اللاتينية في القرن الخامس الميلادي.

حتى أواسط القرن العشرين كان الاعتقاد سائدًا لدى علماء التوراة بأن النص الماسوري المنقط الذي يعود في أصوله إلى نص مجمع يمنيا، هو أقدم نصٍّ مكتوب للتوراة، وأننا لن نعثر في المستقبل على ما هو أقدم منه. ولكن حدث في عام ١٩٤٨م اكتشافٌ غَيَّر مجرى الدراسات التوراتية، حين بدأت الوثائق المعروفة بمخطوطات البحر الميت تظهر تِباعًا من كهوف وادي قمران على السفوح الغربية للمرتفعات الفلسطينية المنحدرة نحو البحر الميت، وقد تبيَّن أنها من نتاج فرقةٍ يهوديةٍ غير أرثوذوكسية (ربما كانت الفرقة الأسينية) كانت تُقيم في دير في هذه البوادي البعيدة عن المراكز الحضرية، وقد تمَّ العثور بين هذه المخطوطات على نصوصٍ كاملةٍ لعددٍ لا بأس به من أسفار التوراة، إضافة إلى نصوص منقوصةٍ أو شذرات نصوصٍ من بقية الأسفار. وبما أن مخطوطات قمران تعود بتاريخها إلى القرن الأول قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الأول الميلادي (تمَّ تدمير دير قمران نحو عام ٧٠م من قِبَل الرومان)، فإن أقدم مخطوط لكتاب التوراة الآن هو مخطوط قمران الذي يفوق في القدم نص مجمع يمنيا بنحو قرنَين من الزمان.

وقد ألقت هذه المخطوطات ضوءًا على أصول الترجمة السبعينية، التي كانت تبدو بين بقية الترجمات اليونانية تنتمي وحدها إلى تقليدٍ مختلفٍ وأصلٍ مستقل. كانت لفافة سِفْر إشعيا أول ما تمَّ ترميمه ودراسته. وقد تبيَّن أنها تتبع بدقةٍ النص الماسوري حتى في أصغر جزئيات التهجئة، الأمر الذي أكد قِدَم أصل النص الماسوري، إلا أن العثور بعد ذلك على لفافة سِفْر صموئيل الأول، قد قدَّم للعلماء مفاجأةً؛ لأنه قدَّم لنا نصًّا يتفق مع الترجمة السبعينية كلمة فكلمة تقريبًا، الأمر الذي دلَّ على أن جماعة قمران كانت تحتفظ بلفائف تنتمي إلى أكثر من أصلٍ وتقليدٍ، وأن الترجمة السبعينية تُمثِّل فعلًا تقليدًا يختلف عن تقليد النص الماسوري. أما عن الأسفار الثمانية الزائدة في الترجمة السبعينية، فقد قُيِّض لها الاستمرار في النص المقدس للعهد القديم عندما تبنَّت الكنيسة الكاثوليكية النص الماسوري وأضافت إليه هذه الأسفار التي دُوِّنَت أصلًا باللغة اليونانية، واعتبرتها أسفارًا قانونيةً من الدرجة الثانية، ولكن حركة الإصلاح البروتستانتي التي انطلقت في القرن السادس عشر عادت إلى التقليد القديم، والتزمت في عهدها القديم الأسفار العبرية فقط، والبالغ عددها ٣٩ سِفْرًا.

أثناء الفترة التي شهدت عملية تنميط وتوحيد التوراة العبرانية في نصٍّ قانونيٍّ معتمد، لم يكن النشاط الأدبي الديني قد خفَّ، ولم تتوقَّف عملية إنتاج الأسفار غير القانونية، التي نُدرجها اليوم تحت مصطلح أو عنوان Pseudepigrpha، أي الكتابات الزائفة، والتي

نستطيع تمييزها عن بقية الأجناس الأدبية اليهودية بأنها تُعالج موضوعاتٍ وأفكارًا شبيهةً بموضوعات وأفكار الكتاب المقدس القانوني، وتدَّعي مثلما تدَّعي الأسفار القانونية بأنها تحتوي على رسالة الرب وكلمته إلى الناس، ولكنها من ناحيةٍ أخرى تنفرد بالتركيز على أفكارٍ وموضوعاتٍ لم تركز عليها الأسفار القانونية، وأهمها: معنى الخطيئة، وأصل الشر والشيطان، وتنزيه الخالق، وقدوم المسيح، وبعث الأجساد في اليوم الأخير، والثواب والعقاب الأخرويان، والجنة والنار. وجميع هذه الأسفار غير القانونية دُوِّن أثناء الفترة من ٢٠٠ق.م. إلى ٢٠٠م، والوثائق التي تعود إلى ما بعد هذا التاريخ ترجع في أُصولها إلى نسخٍ مفقودةٍ من تلك الفترة. بعض هذه النصوص وصلنا عن طريق النُّسَّاخ، وبعضها فُقِد تمامًا، وبعضها تم العثور عليه في القرنَين الماضيَين، وذلك بعون قوائم بها وضعها مؤلفون قدماء. وقد مارست هذه النصوص، على الرغم من بقائها على هامش النص الرسمي، تأثيرًا كبيرًا في الفكر الرباني التلمودي اللاحق، وساهمت في تكوين الديانة اليهودية التي نعرفها اليوم. ولكي أُعطي فكرةً عن حجم هذا الأدب غير القانوني، أُشير إلى أنه قد بلغ في أحدث ترجمة إنكليزية له[٣] عددًا من الصفحات لا يقل عن عدد صفحات التوراة الرسمية.

[٣] J. H. Charlesworth, edt, The Old Testament Pseudepigrapha, Doubleday, New York, 1983.

تاريخ المصحف الشريف

يؤمن المسلمون بأن القرآن الكريم هو كلام الله أنزله على رسوله الكريم بواسطة الملاك جبريل. وقد استغرق نزول القرآن على النبي مدة اثنتين وعشرين سنة. وكان كلما تلقَّى شيئًا منه جمع الصحابة في اليوم التالي وقال لهم: إن ربكم يأمركم بكذا وينهاكم عن كذا. وتروي الأخبار المتواترة عن الصحابة وعن أزواج الرسول أنه كان يُعاني من نزول الوحي ألمًا شديدًا، فيتصبَّب عرقًا ويتصدَّع رأسه، وربما أُغميَ عليه. وكان الوحي ينزل بآيةٍ واحدةٍ أو بجملة آياتٍ متتابعات، فيعمد الرسول إلى توجيه كُتَّاب الوحي لأن يضعوا الآيات الجديدة في مكانها الصحيح من السياق القرآني.

يتألف القرآن، وَفْق المصحف الذي أقرَّه الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وهو المصحف المتداول اليوم، من ١١٤ سورة. والسورة تعني القطعة من البناء، فهي والحالة هذه قطعةٌ أو قسم من الأقسام المكوِّنة للقرآن. وقيل أيضًا: إن السورة من السُّور؛ فهي تُحيط بآياتها إحاطة السور بأحياء المدينة. وتتميز كل سورةٍ باسم خاصٍّ بها يميزها عن بقية السور، مستمد من طبيعتها وأبرز موضوعاتها، فنقول: سورة آل عِمران، أو المائدة، أو يوسف، أو يونس، وما إلى ذلك. وتتألَّف كل سورةٍ بدورها من عددٍ من الآيات جرى ترقيمها لسهولة الرجوع إليها. فأقصر السور يتألف من ثلاث آياتٍ فقط، مثل سورة العصر وسورة الكوثر، وأطولها وهي سورة البقرة تحتوي على ٢٨٦ آية.

والسُّورة تنقسم إلى نوعين؛ النوع الأول يُدْعَى بالسور المكية، وهي التي نزلت على الرسول وهو في مكة، والنوع الثاني يُدْعَى بالسور المدنية، وهي التي نزلت بعد هجرته إلى المدينة، سواء نزلت بالمدينة (يثرب) نفسها أو بمكة بعد عام الفتح، أو نزلت أثناء سفر من أسفار الرسول. وتتميَّز السور المكية بقصر الآيات، والكلام القوي المُكثَّف والمسجوع،

واللهجة الخطابية التي يكثر فيها الوعد والوعيد؛ كما تتميز بأطروحاتها الجدلية، ووحدة موضوعاتها التي تدور حول شجب الكُفر والشرك بالله، والدعوة إلى عبادة الله الواحد، وقرب يوم القيامة، ومشاهد الآخرة، والملائكة والجن والشياطين، والاستشهاد بأحداث الماضي وأخبار الأمم الغابرة. أما السُّور المدنية، فتتميز بندرة السجع، وطول نفَس الآيات، والخطاب السردي الهادئ، وقلة الجدل، وقلة أخبار الأمم الغابرة ومشاهد القيامة واليوم الآخر، وظهور التشريع الذي نادرًا ما تطرَّقت إليه السور المكية.

هذه السور كانت تُكْتَب بأمر النبي مُفرقةً على الرقاع وعظام الأكتاف وعُسُب النخل وتُحْفَظ في بيت النبي، أما عن جمعها في كتابٍ واحدٍ هو المصحف الشريف، فإن الأخبار متضاربةٌ بهذا الشأن. فبعض الأخبار تقول: إن الجمع قد تمَّ في حياة الرسول؛ فقد رُوِيَ عن قتادة قال: «سألت أنس بن مالك: مَن جمع القرآن على عهد النبي؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار، وهم أُبَيُّ بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد، ونحن ورثناه.»[١] وعن زيد بن ثابت: «كُنَّا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع.»[٢] وعن محمد بن كعب القرظي: «جَمَعَ القرآن على عهد رسول الله خمسةٌ من الأنصار، هم: مُعاذ بن جبل وعُبادة بن الصامت وأُبَي بن كعب وأبو الدرداء وأبو أيوب الأنصاري.»[٣] وعن علي بن إبراهيم: «إن النبي أمر بجَمْع القرآن الذي كان في صحفٍ وحرير وقرطاس في بيته؛ لكيلا يضيع كما ضُيِّع التوراة والإنجيل.»[٤]

وبعض الأخبار تقول: إن الجمع قد تمَّ بعد وفاة الرسول مباشرةً، وإن الإمام عليًّا كرم الله وجهه هو من تصدَّى لهذه المهمة. فيُرْوى عن فقيه البصرة محمد بن سيرين قوله: «لما تُوفِّيَ النبي أقسم عليٌّ ألَّا يرتديَ برداءٍ حتى يجمع القرآن في مصحفٍ، ففعل.»[٥] ويُرْوَى عن ابن المنادي سماعه لروايةٍ تقول: إن عليًّا لما رأى من الناس طيرةً عند وفاة النبي، أقسم أنه لا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن؛ فجلس في بيته ثلاثة أيامٍ حتى جمع

[١] صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي، ج٥.

[٢] الزركشي: البرهان في علوم القرآن، بيروت، ج١، ص٢٩٩.

[٣] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج١، ص٧٢.

[٤] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص٢٠.

[٥] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص١٧.

القرآن، فهو أول مصحفٍ جُمع فيه القرآن من قبله.»[٦] ويبدو أن مصحف عليٍّ هذا كان مُرتبًا حسب النزول. يقول السجستاني: «فمنهم من رتَّبها على النزول، وهو مصحف علي كان أوله سورة اقرأ ثم المدثر ثم نون ثم المزمل، وهكذا إلى آخر المكِّي والمدني».[٧]

وبعض الأخبار تقول: إن جَمْع القرآن تمَّ في عهد خلافة أبي بكر بتحريضٍ من عمر بن الخطاب وإشرافه؛ فقد ورد في صحيح البخاري عن زيد بن ثابت، قال: أرسل إليَّ أبو بكر يوم مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده. فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: «إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقرَّاء القرآن، وإنِّي أخشى أن يستحرَّ القتل بالمَواطن فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإنِّي أرى أن تأمر بجمع القرآن.» قلتُ لعمر: «كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسول الله؟» فقال عمر: «هذا والله خير». فلم يزل عمر يُراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رآه عمر. قال زيد: قال أبو بكر: «إنك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نتهمك، وكنتَ تكتب الوحي لرسول الله. فتتبَّع القرآن فاجمعه.» فوالله لو كلفوني نقل جبلٍ من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: «كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله؟» قال: «هو والله خيرٌ». فلم يزل أبو بكر يُراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخَاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ …﴾ حتى خاتمة السورة. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفَّاه الله، ثم عند عمر خلال حياته، ثم عند حفصة بنت عمر.[٨]

وبعض الأخبار يعزو إلى عمر في ولايته جمع القرآن؛ فقد رُوِيَ عن أبي داود من طريق الحسن «أن عمر سأل عن آية من كتاب الله، فقيل: كانت مع فلان قُتِل يوم اليمامة، فقال: إنا لله. وأمر بجمع القرآن، فكان أول من جمعه في المصحف.»[٩] وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: «أراد عمر أن يجمع القرآن، فقام في الناس فقال: «من كان تلقَّى من رسول الله شيئًا من القرآن فليأتنا به.» وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب. وكان لا

---

[٦] ابن النديم: الفهرست، طبعة طهران، ص٣٠.

[٧] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج١، ص٦٢.

[٨] البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن. وأيضًا السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج١، ص٥٧.

[٩] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج١، ص٥٨.

يقبل شيئًا من ذلك حتى يُشهِد عليه شاهدَين. فجاء خزيمة فقال: إني رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما. فقال: وما هما؟ قال: تلقَّيت من رسول الله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ...﴾.[١٠]

وروى ابن سعد أن أول من جمع القرآن عمر بن الخطاب. ويُروى أن عمر كان يُشدِّد على التزام لهجة قريش في تدوين القرآن. فقد سمع رجلًا يقرأ في الآية ٢٥ من سورة يوسف: «لَيَسْجُنُنَّه عَتَّى عِين»، بتبديل الحاء إلى عين. فقال له عمر: مَنْ أقرأك هذا؟ قال: ابن مسعود. فقال عمر: «حَتَّى حِين.» ثم كتب إلى ابن مسعود يقول: «سلامٌ عليك. أما بعد، فإن الله أنزل القرآن فجعله قرآنًا عربيًّا مبينًا، وأنزله بلغة هذا الحي من قريش، فإذا أتاك كتابي هذا فأقرئ الناس بلغة قريش ولا تُقرِئْهم بلغة هذيل.»[١١]

وبعض الأخبار تقول بجمع الخليفة الثالث عثمان بن عفان للقرآن. فقد قال الشعبي: «لم يجمع القرآن أحدٌ من الخلفاء الأربعة إلا عثمان.»[١٢] وفي روايةٍ ثانيةٍ أن عمر تُوفِّي قبل أن تكتمل عملية جمع القرآن، فقام عثمان بن عفان فقال: من كان عنده من كتاب الله شيءٌ فليأتنا به. وكان لا يقبل من ذلك شيئًا حتى يُشْهِدَ شاهدين.[١٣] وفي روايات أخرى، فإن عثمان لم يجمع القرآن وإنما أخذ المصحف الذي جُمِع تحت إشراف عمر في عهد أبي بكر، وكان محفوظًا في بيت عمر حتى قُتِل، فآل إلى ابنته حفصة زوجة الرسول، وهو المعروف بمصحف حفصة، فأرسل إليها عثمان يطلبه من أجل استنساخه على أن يُعيده إليها بعد انتهاء المهمة.[١٤]

ولكن شكوكًا تحوم حول أصل مصحف حفصة؛ لأن البعض يقول: إنه كان نسخةً عن مصحف سابقٍ، وإنها تدخَّلت أثناء نسخه في ترجيح بعض القراءات الخلافية. فعن سالم بن عبد الله أن حفصة أمرت أحد الكُتَّاب أن ينسخ لها مصحفًا وقالت له: إذا بلغتَ هذه الآية (السورة ٢ الآية ٢٣٨) فاكتب: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر، وقوموا لله قانتين.»[١٥] وصلاة العصر في الآية ٢٣٨ من سورة البقرة غير موجودة في

---

[١٠] ابن سعد: الطبقات الكبرى، بيروت، ج٣، ص٢١١.

[١١] الأنباري: إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله، دمشق، مجمع اللغة العربية، ص١٣.

[١٢] الشعبي: معرفة القراء الكبار، ج١، ص٢٧.

[١٣] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص١٦.

[١٤] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص٢٦.

[١٥] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص٩٥–٩٧.

المصحف العثماني الموحَّد، حيث ورد: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

وقيل أيضًا: إن أم المؤمنين عائشة كانت تحتفظ بمصحفٍ وردت فيه الآية إيَّاها مثلما وردت في مصحف حفصة.[١٦]

(١) دعاوى التحريف واختلاف القراءات

هذا الغموض الذي يُحيط بعملية جمع القرآن خلال العَقدَين اللذَين أعقبا وفاة الرسول؛ يوضِّح لنا سبب وجود اختلافاتٍ في عدد سور القرآن في مصاحف الصحابة، إضافة إلى اختلافاتٍ في القراءة. فمصحف عبد الله بن مسعود كان يحتوي على ١١٢ سورةً بدل ١١٤ سورةً في المصحف العثماني؛ لأنه ترك المعوذتين، أي سورة الفلق «قل أعوذ برب الفلق ...» وسورة الناس: «قل أعوذ برب الناس»؛ لظنِّه أنهما ليستا من القرآن؛ فقد كان يرى النبي يعوِّذ بهما الحسن والحسين في صغرهما مثلما كان يعوِّذهما بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامة ...»، وبغير ذلك مما ليس من القرآن.[١٧] وفي روايةٍ أخرى أن مصحف ابن مسعود تنقصه الفاتحة أيضًا، وبذلك يكون عدد سوره ١١١ سورة.[١٨]

أما مصحف أُبَي بن كعب، فقد كان يحتوي على ١١٦ سورةً بعد أن أضاف افتتاح دعاء القنوت وظنَّه سورتَين؛ لأنه رأى الرسول يدعو بهما في الصلاة فظنَّهما من القرآن.[١٩] وهنالك من يقول: إن السورتَين الزائدتَين في مصحف أُبَي هما دعاء الخلع: «اللهم إنا نَستعِينُك ونَسْتغفرُك، ونُثْني عليك ولا نَكْفُرك، ونَخْلَع (أي ننزع من بيننا) ونَتْرُك من يَفْجُرك»، ودعاء الحفد: «اللهم إيَّاك نَعبُد، ولك نُصلِّي ونَسجُد، وإليك نسعى ونَحفِد (أي نأتي خفافًا)، نرجو رحمتك ونخشى نقمتك، إن عذابك بالكافرين مُلْحِق (أي آتٍ).»[٢٠] ويبدو أن غير واحدٍ من الصحابة قد اعتبر هذَين الدعاءَين من القرآن؛ فقد رُوِيَ أن عمر قد

---

[١٦] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص٩٤.

[١٧] ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، بيروت، ص٢٦.

[١٨] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج١، ص١٤٢.

[١٩] ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، بيروت، ص٢٦.

[٢٠] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج١، ص١٤٣.

قرأ في صلاته بعد الركوع فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ... إلى آخر الدعاءَين.[٢١] وهنالك من يقول: إن مصحف أُبَي كان يحتوي على ١١٥ سورةً لا على ١١٦ سورة؛ لأنه أدمج سورة الفيل وسورة قريش في سورةٍ واحدةٍ.[٢٢]

ويُقال بالمقابل: إن مصحف عثمان الموحد قد أسقط من نصِّه أكثر من آيةٍ لعدم ثبوتها عن طريق شاهدَين. ويبقى العلم عند الله أن تكون من القرآن أم لا؛ فقد رُوِيَ عن عائشة قولها: «كان فيما أُنْزِل من القرآن: عَشْر رَضَعاتٍ معلوماتٍ يُحَرِّمن.»[٢٣] ورُوِيَ عنها أيضًا: «لقد نزلت آية الرجم، ورضاعة الكبير عشرًا. ولقد كانت في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله وتشاغلنا بموته دخل الداجن فأكلها.»[٢٤]

ويُروَى أن عمر أتى بآية الرجم إلى زيد بن ثابت فلم يكتبها؛ لأن عمر كان وحده.[٢٥] ولكن عمر بقي مُصرًّا على موقفه، ويُروَى عنه أنه قال غاضبًا: «لولا يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي.»[٢٦] وآية الرجم تقول وفق رواية أُبَي بن كعب: «إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالًا من الله، والله عزيز حكيم.»[٢٧]

ومن الأخبار القائلة بسقوط آياتٍ كثيرةٍ من مصحف عثمان، ما هو مغرقٌ في المبالغة، ولكننا نذكره من باب العلم بالشيء؛ فقد رُوِيَ عن عائشة قولها: «كانت سورة الأحزاب تُقْرَأ في زمن النبي مائتَي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن (أي ٧٣ آية).»[٢٨] ويُرْوَى عن زر بن حبيشٍ قال: «قال لي أُبَي بن كعب: كأيِّن تقرءون سورة الأحزاب؟ قلت: ثلاثًا وسبعين وإما أربعًا وسبعين. قال: قط؟ إن كانت لتقارب سورة

[٢١] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج١، ص١٤٣.
[٢٢] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج١، ص١٤٤.
[٢٣] صحيح مسلم، طبعة مصر، ج٤، ص١٦٧.
[٢٤] ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، بيروت، ص٣١٠.
[٢٥] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج١، ص٥٨.
[٢٦] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج١، ص٥٨.
[٢٧] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج٢، ص٢٥.
[٢٨] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج٢، ص٢٥.

البقرة أو هي أطول منها، وإن كانت فيها سورة الرجم.[٢٩] وقيل في سورة براءة (أو التوبة) الشيء نفسه. فقد رُوِيَ عن مالك أن سورة براءة كانت تَعْدِل بطولها سورة البقرة.[٣٠]

وحول الموضوع نفسه لدينا أخبار أقل مبالغة من سابقاتها. فقد روى أبو سفيان القلاعي أن مسلمة بن مخلد الأنصاري قال لهم ذات يوم: أخبروني بآيتَين في القرآن لم تُكْتَبا في المصحف، فلم يخبروه وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك. فقال لهم: «إن الذين آمنوا وهاجروا، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ألا أبشروا أنتم المفلحون. والذين آووهم ونصروهم، وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم، أولئك لا تعلم نفسٌ ما أُخْفي لهم من قرة عين، جزاءً بما كانوا يعملون.»[٣١] وروى المسوَّر بن مخرمة قال: قال عمر بن الخطاب لعبد الرحمن بن عوف: ألم تجد فيما أُنْزِل علينا: «أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرةٍ؟» فإنَّا لا نجدها. قال ابن عوف: أُسْقِطَت فيما أُسْقِط من القرآن.[٣٢] ويُروَى عن أبي واقدٍ الليثي قال: كان رسول الله إذا أُوحِيَ إليه أتيناه فعلَّمنا مما أوحي إليه، فجئت ذات يومٍ فقال: «إن الله يقول: إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو أن لابن آدم واديًا لأحب أن يكون إليه الثاني، ولو كان إليه الثاني لأحبَّ أن يكون إليهما الثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب.»[٣٣] وهذه الآيات غير موجودةٍ في مصحف عثمان، ويُروَى عن عبد الله بن عباس أنه قال: لما نزلت: «وأَنْذِر عَشِيرَتَك الأقرَبِين، وَرَهطك مِنهُم المخلصين.»[٣٤] ولا تحتوي الآية المذكورة (الشعراء: ٢١٤) في مصحف عثمان على «ورهطك منهم المخلصين». ويُرْوَى عن عبد الله بن الزبير أنه كان يقرأ في مصحفه: «ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير، ويستعينون بالله على ما أصابهم.»[٣٥] ولا تحتوي الآية ١٠٤ من سورة آل عمران على جملة «ويستعينون بالله على ما أصابهم». وكان ابن الزبير يقرأ أيضًا: «لا جُناح عليكم أن تبتغوا فضلًا من ربكم في مواسم الحج، فإذا أفضتم من

[٢٩] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج٢، ص٢٥.

[٣٠] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج١، ص٦٥.

[٣١] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج٢، ص٢٥.

[٣٢] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج٢، ص٢٥.

[٣٣] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج٢، ص٢٥.

[٣٤] السيوطي: الدر المنثور، طبعة قم، ج٥، ص٩٦.

[٣٥] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص٩٣.

عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام...»[٣٦] وقد وردت الآية ١٩٨ من سورة البقرة في مصحف عثمان على الشكل الآتي: «ليس عليكم من جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ...» ونلاحظ هنا أن مصحف ابن الزبير قد زاد جملة «في مواسم الحج»، كما قرأ «ليس عليكم من جناح»: «لا جناح عليكم». وهذا ما يُحِيلنا إلى نوعٍ آخر من الاختلافات وهو الاختلاف في القراءة، وهو ما سنلتفت إليه الآن، دون مزيدٍ من الأمثلة بخصوص النقص والزيادة.

فقد رَوَى البعض أن عمر بن الخطاب صلَّى في الناس فقرأ في سورة الفاتحة: «صراط من أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، وغير الضالين». وهي في مصحف عثمان: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؛ وأنه قرأ الآية الأولى من سورة آل عمران: «الم، الله لا إله إلا هو الحي القيام» بدلًا من ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.[٣٧] ورُوِيَ أن عبد الله بن مسعود قرأ في مصحفه الآية ٤٠ من سورة النساء: «إن الله لا يظلم مثقال نملة» بدلًا من ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ وأنه قرأ الآية ٤٣ من سورة آل عمران: «واركعي واسجدي في الساجدين» بدلًا من ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾؛ وأنه قرأ في الآية ٦٤ من سورة المائدة: «بل يداه بسطان» بدلًا من ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾؛ وأنه قرأ الآية ١٩٧ من سورة البقرة: «وتزوَّدوا، وخير الزاد التقوى» بدلًا من ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾؛ وقرأ في الآية ٦١ من سورة البقرة: «من بَقلها وقثائها وثومها» بدلًا من ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا﴾.[٣٨]

ورُوِيَ عن أصحاب ابن مسعود أنهم قرءوا في الآية ٢٠٢ من سورة البقرة: «أولئك لهم نصيبٌ ما اكتسبوا» بدلًا من ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾؛ وفي الآية ١٤٨ من سورة البقرة: «ولكلٍّ جعلنا قبلة يرضونها» بدلًا من ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾؛ وفي الآية ١٩٦ من سورة البقرة: «وأقيموا الحج والعمرة للبيت» بدلًا من ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾؛ وفي الآية ١٤٤ من سورة البقرة: «وحيثما كنتم فولوا وجوهكم قِبله» بدلًا من ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾؛ وفي الآية ١١٠ من سورة الإسراء: «ولا تُخافت بصوتك ولا

[٣٦] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص٩٢.

[٣٧] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص٦٠–٦١.

[٣٨] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص٦٤–٦٥.

تُعال به» بدلًا من ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾.[39] ويتابع السجستاني في كتاب المصاحف — الذي نعتمد عليه هنا — تعداد ١٣٠ موضعًا في القرآن اختلفت فيه قراءة ابن مسعود عن قراءة مصحف عثمان. ثم ينتقل إلى مصحف ابن عباس الذي نقتطف من اختلافاته مع مصحف عثمان المواضع الآتية؛ فقد قرأ ابن عباس في الآية ١٥٨ من سورة البقرة: «فلا جُناح عليه ألا يطوَّف بهما» بدلًا من ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ وفي الآية ٢٠٢ من سورة البقرة: «أولئك لهم نصيبٌ مما اكتسبوا» بدلًا من ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾؛ وفي الآية ١٧٥ من سورة آل عمران «إنما ذلكم الشيطان يُخوفكم أولياءه» بدلًا من ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾؛ وفي الآية ١٩٦ من سورة البقرة: «وأقيموا الحج والعمرة للبيت» بدلًا من ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ﴾؛ وفي الآية ١٥٩ من سورة آل عمران: «وشاورهم في بعض الأمر» بدلًا من ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾؛ وفي الآية ٣٠ من سورة ياسين: «يا حسرة العباد» بدلًا من ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾؛ وفي الآية ١٨٧ من سورة الأعراف: «كأنك حفيٌّ بها» بدلًا من ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾؛ وفي الآية ٢٢٧ من سورة البقرة: «وإن عزموا السراح» بدلًا من ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾، وكذا الأمر في عشرة مواضع أخرى.[40]

وقد اختلفت قراءات التابعين مثلما اختلفت قراءات الصحابة، فقد قرأ عبيد بن عُمير الآية الأولى من سورة العلق: «سبح اسم ربك الذي خلقك» بدلًا من ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وقرأ عطاء الآية ١٧٥ من آل عمران: «الشيطان يُخوفكم أولياءه» بدلًا من ﴿الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾؛ وقرأ عكرمة في الآية ١٨٤ من سورة البقرة «وعلى الذين يطوِّقونه» بدلًا من ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾؛ وقرأ مجاهد الآية ١٥٨ من سورة البقرة: «فلا جناح عليه ألَّا يطوف بهما» بدلًا من ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، وقرأ سعيد بن جبير أيضًا في الآية ٥ من سورة المائدة: «اليوم أحلَّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب من قبلكم»، وجملة «من قبلكم» غير واردةٍ في مصحف عثمان؛ وقرأ ابن جبير أيضًا في الآية ١١٧ من سورة الأعراف: «فإذا هي تلقم ما يأفكون» بدلًا من ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾؛ وقرأ علقمة الأسود في سورة الفاتحة: «صراط من أنعمت عليهم» بدلًا من ﴿صِرَاط الَّذِين أَنعَمت عَلَيهِم﴾ ... وأمور أخرى من هذا القبيل.[41]

---

[39] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص٦٦–٦٧.

[40] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص٨٦–٨٧.

[41] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص٩٨–١٠٠.

ومن الاختلاف في القراءات ما هو ناجمٌ عن الاختلاف في لفظ بعض الكلمات تبعًا للهجات العرب المتباينة، فكان مَنْ سمع الآية ينطقها بلهجة قومه. وهذا ما يُدْعَى باختلاف الأحرف. وعلى الرغم من أن الرواة قد أوردوا أحاديث عن الرسول يُفْهَم منها أنه قد أجاز مثل هذا الاختلاف، كقوله: «نزل القرآن على ثلاثة أحرف» أو «نزل القرآن على أربعة أحرف» أو «نزل القرآن على سبعة أحرف»، إلا أن الموقف الحقيقي للرسول من هذه المسألة يوضِّحه ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ سورة الأحقاف وأقرأها آخر فخالفني في آيةٍ منها، فقلت: من أقرأك؟ قال: أقرأني رسول الله ﷺ فقلت له: لقد أقرأني رسول الله ﷺ كذا وكذا. فأتيت رسول الله ﷺ وعنده رجل فقلت: يا رسول الله ألم تُقرِئني كذا وكذا. قال: بلى. قال الآخر: ألم تُقرِئني كذا وكذا. قال: بلى. فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ فقال الرجل الذي عنده: لِيَقْرأْ كلٌّ واحدٍ منكما كما سمع، فإنما هلك أو أُهْلِكَ من كان قبلكم بالاختلاف. فما أدري أأمره بذاك أو شيء قاله من قِبَله.[42] وهذا هو الموقف الذي تبنَّاه عمر بن الخطاب عندما أمر ابن مسعود أن يُقرئ القرآن بلغة قريش، مما رويناه سابقًا.

مع انتشار العرب في الأمصار عقب الفتوحات، استفحل أمر الاختلافات في القراءة، الأمر الذي دعا الخليفة الثالث عثمان بن عفان إلى القيام بخطوته الجريئة في توحيد المصاحف في مصحف قانونيٍّ واحد. ويُرْوَى عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينيا وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان: يا أمير المؤمنين أَدْرِك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ... فأمر عثمان بجمع المصاحف.[43] ويُرْوَى عن حذيفة نفسه قوله: غزوت في فتح أرمينيا فحضرها أهل العراق وأهل الشام، فإذا أهل الشام يقرءون على قراءة أُبَي بن كعب، فيأتون بما لم يسمع به أهل العراق، فتُكفِّرهم أهل العراق؛ وإذا أهل العراق يقرءون بقراءة ابن مسعود فيأتون بما لم يسمع به أهل الشام، فتُكفِّرهم أهل الشام، فأمرني عثمان أن أكتب له مصحفًا.[44]

---

[42] مسند الإمام أحمد بن حنبل، بيروت، ج١، ص٤١٩.

[43] تفسير الطبري، ج١، ص٢٥.

[44] تفسير الطبري، ج١، ص٢١.

ويبدو أن حُذيفة بن اليمان قد أوكل بمهمة الإشراف على إعداد المصحف الموحد، وأن هذه العملية قد تمَّت من قِبَل لجنة شُكِّلَت لهذا الغرض؛ فقد روى السجستاني في كتاب المصاحف أن عثمان استدعى الكُتَّاب وهم: زيد بن ثابت، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن حارث بن هشام، وعبد الله بن الزبير، وأمرهم بإعداد المصحف الموحَّد، وقال لهم: ما اختلفتم فيه فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. وورد في رواية أخرى أن عدد أفراد هذه اللجنة كان اثني عشر كاتبًا من المهاجرين والأنصار.[٤٥] أما عن الطريقة التي اتبعتها هذه اللجنة في العمل، فيبدو أنها اعتمدت أساسًا مصحف حفصة بنت عمر، بدليل الخبر القائل بأن عثمان أرسل إلى حفصة يقول: «أرسلي إليَّ بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك.»[٤٦] وأن هذا المصحف قد قورن على المصاحف الأخرى. وفي مواضع الاختلاف كان يجري الاستعانة بالشهود، وذلك بدليل الرواية التي تقول: إن عثمان عندما جمع القرآن قام في الناس فقال: من كان عنده شيءٌ من كتاب الله فليأتنا به، وكان لا يقبل من ذلك شيئًا حتى يُشهد شاهدين.[٤٧] وبعد انتهاء العمل من المصحف الموحد، الذي دُعِيَ منذ ذلك الوقت بالمصحف العثماني، نُسِخَت منه نُسخٌ وُزِّعَت على الأقطار الإسلامية، وأمر عثمان بإحراق بقية المصاحف ومنع تداولها. وقد أثنى علي بن أبي طالب على ما فعله عثمان وقال: «لو وُلِّيتُ لفعلت مثلما فعل.»[٤٨] ووفق روايةٍ ثانيةٍ: «لو كنت أنا لصنعت في المصاحف ما صنع عثمان.»[٤٩] وهكذا ظهر المصحف القانوني الموحد قبل انقضاء أربعة عقودٍ على وفاة الرسول الكريم.

على أن المشكلة لم تنتهِ عند هذا الحدِّ؛ فالحروف العربية لم تكن بعدُ قد قبلت الحركات الصوتية التي تُوضع فوق الحروف الساكنة لتحريكها وضبط أواخر الكلمات، مثلما لم تكن الحروف المتشابهة قد قبلت النقاط بعددها ومكانها من الحرف للتفريق بينها، وذلك مثل التاء والياء والباء والنون، فكلمة «ىىـ» يمكن أن تُقْرَأ «بنت» أو «بيت» أو «نبت»؛ ولذلك كان لا بد من الشروع بعملية الإعجام وهي تزويد الحروف المتشابهة بالنقاط، وبعملية

---

[٤٥] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص٢٦ و٤٣–٤٤.

[٤٦] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص٢٦.

[٤٧] السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص١٦.

[٤٨] الزركشي: البرهان في علوم القرآن، بيروت، ج١، ص٣٠٢.

[٤٩] مكي بن أبي طالب: الإبانة عن معاني القراءات، دمشق، ص٧٩.

التنقيط وهي وضع الحركات الصوتية فوق الحروف. وهاتان العمليتان تُدْعَيان اختصارًا بالتنقيط، وقد تمَّ تنقيط القرآن الكريم في العصر الأموي. وتُعْزَى هذه العملية إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي تارة، وإلى أبي الأسود الدؤلي تارة أخرى. وبهذه الطريقة تم ضبط القرآن بشكلٍ نهائيٍّ مع نهاية القرن الأول الهجري.

دراسة مقارنة

إبراهيم الخليل

وُلِدَ إبراهيم، وفق الرواية التوراتية، في موطن آبائه بمدينة أور الواقعة في المنطقة الجنوبية من وادي الرافدَين (= العراق)، والتي يدعوها المحرر التوراتي بأور الكلدان نسبة إلى الشعب الكلداني السامي الذي استوطن في هذه المنطقة، وأسَّس في نهاية القرن السابع قبل الميلاد المملكة البابلية الجديدة التي كان من أبرز ملوكها نبوخذ نصر.[١] ولسبب لا يذكره نص سِفْر التكوين (ولكن توضِّحه بعض الأسفار غير القانونية، على ما سنرى لاحقًا)، فقد قرَّر أبو إبراهيم المدعو تارح ترك موطنه والتوجه إلى بلاد كنعان للإقامة فيها، فارتحل مع ولدَيه؛ إبراهيم (أو أبرام) وناحور، وزوجتيهما ساراي ومِلكة، ولوطًا ابن ابنه الثالث المتوفَّى المدعو هاران، ولكن تارح توقَّف في مدينة حرَّان (أو حاران) الواقعة في الشمال السوري؛ ليقيم فيها مدةً من الزمن قبل أن يتابع طريقه إلى كنعان، ولكنه توفِّي هناك (التكوين ١١: ٢٧–٣٢).

بعد وفاة تارح خاطب الرب إبراهيم وقال له: «اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمةً عظيمةً وأُباركك وأُعظِّم اسمك وتكون بركةً.» فذهب إبراهيم كما قال له الرب، وأخذ معه ساراي امرأته وكانت عاقرًا لا تنجب، ولوطًا ابن أخيه المتوفى هاران، وكل مقتنياتهما والنفوس التي امتلكوها في حاران، وأتوا إلى أرض كنعان. أما أخوه ناحور فقد بقي في الشمال السوري (التكوين ١٢: ١–٥).

---

[١] إن إطلاق اسم أور الكلدان على هذه المدينة، يدل على أن أخبار إبراهيم التوراتي قد دُوِّنَت لأول مرة خلال تواجد سبي يهوذا في منطقة بابل؛ لأن الشعب الكلداني لم يكن معروفًا أثناء الحقبة التي من المفترض أن إبراهيم قد عاش فيها، وهي النصف الأول من الألف الثاني ق.م.

في أرض كنعان ظهر الرب لإبراهيم وقال له: «لنَسْلك أعطي هذه الأرض.» فبنى إبراهيم مذبحًا للرب في شكيم حيث ظهر له، ثم ارتحل جنوبًا إلى قرب مدينة بيت إيل، فإلى أقصى الجنوب الفلسطيني (التكوين ١٢: ٦–٩).

عاش إبراهيم وابن أخيه لوط في كنعان حياة الرعي المتنقل، وكان يُقيم مع أسرته وعبيده تحت الخيام على أطراف المدن الكنعانية. وفي إحدى سنوات الجفاف حصل جوعٌ في الأرض، فارتحل إبراهيم ولوط إلى مصر. وكانت ساراي زوجته فائقة الجمال، فقال عنها للمصريين إنها أخته لكيلا يُقْتَل بسببها وتؤخذ منه، ولكن بعض أعوان فرعون رأوها وامتدحوها لدى سيدهم، فأمر أن يؤتى بها وضمَّها إلى حريمه، وصنع لإبراهيم خيرًا بسببها، وصار له غنمٌ وبقرٌ وحمير وعبيد وإماء وجمال. ولكن الرب ضرب فرعون وبيته ضرباتٍ عظيمة بسبب ساراي، فدعا فرعون إبراهيم وقال له: «لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لتكون زوجتي؟ والآن هي ذي امرأتك خذها واذهب.» وأوصى عليه فرعون رجالًا فشيَّعوه وامرأته وكل ما كان له (التكوين ١٢: ١٠–٢٠).

عاد إبراهيم إلى جنوب بلاد كنعان، وكانت مواشيه ومواشي ابن أخيه لوط كثيرة، فاختصم رعاتهما، وقرَّر الاثنان الافتراق حتى لا تصير بينهما خصومةٌ. فارتحل لوط شرقًا وسكن في عبر نهر الأردن، وكانت هناك مدينتان مزدهرتان هما: سدوم وعمورة. فخيَّم لوط على أطراف مدينة سدوم،[٢] أما إبراهيم فسكن على أطراف مدينة حبرون (= الخليل) في الجنوب الفلسطيني. وقال الرب لإبراهيم بعد اعتزال لوط عنه: «ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا؛ لأن جميع الأرض التي ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد» (التكوين: ١٣).

قصة إبراهيم في سِفْر التكوين طويلةٌ ومليئةٌ بالتفاصيل، والقرآن الكريم لم يُورد من أحداثها إلا عددًا من المفاصل الرئيسة التي من شأنها إلقاء الضوء على أصول عقيدة التوحيد الصافي التي بشَّر بها الإسلام. فإبراهيم لم يكن أبًا للشعب العبراني وإنما أبًا للأنبياء: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٩ العنكبوت: ٢٧). ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ... مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣ آل عمران: ٦٥–٦٧).

[٢] لم يرِد ذكر اسم هاتَين المدينتَين في سجلات ثقافات الشرق القديم.

القصة في القرآن موزَّعة بين عدد من السور، وهي تبتدئ بإبراهيم الشاب وقد اهتدى إلى فكرة التوحيد وعزف عن دين قومه.

(١) شباب إبراهيم في موطنه، وهدايته

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٦ الأنعام: ٧٤). ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * ... قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (١٩ مريم: ٤١–٤٨). ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (٢٦ الشعراء: ٦٩–٧٣). ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ... * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٩ العنكبوت: ١٦–١٧) ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٣٧ الصافات ٩٥–٩٦).

لم يذكر سِفْر التكوين شيئًا عن أيام إبراهيم في موطنه أور الكلدان، ولا عن قصته مع أبيه الذي يُدْعَى في التوراة تارح ويُدْعَى في القرآن آزر، ولكن هذه القصة وردت في أحد الأسفار غير القانونية، وهو المعروف بكتاب اليوبيليات. فهنا نجد أبرام بعد أن اعتزل أهله وملته، يوجِّه لأبيه خطابًا يتطابق مع خطاب إبراهيم في الرواية القرآنية، حيث يقول له:

«ما نفع هذه الأصنام التي نسجد لها ونطلب عونها؟ إنها خرساء ولا روح فيها، إنها ضلالةٌ للقلب فلا تعبدها، بل اعبد رب السماء الذي يُرسل المطر والندى، الذي صنع كل شيءٍ على الأرض، وخلق كل شيءٍ بكلمته، ومنه تُستمدُّ كل حياة. لماذا تعبد هذه الأصنام التي يصنعها الناس بأيديهم وتحملها على كتفك، وليس فيها نفعٌ لأحد. سوف يُخْزَى من صنعها ويضلُّ قلب من يعبدها. فقال له أبوه: أعرف ذلك يا ولدي، ولكن ماذا أفعل وقد أوكل إليَّ القوم أمر سدانتها؟ لو كلمتهم بالبر لقتلوني لأن قلوبهم متعلقةٌ بها. الزم

الصمت يا بني لكيلا يُصيبك أذًى منهم. ثم إن أبرام حدَّث أخوَيه بما حدَّث به أباه فاستعر غضبهما عليه.»[٣]

ولكن إبراهيم بقيَ مُصرًّا على موقفه. وقد دفعته جرأة الشباب وتهوُّره إلى اقتحام المعبد وتحطيم تماثيل الآلهة فيه. نتابع في القرآن الكريم:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * ... قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢١ الأنبياء: ٥٥–٧١). وفي الآية الأخيرة إشارة إلى مغادرة إبراهيم لموطنه في أور الكلدان والتوجُّه إلى الأرض المباركة في كنعان.

وقد وردت هذه القصة في كتاب اليوبيليات، ولكن بتنويعٍ آخر؛ فإبراهيم لا يحطم الأصنام في المعبد وإنما يُشعل النار فيه ويقضي على الأصنام:

«وكان بعد مدةٍ أن أبرام تسلَّل في الليل إلى بيت الأصنام، وأشعل فيه النار وأحرق كل ما في البيت. فهبَّ القوم لإنقاذ آلهتهم من النار، وكان هاران بينهم فاحترق ومات ودُفِن في أور. فقام تارح ومعه أبرام ولوط ابن هاران المتوفى، وارتحل من أور الكلدان قاصدًا بلاد كنعان، ولكنه توفِّي في حاران حيث أقام لفترةٍ» (كتاب اليوبيليات).

وقبل ذلك عرضت لإبراهيم الشاب تجربةٌ روحية عميقة وهو يبحث عن الله في الآفاق. نقرأ في القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي

---

[٣] J. H Charlesworth, the Old Testament Pseudepigrapha, Dobleday, New York, 1983, vol. 2 p. 7 FF.

فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٦ الأنعام: ٧٤–٨٠).

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (٣٧ الصافات: ٨٣–٩٣).

في كتاب اليوبيليات تحدث هذه التجربة لإبراهيم وهو في حران، عندما كان يُراقب النجوم أيضًا:

«وذات مساءٍ جلس أبرام في حران يراقب النجوم من الغسق إلى الفجر؛ ليستخيرها فيما سوف تأتي به السنة الجديدة من خيرٍ ومطرٍ، ولكن قلبه نبض بكلماتٍ، وحدَّث نفسه قائلًا: إن كل شارات السماء وشارات النجوم والشمس والقمر هي في يد الرب. فما الذي أنا باحثٌ عنه فيها؟ إن شاء الرب جعل الشمس تُمطر من الصباح إلى المساء، وإن شاء أغلقها؛ لأن كل شيءٍ ملك يديه. ثم قام فصلَّى قائلًا: أيها الإله العلي، أنت وحدك إلهي. لقد خلقت كل شيءٍ وكل ما في الوجود صنعة يدك. لقد اخترتك واخترت ملكوتك، فأنقذني من الأرواح الشريرة التي تُسيطر على قلوب البشر، ولا تجعلهم يضلوني عنك. ثم حدَّث نفسه متسائلًا: هل أعود إلى أور الكلدان حيث يطلبون نفسي هناك أم أمكث في هذا المكان؟ وما إن أنهى صلاته حتى جاءته كلمة الرب: اخرج من أهلك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك، إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمةً عظيمةً.»

(٢) الضيوف السماويون

في الأرض الجديدة التي نجَّاه الربُّ إليها عاش إبراهيم ولوط عيشةً رغدة، ولكن زوجة إبراهيم كانت عاقرًا، وكان راغبًا في ولد يرثه بعد أن شاخ وتقدَّم به السن. ثم جاءته بُشرى الحمل الإعجازي بواسطة ملائكة لم يذكر النص القرآني عددهم، ولكنهم في النص التوراتي ثلاثة. وقد كان هؤلاء الملائكة في طريقهم لإهلاك القوم الذين عاش لوط بينهم،

وهم أهالي مدينتَي سدوم وعمورة، وذلك بسبب كثرة شرورهم. عندما وصل الملائكة ظنَّهم إبراهيم من البشر، ودعاهم إلى ضيافته، وجاء بعجلٍ فذبحه وأعطاه إلى أهله ليجهزوه طعامًا، وعندما وضع المائدة أمامهم وجد أن أيديهم لا تصل إلى الطعام، فأوجس منهم خيفة. نقرأ في سورة هود:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ[٤] * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (١١ هود: ٦٩–٧٦).

أي: عندما رأى إبراهيم ضيوفه يأكلون دون أن يأكلوا داخَلَه الخوف، ولكنَّهم كشفوا له عن هويتهم وعن مهمتهم المزدوجة؛ فهم ينقلون له بُشرى الرب بحمل زوجته في شيخوختهما، ثم إنهم منقلبون إلى قوم لوط لإهلاكهم؛ لأن شرَّهم قد كثُر. فلما سمعت سارة زوجته بالبشرى ضحكت لأنها تجاوزت سن الحمل والولادة، فقالوا لها ألَّا تعجب من أمر الله؛ لأنه ليس شيء غير ممكنٍ لديه. وبعدما هدأت خواطر إبراهيم راح يُجادلهم في أمر قوم لوط، ويحاول ثنيهم عمَّا جاءوا من أجله، فقالوا له ألَّا يتشفع لهم؛ لأن أمر الله قد تم بشأنهم.

وفي سورة الذاريات لدينا تنويع آخر على القصة نفسها: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ[٥] * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ[٦] فَصَكَّتْ وَجْهَهَا[٧] وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ *

[٤] عجل حنيذ: أي مشوي على الحجارة المحماة.

[٥] قوم منكرون: أي قوم لا نعرفهم.

[٦] في صرَّة: أي في جلبة وضجة.

[٧] صكَّت وجهها: أي لطمت وجهها براحتيها، على عادة النساء الشرقيات.

قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ❋ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ❋ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ❋ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ❋ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ❋ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ❋ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ❋ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٥١ الذاريات: ٢٤–٣٧)

ترد قصةُ إبراهيم وضيوفه بعناصرها القرآنية جميعها في سِفْر التكوين ١٨، مع فارقٍ واحدٍ، وهو أن الضيوف الثلاثة كانوا إله التوراة يهوه نفسه ومعه اثنان من ملائكته، وبدلَ الامتناع عن الأكل فقد أكل الثلاثة وهم متكئون تحت الشجرة أمام خباء إبراهيم:

«وظهر له الرب عند بلوطات مَمْرا وهو جالسٌ في باب الخيمة وقت حر النهار، فرفع عينَيه وإذا ثلاثة رجالٍ واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال: يا سيد، إن كنت قد وجدت نعمةً في عينيك فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة، فآخذ كسرة خبزٍ فتسندون قلوبكم ثم تجتازون. فقالوا: هكذا نفعل كما تكلمت. فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال: أسرعي بثلاث كيلاتٍ دقيقًا سميذًا واعجني واصنعي خبز مَلَّةٍ. ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلًا رخصًا وجيدًا وأعطاه للغلام، فأسرع ليعمله. ثم أخذ زُبدًا ولبنًا والعجل الذي عمله ووضعه قدَّامهم. وإذ كان هو واقفًا لديهم تحت الشجرة أكلوا.

وقالوا له: أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة. فقال: إني أرجع إليك نحو زمان الحياة[٨] ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت سارة سامعةً في باب الخيمة وهو وراءه. وكان إبراهيم وسارة متقدمَين في الأيام، وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء، فضحكت سارة في باطنها قائلة: أبعد فنائي يكون لي تنعُّم وسيِّدي قد شاخ؟ فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة؟ هل يستحيل على الرب شيء؟

ثم قام الرجال من هناك وتطلَّعوا نحو سدوم، وكان إبراهيم ماشيًا معهم ليشيِّعهم. فقال الرب: هل أُخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله، وإبراهيم يكون أمةً كبيرةً وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض … إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جدًّا، أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخهم الآتي إليَّ؟ وإلا فأعلم. وانصرف الرجال (= الملاكان) من هناك وذهبوا نحو سدوم، وأما إبراهيم فكان لم يزل قائمًا أمام الربِّ.

---

[٨] أي: بعد تسعة أشهر، وهي المدة اللازمة للحمل والإنجاب.

فتقدم إبراهيم وقال: أفتهلك البار مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون بارًّا في المدينة أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارًّا الذين فيه؟ ... فقال الرب: إن وجدت في سدوم خمسين بارًّا فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم. فأجاب إبراهيم وقال: إني قد شرعت أُكلِّم المولى وأنا ترابٌ ورماد، ربما نقص الخمسون بارًّا خمسة، أتهلك كل المدينة بالخمسة؟ فقال: لا أُهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين، فعاد يكلِّمه أيضًا وقال: عسى أن يوجد هناك أربعون. فقال: لا أفعل من أجل الأربعين. فقال: لا يسخط المولى فأتكلم، عسى أن يوجد هناك ثلاثون. فقال: لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين. فقال: إني شرعت أُكلِّم المولى، عسى يوجد هناك عشرون. فقال: لا أهلك من أجل العشرين، فقال: لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط، عسى أن يوجد هناك عشرة. فقال: لا أهلك من أجل العشرة. وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم، ورجع إبراهيم إلى مكانه» (التكوين: ١٨).

وكما نلاحظ من قراءة الروايتين القرآنية والتوراتية بخصوص الضيوف السماويين فإنهما تسيران على التوازي وتقومان على العناصر نفسها، على ما تظهر المقارنة:

الرواية التوراتية	الرواية القرآنية
(١) بينما هو جالس في باب الخيمة وقت حرِّ النهار، رفع إبراهيم عينيه، وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم.	• ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ (٥١ الذاريات ٢٤–٢٥)
(٢) ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عِجلًا رخصًا وجيدًا وأعطاه للغلام، فأسرع ليعمله، ووضعه قدامهم.	• ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۞ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥١ الذاريات ٢٦–٢٧)
(٣) وقالوا له: أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة. فقال: إني أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن.	• ﴿... فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (١١ هود ٧١)
(٤) فضحكت سارة في باطنها قائلة: أبَعد فنائي يكون لي تنعُّم وسيدي قد شاخ؟	• ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ... قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (١١ هود ٧١–٧٢)
(٥) فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة؟ هل يستحيل على الرب شيءٌ؟	• ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ...﴾ (١١ هود ٧٣)

الرواية التوراتية	الرواية القرآنية
(٦) صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جدًّا. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخهم الآتي إليَّ؟ وإلا فأعلم.	• ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ❋ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ❋ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (٥١ الذاريات ٣٢–٣٤)
(٧) فتقدَّم إبراهيم وقال: أفتهلك البار مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون بارًّا ... (بقية الحوار).	• ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (١١ هود ٧٤)

وهناك قصتان من سلسلة قصص إبراهيم في التوراة سوف نتعرَّض لهما عندما نأتي إلى الحديث عن إسماعيل، وهما الخلاف بين سارة زوجة إبراهيم وجاريتها هاجر وما نجم عن ذلك من إبعاد هاجر وابنها إسماعيل إلى البرية، وكيف همَّ إبراهيم بتقديم إسحاق (أو إسماعيل) قُربانًا للرب.

لوط

(١) الرواية التوراتية

بعد الزيارة التي قام بها الضيوف السماويون، مما عرضناه في قصة إبراهيم، يتوجَّه الملاكان اللذان كانا برفقة يهوه إلى مدينتَي سدوم وعمورة في شرقي الأردن لتدميرهما بسبب كثرة شرور أهلهما وخطاياهم، ولا سيما خطيَّة اللواطة التي اشتهر بها رجال هاتَين المدينتَين. وكان لوط بعد افتراقه عن عمه إبراهيم قد نصب خيامه على أطراف مدينة سدوم، وراح يرعى مواشيه هناك (على ما ورد في سِفْر التكوين ١٤: ٥–١٣). وعندما وصل الملاكان كان لوط جالسًا في باب سدوم. نُتابع في سِفْر التكوين ١٩.

«فجاء الملاكان إلى سدوم مساءً، وكان لوط جالسًا في باب سدوم، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض وقال: يا سيديَّ ميلا إلى عبدكما وبيِّتا واغسلا أرجلكما، ثم تبكران وتذهبان في طريقكما. فقالا: لا، بل في الساحة نبيت. فألحَّ عليهما جدًّا، فمالا إليه ودخلا بيته، فصنع لهما ضيافة وخبزًا فطيرًا فأكلا.

«وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة، رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ، كل الشعب من أقصاها، فنادوا لوطًا وقالوا له: أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة؟ أخرجهما إلينا لنعرفهما (= فعل الفاحشة).[١] فخرج إليهم لوط وأغلق الباب وراءه وقال: لا تفعلوا شرًّا يا إخوتي هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلًا، أُخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن

[١] كلمة «عَرَف» هي صيغة مهذبة لكلمة «ضاجع» على ما نفهم في أكثر من موضع في التوراة.

في عيونكم، وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئًا لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي. فقالوا: أبعد إلى هناك، الآن نفعل بك شرًّا أكثر منهما. فألحُّوا على لوط جدًّا وتقدموا ليكسروا الباب؛ فمدَّ الرجلان أيديهما وأدخلا لوطًا إليهما إلى البيت وأغلقا الباب، وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى فعجزوا عن أن يجدوا الباب.

وقال الرجلان للوط: مَن لك أيضًا ها هنا؟ كل مَن لك في المدينة أَخرِج من المكان؛ لأننا مُهلكان هذا المكان، إذ قد عظُم صراخهم أمام الرب فأرسَلَنا الرب لنهلكه. فخرج لوط وكلَّم أصهاره الآخذين بناتِه، وقال: قوموا اخرجوا من هذا المكان؛ لأن الرب مهلكٌ المدينة. فكان كمازح في أعين أصهاره. ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطًا قائلين: قم خُذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلَّا تهلك بإثم المدينة. ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الربِّ عليه ووضعاه خارج المدينة. وكان لما أخرجاهم إلى خارج أنه قال: اهرب لحياتك، لا تنظر إلى ورائك ولا تقف في كل الدائرة. اهرب إلى الجبل لئلا تَهلك ... وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر. فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب من السماء، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض، ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح» (التكوين ١٩: ١–٢٦)

(٢) الرواية القرآنية

ورَد اسم لوط بين أنبياء الله في أكثر من موضع في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ (٣٧ الصافات: ١٣٣–١٣٦). ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ...﴾ (٢١ الأنبياء: ٧٤). وهناك إشارات متعددة أخرى إلى إهلاك قوم لوط، ولكن القصة الأكثر تفصيلًا لما جرى له مع قومه والملاكان الضيفان، تَرِد في سورة هود، وسورة النمل، وسورة العنكبوت، وسورة الحجر.

ففي سورة هود، وبعد أن غادر الملاكان خيام إبراهيم توجَّها إلى موطن لوط، ودخلا عليه وهو لا يعرف شيئًا عن طبيعتهما، فرحَّب بهما ولكنَّه توجَّس شرًّا يأتي من أهل البلدة، فضاق صدره بهذه الزيارة خوفًا من عدم قدرته على حماية ضيفَيه اللذَين جاءا في أجمل صورةٍ بشريةٍ:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ[٢] وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا[٣] وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۞ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۞ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۞ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ[٤]۞ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ[٥] وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۞ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ[٦]۞ مُسَوَّمَةً[٧] عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (١١ هود: ٧٧–٨٣).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۞ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ۞ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٢٧ النمل: ٥٤–٥٨).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ۞ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ۞ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۞ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۞ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۞ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٢٩ العنكبوت: ٢٨–٣٤).

---

[٢] أي: أصابه منهم سوء وضجر لخوفه عليهم.

[٣] أي: ضاق صدره بمجيئهم لما يتوقعه من شرٍّ.

[٤] أي: لو كنت أعادلكم قوة لأهلكتكم، ولكني ألجأ إلى الله.

[٥] أي: انطلق بأهلك ليلًا، وليكن مسيركم في آخر الليل.

[٦] السجيل هو طين شُوِيَ بالنار، والمنضود هو المتتابع الإرسال.

[٧] أي: كل حجر مُعلم بعلامة، وقيل: إن اسم من تُصيبه مكتوب عليها.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ❋ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ❋ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ❋ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ❋ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ❋ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ❋ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ❋ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ❋ وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ ❋ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ❋ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ❋ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ❋ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ❋ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (١٥ الحجر: ٦١–٧٤).

لا تختلف الرواية القرآنية عن الرواية التوراتية إلا بخصوص شعور لوط بالضيق؛ وذلك لتوقعه مُسبقًا لسلوك أهل المدينة. وهذه مقارنة بين العناصر الرئيسة للقصتين:

الرواية التوراتية	الرواية القرآنية
(١) فجاء الملاكان إلى سدوم مساءً، وكان لوط جالسًا في باب سدوم، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض.	• ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (١١ هود: ٧٧).
(٢) وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة، رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ، وقالوا: أخرجهما إلينا لنعرفهما.	• ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ...﴾ (١١ هود: ٧٨).
(٣) فخرج إليهم لوط وقال: لا تفعلوا شرًّا يا إخوتي هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلًا، أُخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم، وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئًا؛ لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي.	• ﴿... قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (١١ هود: ٧٨).
(٤) فقالوا: أبعد إلى هناك، الآن نفعل بك شرًّا أكثر منهما. فألحوا على لوط جدًّا وتقدموا ليكسروا الباب.	• ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (١١ هود: ٧٩).
(٥) قم خذ امرأتك وابنتيك لئلا تهلك بإثم المدينة، اهرب لحياتك، لا تنظر إلى ورائك.	• ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ...﴾ (١١ هود: ٨١).

الرواية التوراتية	الرواية القرآنية
(٦) وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر، فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب.	• ﴿... إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۞ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ (١١ هود: ٨١–٨٢).
(٧) ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح.	• ﴿... وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ...﴾ (١١ هود: ٨١). • ﴿... إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٢٩ العنكبوت: ٣٣).

إسماعيل

(١) في الرواية التوراتية

كان إبراهيم في سن الخامسة والسبعين من عمره عندما ارتحل من حران إلى كنعان. ولما كانت امرأته عاقرًا لا تُنجب، فقد أمضى إبراهيم في كنعان عشر سنواتٍ دون أن يُرْزَق ولدًا. ولما يئس الزوجان من الإنجاب قالت له زوجته ساراي أن يدخل على جاريتها المصرية هاجر عساهما يُرزقان منها بذُريةٍ. فسمع إبراهيم لقول ساراي ودخل على هاجر فحملت منه، وعندما رأت هاجر أنها قد حملت صغُرت مولاتها في عينيها، فتظلَّمت ساراي إلى إبراهيم فقال لها: هو ذا جاريتك في يدك، افعلي بها ما يحسن في عينَيك. فأذلَّتها ساراي فهربت من وجهها، فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية، على العين التي في طريق شور، وقال: يا هاجر، جارية ساراي، من أين أتيتِ وإلى أين تذهبين؟ فقالت: أنا هاربةٌ من وجه مولاتي ساراي. فقال لها ملاك الرب: ارجعي إلى مولاتكِ واخضعي تحت يدَيها. وقال لها ملاك الرب: تكثيرًا أكثِّر نسلكِ فلا يعدُّ من الكثرة. وقال لها ملاك الرب: ها أنتِ حبلى فتلدين ابنًا وتدعين اسمه إسماعيل؛ لأن الرب قد سمع لمذلَّتك، وإنه يكون إنسانًا وحشيًّا يده على كل واحدٍ ويد كل واحدٍ عليه، وأمام جميع إخوته يسكن (التكوين ١٦).

وبلغ إبراهيم سن التاسعة والتسعين دون أن يُنجب ولدًا من سارة. فظهر له الربُّ وقال له: «أنا الله القدير.[١] سِرْ أمامي وكن كاملًا فأجعل عهدي بيني وبينك ... وقال الله

[١] في النص العبري: «أنا إيل شداي»: أي إيل الشديد أو القدير.

لإبراهيم: ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة، وأباركها وأعطيك منها ابنًا، فقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابنًا ... وتدعوه إسحاق، وأقيم عهدي معه عهدًا أبديًّا لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعتُ لك فيه. ها أنا أُباركه وأثمِّره وأكثِّره تكثيرًا جدًّا» (التكوين ١٧: ١–٢٠). وبعد زيارة الضيوف السماويين وتوكيد الرب وعدَه لإبراهيم في الإنجاب القريب، وافتقد الرب سارة كما قال وفعل الرب لسارة كما تكلَّم، فحبلت سارة وولدَت لإبراهيم ابنًا في شيخوخته في الوقت الذي تكلَّم الله عنه، ودعا إبراهيم اسم ابنه المولود له، الذي ولدَته له سارة، إسحاق، وختن إبراهيم إسحاق ابنه وهو ابن ثمانية أيام، كما أمره الله، وكان إبراهيم ابن مائة سنةٍ حين وُلد له إسحاق ابنه (التكوين ٢١: ١–٥).

ورأت سارة ابن هاجر المصرية يمزح، فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها؛ لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق. فقبُح الكلام جدًّا في عينَي إبراهيم بسبب ابنه، فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينَيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقوله لك سارة اسمع لقولها. فبكَّر إبراهيم صباحًا وأخذ خبزًا وقربة ماءٍ وأعطاهما لهاجر واضعًا إيَّاهما على كتفها، والولد، وصرفها. فمضت وتاهت في برية بئر السبع. ولما فرغ الماء من القِرْبة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، ومضت وجلست مقابله بعيدًا نحو رمية قوسٍ؛ لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت، فسمع الله صوت الغلام، ونادى ملاكُ الله هاجر من السماء وقال لها: ما لكِ يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدِّي يدك به؛ لأني سأجعله أمةً عظيمةً. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماءٍ فذهبت وملأت القِرْبة وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوسٍ. وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجةً مصرية (التكوين ٢١: ١–٢١).

وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له: يا إبراهيم. فقال: ها أنا ذا. فقال: خُذ ابنك وحيدك الذي تُحبُّه إسحاق واذهب إلى أرض المُريًّا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك. فبكَّر إبراهيم صباحًا وقام إلى الموضع الذي قال له الله، فلما أتيا الموضع بنى هناك إبراهيم المذبح ورتَّب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب، ثم مدَّ إبراهيم يده، وأخذ السكين ليذبح ابنه، فناداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم، إبراهيم. فقال: ها أنا ذا. فقال: لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به

شيئًا؛ لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تُمسك ابنك وحيدك عنِّي. فرفع إبراهيم عينَيه ونظر، وإذا كبش وراءه ممسكًا في الغابة بقرنَيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضًا عن ابنه. ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال: أباركك مباركة وأُكثِّر نسلك كثيرًا كنجوم السماء، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولي (التكوين ٢٢: ١–١٨).

(٢) الرواية القرآنية

يرد ذكر إسماعيل في القرآن الكريم على أنه واحدٌ من أنبياء الله الكرام: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ...﴾ (٢ البقرة: ١٣٦)

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ ...﴾ (٣ آل عمران: ٨٤).

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ ...﴾ (٤ النساء: ١٦٣).

أما أخبار إسماعيل فقليلةٌ ومختصرة، وليس هناك من خبرٍ عن مولده سوى قول إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (١٤ إبراهيم: ٣٩). وهذا يعني أن الرواية قد قفزت فوق كل التفاصيل المتعلِّقة بزوجتَي إبراهيم؛ هاجر وسارة، ونزاعهما. وأخبار إسماعيل لا تتجاوز الثلاثة، وهي تتفقُ مع أخباره التوراتية، عدا إقامته في منطقة الحجاز وتعاونه مع إبراهيم أبيه على بناء الكعبة، على ما تُبيِّنه لنا المقارنة التالية:

(٢-١) إبعاد هاجر وابنها إلى الصحراء

في سورة إبراهيم، هناك إشارةٌ غائمةٌ ودون تفاصيل إلى قصة إبعاد هاجر وابنها إسماعيل إلى بريةٍ قاحلةٍ، حيث نقرأ على لسان إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (١٤ إبراهيم: ٣٧)

وهناك إجماعٌ بين المفسرين استنادًا إلى أحاديث متواترةٍ على أن مَنْ أسكنهم إبراهيم من ذريته في الوادي القاحل هما هاجر وابنها إسماعيل. والقصة الكاملة تُرْوَى عن الصحابي عبد الله بن عباس وهذا ملخصها:

لما وجدت سارة أنها لن تحمل من إبراهيم، طلبت منه أن يدخل على جاريتها المصرية هاجر. فحملت هاجر وأنجبت لإبراهيم غلامًا دعاه إسماعيل، ولكن سارة بدأت تغار من هاجر وطلبت من إبراهيم إبعادها. فأوحى الله إلى إبراهيم أن يأخذ هاجر وابنها إسماعيل إلى الحجاز. قاد جبرائيل إبراهيم ومَن معه إلى مكة حيث كان المقام الذي بناه آدم. وكانت قبيلة العماليق أول مَنْ سكن في هذه المنطقة، حيث أقاموا في الجبال المحيطة بالمقام. هناك صنع إبراهيم لأسرته كوخًا من القشِّ، وتركهم لكي يعود إلى موطنه، ولكن هاجر نادته قائلة: إلى مَن تتركنا؟ فقال: أتركهم إلى الله. فقالت: هل طلب منك الله أن تفعل ذلك؟ قال: نعم. ثم مشى إبراهيم خطواتٍ والتفت إلى الوراء وقلبه يتمزق على زوجته وابنها، ثم تابع طريقه وهو يقول: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ...﴾ الآية.

بعد بضعة أيام نفد ما لدى هاجر من التمر والماء، وجفَّ الحليب في صدرها وساءت حالة إسماعيل. فقالت في نفسها: لن ألبث هنا وأراه يموت. فصعدت إلى تلة الصفا وضرعت لله من أجل المعونة، ثم هبطت وسارت نحو تلة المروة فارتقتها وراحت تنظر إلى حيث كان إسماعيل. ثم إنها سعت بين الصفا والمروة سبع مراتٍ وهي قلقةٌ حائرةٌ. وسمعت صوتًا فمشت نحو مصدره حتى وصلت إلى إسماعيل، وهناك ظهر لها الملاك جبريل فضرب الأرض بكاحله فانبثق من الموضع نبع ماء، فشربت هاجر وتدفَّق الحليب في صدرها فأرضعت ولدها. ولخوفها من أن يضيع الماء، أحاطته بحاجزٍ ترابي فتحوَّل إلى بئر هي بئر زمزم. فقال لها الملاك بأن هذه البئر لن تنضب، وأن ابنها سوف ينشأ ويكبر في هذا المكان، ولسوف يزوره أبوه ويعملان معًا على بناء مقامٍ تقصده الناس من كل الجهات تلبيةً لنداء الله، ويطوفون حول المقام ويشربون من ماء البئر.

بعد ذلك مرَّ بالقرب شابان من قبيلة جرهم يبحثان عن ناقةٍ شاردةٍ، فتعجبا لرؤية طيور تحوم في سماء المكان؛ لعلمهما بعدم وجود ماءٍ هنا، فتبعا أثر الطيور حتى وصلا موضع البئر، واجتمعا بهاجر التي روت لهما قصتها. فعاد الشابان إلى قومهما وأخبروهم بالأمر، فجاءت قبيلة جرهم وسكنت في جوار سارة التي سعدت بوجودهم.

(٢-٢) القربان والفداء

في بضعة أسطرٍ تُعبِّر عن الأسلوب القرآني المختزل، تحافظ الرواية القرآنية للقربان والفداء على أهم عناصر الرواية التوراتية الطويلة والمليئة بالتفاصيل:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ[٢] قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا[٣] وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ[٤] * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا[٥] إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ[٦] * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * ... إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٧ الصافات: ٩٩–١١٢).

وكما نُلاحظ من قراءة النصَّين، فإن الرواية القرآنية قد جعلت من إسماعيل موضوعًا للقربان بدلًا من إسحاق في الرواية التوراتية، وذلك على الرغم من عدم ذكرها لإسماعيل بالاسم. ونستدلُّ على ذلك من قوله تعالى في نهاية القصة: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. أي إن إسحاق لم يكن قد وُلِدَ حينئذٍ، وبطل القصة هنا هو إسماعيل. كما نلاحظ أن إسحاق كان في الرواية التوراتية طفلًا غافلًا عمَّا يجري من حوله، وقد استسلم للربط على المحرقة دون مُساءلةٍ أو توقُّع لما سيحدث له، أما في الرواية القرآنية فقد كان إسماعيل فتًى يافعًا وضرب مثلًا في الخضوع للمشيئة الربانية عندما قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

(٢-٣) بناء الكعبة

لقد جعلت الرواية التوراتية من برية فاران موطنًا لإسماعيل، وهي تلك المناطق الصحراوية الواقعة إلى الجنوب من فلسطين، أما الرواية القرآنية فتجعل موطنه في الحجاز، وتنسِب

[٢] أي: فلما كبر إسماعيل واشتد عوده. ويقال: إنه كان في ذلك الوقت في سن الثالثة عشرة.

[٣] أي: فلما استسلما لأمر الله.

[٤] أي: أكبَّه على وجهه ليذبحه.

[٥] أي: يا إبراهيم قد نفَّذت ما أُمِرْتَ به في الحلم.

[٦] أي: إن هذا لهو الابتلاء والامتحان الشاق الذي يتميز به المخلص من المنافق.

إليه وإلى أبيه بناء الكعبة المشرفة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ... وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢ البقرة: ١٢٥–١٢٧).

يوسف الصديق

بعد الانتهاء من سرد سلسلة قصص الأب الأول إبراهيم، ينتقل محرر سِفْر التكوين إلى سرد سلسلة قصص نسل إبراهيم، وهم إسحاق ويعقوب وأولاد يعقوب الاثنا عشر الذين تحدرت منهم القبائل العبرانية. وقد أغفل القرآن الكريم ذكر أيٍّ من هذه القصص، وإسحاق ويعقوب لا يظهران إلا في إشاراتٍ مقتضبةٍ إلى كونهما شخصيتَين بارزتَين في التاريخ النبوي. أما أولاد يعقوب فلا يُشار إليهم إلا جملةً تحت اسم الأسباط، ومن دون ذكر أسمائهم.

القصة الوحيدة التي لقيت عناية القرآن الكريم من بين قصص الآباء بعد إبراهيم، هي قصة يوسف، الابن الحادي عشر ليعقوب، وما جرى له مع إخوته في كنعان، ثم ما جرى له في مصر. والقصة القرآنية تسير في توازٍ مع القصة التوراتية وتماثلها في أدقِّ الجزئيات.

ونظرًا لطول القصة التوراتية وإسهابها في التفاصيل، فإني سوف ألجأ في المقارنة الآتية إلى تقديم مُلخصاتٍ لمراحلها الرئيسة، ثم مقارنتها بما ورد في القرآن الكريم في سورة يوسف.

(١) حلم يوسف

سِفْر التكوين: كان يوسف ابن سبع عشرة سنة، وكان يرعى الغنم مع إخوته. وقد أحبَّه أبوه أكثر من جميع بنيه؛ لأنه ابن شيخوخته، فأبغضه إخوته ولم يستطيعوا أن يكلِّموه بسلامٍ، وحلم يوسف حلمًا أخبر به أباه وإخوته، فقال: إني حلمت حلمًا، وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا ساجدة لي. فازداد إخوته له بُغضًا، أما أبوه فقد انتهره وقال: هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك؟ (التكوين ٣٧: ١–١١).

سورة يوسف: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ❋ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٢ يوسف: ٤–٥).

(٢) مؤامرة الإخوة

سِفْر التكوين: ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم. فقال يعقوب ليوسف: أليس إخوتك يرعون عند شكيم؟ تعال فأُرسلك إليهم. فقال ها أنا ذا ... فلما أبصروه من بعيدٍ قال بعضهم لبعض: هو ذا صاحب الأحلام قادم. فالآن هلمَّ لنقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول وحش رديء أكله. فسمع أخوهم رأوبين مقالتهم وأراد إنقاذه من بين أيديهم فقال لهم: لا تُسفكوا دمًا، اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدُّوا إليه يدًا. فكان لما جاء يوسف أنهم خلعوا عنه قميصه وطرحوه في البئر، وكانت جافةً ليس فيها ماءٌ، ثم أخذوا القميص وذبحوا تيسًا من المعزى وغمسوا القميص بالدم، وعادوا إلى أبيهم به وقالوا: حقِّق، أقميص ابنك هذا أم لا؟ فتحقَّقه وقال: قميص ابني. وحشٌ رديءٌ أكل يوسف. ثم مزَّق ثيابه ولبس ثياب الحِداد، وناح على ابنه أيامًا كثيرة. أما يوسف فقد التقطته من البئر قافلة تجارٍ وباعوه في مصر. (التكوين ٣٧: ١٢–٣٦).

سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ❋ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ❋ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ❋ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ❋ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ❋ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ❋ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ❋ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ❋ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[١] ❋ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ❋ قَالُوا

[١] أي: إنه تعالى طمأنه إلى نجاته، وأخبره أنه سيأتي وقت ينبئهم فيه بما فعلوا به وهم لا يعرفونه. وهذا ما حصل في نهاية القصة.

يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ❁ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ[٢] ❁ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً[٣] وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ❁ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (١٢ يوسف: ٧–٢٠).

(٣) فوطيفار يشتري يوسف

سِفْر التكوين: فأُنزِل إلى مصر واشتراه فوطيفار[٤] رئيس شرطة الفرعون. وكان الرب مع يوسف فكان رجلًا ناجحًا، ووجد نعمة في عيني سيده الذي أوكله بجميع شئون بيته، ولم يكن فوطيفار يعرف من هذه الشئون بوجود يوسف سوى الخبز الذي يأكله. فبارك الرب بيت فوطيفار وحقله. وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر (التكوين ٣٩: ١–٦).

سورة يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ❁ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢ يوسف: ٢١–٢٢).

(٤) الإغواء

سِفْر التكوين: وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: اضطجع معي. فقال لها: هو ذا سيدي قد دفع إليَّ كلَّ ما له، ولم يمسك عنِّي شيئًا غيركِ لأنكِ امرأته. فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأُخطئ إلى الله؟ ثم تركها ومضى، ولكنها عادت إلى إغوائه مراتٍ عديدة وهو يتهرَّب منها. إلى أن جاء يوم دخل فيه يوسف إلى المنزل ولم يكن هناك غيرهما، فأمسكت بثوبه قائلةً: اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها

[٢] من الواضح هنا أن يعقوب لم يُصدق القصة، وشكَّ في حقيقة ما جرى.

[٣] أي: أمسكوا به أسيرًا واعتبروه بضاعة للبيع.

[٤] وتدعوه الرواية القرآنية بالعزيز، وهو لقب وليس باسم.

وخرج هاربًا من البيت. فنادَت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: انظروا، لقد دخل إليَّ هذا الرجل العبراني ليضطجع معي فصرختُ بصوتٍ عظيمٍ، فترك ثوبه بجانبي وهرب. ثم وضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيدها إلى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام، فحمي غضب فوطيفار على يوسف ووضعه في السجن الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه، ولكن الرب كان مع يوسف فاستلطفه رئيس السجن وأوكل إليه أمر بقية السجناء (التكوين ٣٩: ١–٢٣).

سورة يوسف: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ[٥] قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ❊ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ❊ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ❊ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ❊ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ❊ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ❊ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (١٢ يوسف: ٢٣–٢٩). ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[٦] (١٢ يوسف: ٣٥).

في المكان الفاصل بين الآية ٢٩ والآية ٣٥ هناك قصة دعوة امرأة العزيز لصديقاتها اللواتي لُمْنَها على ولعها بيوسف، مما كانت الشائعات تتحدث عنه، وكيف دعتهنَّ إلى منزلها ليروا بأعينهنَّ جمال يوسف فيعذرْنَها. فلتُرَاجع في مكانها من السورة. وهذه القصة مؤخرةٌ عن موضعها في السياق، على عادة الأسلوب القرآني أحيانًا في تقديم المؤخر وتأخير المقدم. وموضعها التسلسلي يأتي بعد عدة محاولاتٍ قامت بها امرأة العزيز مما هو مذكور في الرواية التوراتية، قفزت فوقها الرواية القرآنية ثم ألمحت إليها في هذه القصة.

[٥] قال معظم المفسرين إن تعبير «هَيْتَ لك» غير عربي، وهو أقرب إلى قولنا: هلم وتعالَ، وقرأها ابن عباس: «هئت لك» أي هُيِّئتُ لك.

[٦] هنالك سببان محتملان وراء قرار العزيز حبس يوسف؛ الأول: أنه لم يكن متأكدًا تمامًا من براءته، والثاني: أنه كان متأكدًا من ذلك، ولكنه لم يكن راغبًا في فضح زوجته.

(٥) يوسف في السجن

سِفْر التكوين: وحدث بعد هذه الأمور أن فرعون غضب على رئيس السُّقاة ورئيس الخبَّازين في قصره، وأمر بحبسهما في سجن يوسف، فأوكله بهما رئيس الشرط، وحلم كلاهما في ليلةٍ واحدةٍ حلمًا قصَّاه على يوسف في الصباح. قال رئيس السقاة: رأيت كرمة فيها ثلاثة قضبان فأفرخت وطلع زهرها ثم نضجت عناقيدها، فأخذتُ العنب وعصرته في كأس فرعون وقدَّمته له. فقال له يوسف: الثلاثة القضبان هي ثلاثة أيامٍ في ثلاثة أيام تخرج من السجن وتُرَدُّ إلى مقامك، فتسكب الخمرة للملك في كأسه كما كنت تفعل. فهلَّا صنعت لي إحسانًا وذكرتني لفرعون فيُخرجني من السجن. ثم قصَّ عليه رئيس الخبازين حلمه قال: رأيت ثلاث سلالٍ على رأسي، وفي السلة العليا خُبز تأكل منه الطيور. فقال له يوسف: الثلاث السلال هي ثلاثة أيام، في ثلاثة أيام يقطع فرعون رأسك ويعلقك على خشبةٍ وتأكل الطيور من لحمك. وحدث في اليوم الثالث ما تنبَّأ به يوسف، ولكن رئيس السقاة نسيَه ولم يذكره لفرعون مدة سنتين (التكوين ٤٠: ١–٢٢).

سورة يوسف: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۞ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ... يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا[7] وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ۞ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ[8] فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (١٢ يوسف: ٣٦–٤٢).

(٦) حلم فرعون

سِفْر التكوين: وحدث بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلمًا، وإذا هو واقفٌ عند النهر، ومن النهر تخرج سبع بقراتٍ حسنة المنظر وسمينة اللحم، ومن ورائها سبعُ بقراتٍ أخرى قبيحة المنظر ورقيقة اللحم؛ فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات

---

[7] أي: يسقي سيده فرعون.

[8] أي: يوسف.

السبع الحسنة المنظر والسمينة. ثم رأى حلمًا ثانيًا، وإذا سبعُ سنابل طالعة في ساقٍ واحدةٍ سمينة وحسنة، ووراءها سبع سنابل رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية؛ فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السمينة الممتلئة.

دعا فرعون سحرة مصر وجميع حكمائها وسألهم تفسير حلمه، فلم يستطع ذلك منهم أحد، وهنا تذكَّر رئيس السُّقاة يوسف ومقدرته على تفسير الأحلام، فذكره أمام فرعون وقصَّ عليه ما جرى له ولرئيس الخبَّازين في السجن. فأرسل فرعون ودعا يوسف واستفتاه في حلميه. فقال يوسف: هو حلمٌ واحدٌ، وقد أخبر الله فرعون بما هو صانعٌ. البقرات السبع الحسنة هي سبع سنين، والسنابل السبع الحسنة هي سبع سنين أيضًا، هو ذا سبع سنين قادمة يكون فيها شبعٌ في كل أرض مصر، ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعًا، فيُنْسَى كل الشبع السابق، ويُتلف الجوع الأرض. (التكوين ٤١: ١–٣١).

سورة يوسف: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ[٩] * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ[١٠] أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ[١١] * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (١٢ يوسف: ٤٣–٤٩).

(٧) يوسف وزيرًا

سِفْر التكوين: فحسُنَ الكلام في عينَي فرعون فقال له: ليس حكيم وبصير مثلك، انظر، قد جعلتك على كل أرض مصر، ولا يوجد أعظم منك إلا الكرسي الذي فيه أكون، وخلع فرعون

[٩] أي: إذا كنتم تعتقدون بصدق وصحة الأحلام.

[١٠] أي: بعد مدة.

[١١] أي: مما تخزنون.

خاتمَه وجعله في يد يوسف، وألبسه ثياب بوص[١٢] ووضع طوق ذهبٍ في عنقه، وأركبه مركبته الثانية، ونادَوا أمامه وركعوا. وقال فرعون ليوسف: أنا فرعون، فمن دونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله في أرض مصر.

وأثمرت الأرض في سني الشبع، فجمع يوسف كل طعام السبع السنين التي كانت في أرض مصر، وخزَّن قمحًا كرمل الأرض، وابتدأت سبعُ سني الجوع تأتي، ففتح مخازنه وباع للمصريين، وكان جوع في جميع البلدان المجاورة، فجاء منها الناس ليشتروا قمحًا من مصر (سِفْر التكوين ٤١: ٣٧–٥٧).

سورة يوسف: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ❁ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ❁ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢ يوسف: ٥٤–٥٦)

(٨) قدوم إخوة يوسف

سِفْر التكوين: فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح في مصر، قال لبنيه: انزلوا إلى هناك واشتروا لنا لنحيا ولا نموت. فنزل عشرة من إخوة يوسف إلى مصر وتركوا مع أبيهم أصغر إخوتهم المدعو بنيامين، فأتوا ودخلوا على يوسف وسجدوا له، فعرفهم يوسف أما هم فلم يعرفوه. فتنكَّر لهم وتكلَّم معهم بجفاءٍ قائلًا: من أين جئتم؟ قالوا له: من أرض كنعان لنشتري طعامًا. قال: بل أنتم جواسيس. فقالوا: بل عبيدك جاءوا ليشتروا طعامًا. نحن جميعًا بنو رجلٍ واحدٍ في أرض كنعان، وهو ذا الصغير عند أبينا اليوم، ولنا آخر مفقود. فقال لهم يوسف: إن كنتم أُمناء فليُحْبَس أخٌ واحد منكم، وانطلقوا أنتم وخذوا قمحًا لمجاعة بيوتكم، وأحضروا أخاكم الصغير إليَّ فيتحقَّق كلامكم. وكان يتحدث إليهم عن طريق مُترجمٍ فتحاوروا وهم لا يدرون أنه يفهم كلامهم. فقال بعضهم لبعض: حقًّا أننا مذنبون إلى أخينا يوسف الذي استرحمنا ولم نسمع له؛ لذا جاءت علينا هذه الضِّيقة، فقال لهم رأوبين: ألم أكلمكم قائلًا لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا؟ هو ذا دمه يُطلب. فتحوَّل عنهم يوسف وبكى ثم رجع إليهم، وأخذ منهم شمعون وقيَّده أمام عيونهم، وأمر أن تُملأ

[١٢] البوص: نبات من فصيلة الكتان تُصنع منه الأقمشة الفاخرة.

أوعيتهم قمحًا بعد أن تُردَّ فضة كل واحدٍ منهم إلى كيسه قبل إغلاقه. فحملوا قمحهم على حميرهم ومضوا من هناك. (التكوين ٤٢: ١–٢٦).

سورة يوسف: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ۞ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ[١٣]۞ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۞ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ۞ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ[١٤] فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٢ يوسف: ٥٨–٦٢).

(٩) العودة إلى كنعان واكتشاف الفضة المُعادة

سِفْر التكوين: فلما فتح أحدهم كيسه ليُعطي عليقًا لحماره وهم في الخان على الطريق، رأى فضته في فم كيسه فقال لإخوته: رُدَّت فضتي وها هي في كيسي. فطارت قلوبهم وارتعدوا قائلين: ما هذا الذي صنعه الله بنا؟ فجاءوا إلى يعقوب أبيهم في أرض كنعان وأخبروه بكل ما أصابهم. فقال لهم يعقوب: أَعْدَمْتُمُونِي الأولاد. يوسف مفقود وشمعون مفقود، وبنيامين تأخذونه؟ لا ينزل ابني معكم. (٤٢: ٢٧–٣٨).

وحدث لما نفد القمح الذي جاءوا به، أن أباهم قال لهم أن يرجعوا ويشتروا قمحًا أيضًا، فقال له يهوذا: إن كنت تُرسل أخانا معنا ننزل ونشتري قمحًا، وإذا كنت لا ترسله لا ننزل؛ لأن الرجل قال لنا لا ترَوْن وجهي بدون أن يكون أخوكم معكم، أرسل الغلام معي وأنا أضمنه، وإن لم أجئ به إليك أصبح مُذنبًا إليك كل الأيام. فقال لهم يعقوب: إن كان هكذا فافعلوا، ولكن خذوا الفضة المردودة وفضة أخرى في أياديكم وانطلقوا (التكوين ٤٣: ١–١٣).

سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ[١٥] فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۞ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۞ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا

[١٣] خير المنزلين: أي خير من يُكرم الضيوف.

[١٤] بضاعتهم: أي فضتهم التي جاءوا ليشتروا بها.

[١٥] أي: مُنِعنا من شراء القمح مرةً أخرى إذا لم نأتِ معنا بأخينا الصغير.

يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي[١٦] هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا[١٧] وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ[١٨] ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ[١٩]* قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ[٢٠] لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ[٢١] فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ[٢٢] وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٢ يوسف: ٦٣–٦٧).

(١٠) القدوم الثاني على يوسف

سِفْر التكوين: فأخذ الإخوة الهدية وضِعْف الفضة في أيديهم، وقاموا ونزلوا إلى مصر، ووقفوا أمام يوسف، فاستدعى يوسف حاجبه وأسرَّ إليه أن يأخذهم إلى بيته ويُهيئ لهم طعامًا؛ لأنه سوف يتناول معهم طعام الغداء، ففعل الرجل كما قال يوسف، وأدخل الإخوة إلى البيت، فتخوفوا وقال بعضهم لبعض: هذا بسبب الفضة التي رجعت في أكياسنا، ولكن الحاجب طمأنهم وأعطاهم ماءً ليغسلوا أرجلهم؛ لأنهم سيأكلون مع يوسف عند الظهيرة. فلما جاء يوسف إلى البيت أحضروا له الهدية وسجدوا إلى الأرض؛ فسأل عن سلامتهم وقال: أحيٌّ أبوكم الشيخ الذي قُلتم عنه، وسالم هو؟ فقالوا: عبدك أبانا حيٌّ وسالم. فرفع عينيه ونظر إلى بنيامين وقال: أهذا هو أخوكم الصغير الذي قُلتم عنه؟ ثم خنقته العَبَرَات، فتولى عنهم ودخل المخدع فبكى، ثم غسل وجهه وخرج وتجلَّد وقال: قدِّموا الطعام.

ولما انتهوا قال يوسف لحاجِبِه أن يملأ أكياس الرجال بالقمح، ويضع فضة كل واحدٍ منهم في فم كيسه، وأعطاه طاس الفضة خاصته الذي يشرب به، وأمره أن يضعه في فم

[١٦] أي: ماذا نبغي من كرم عزيز مصر أكثر من ذلك. ونلاحظ هنا أن إعادة الفضة في الرواية القرآنية كانت دلالة على حسن نية يوسف، لا على أمرٍ يدبره، كما هو الحال في الرواية التوراتية.

[١٧] أي: هذه نقودنا أُعيدت لنا لكي نَمير أهلنا، أي نجلب لهم الميرة (وهي المئونة).

[١٨] أي: ونأتي معنا بحمل بعير من القمح.

[١٩] أي: إنه كيلٌ يسير على العزيز إعطاؤه نظرًا لكرمه.

[٢٠] أي: حتى تعطوني عهدًا مؤكَّدًا وتحلفوا بالله على أن تردُّوه.

[٢١] أي: إلا إذا غُلِبْتم من قِبل كثرةٍ لا قدرة لكم عليهم.

[٢٢] ربما لشرٍّ كان يتوقَّعه يعقوب.

كيس بنيامين الصغير مع ثمن قمحه. فلما أضاء الصبح انصرف الإخوة. فقال يوسف لحاجبه: قُم اسعَ وراءهم وفتِّش أكياسهم بحثًا عن الطاس. فلما أدركهم قال: لماذا جازيتم الخير بالشر؟ إن طاس سيدي مفقودٌ. فقالوا له: حاشى لعبيدك أن يفعلوا مثل هذا الأمر، إن الذي يوجد معه الطاس من عبيدك يموت، ونحن أيضًا نكون عبيدًا لسيدي. ففتَّش أكياسهم مبتدئًا بالكبير حتى انتهى إلى الصغير، فوجد الطاس في كيس بنيامين، وساقهم عائدًا بهم إلى المدينة. فقال لهم يوسف: الرجل الذي وُجِدَ الطاس في يده يكون عبدًا، وأما أنتم فاصعدوا بسلامٍ إلى أبيكم. فتقدَّم إليه يهوذا وقال: لقد سأَلَنَا سيدي هل لكم أبٌ أو أخٌ، فقلنا: لنا أب شيخ وله ابن شيخوخةٍ مات أخوه وبقيَ هو وحده لأمه، وأبوه يُحبه؛ والآن متى جئنا إلى أبينا والغلام ليس معنا، ونفسه مرتبطةٌ به، يكون متى رأى أن الغلام مفقود يموت، وقد ضمن عبدك الغلام لأبي قائلًا: إن لم أجئ به إليك أُصبح مُذنبًا إليك كل الأيام؛ فالآن ليمكث عبدك عوضًا عن الغلام عبدًا لسيدي، ويصعد الغلام مع إخوته. فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه، وأطلق صوته بالبكاء وقال: أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر، والآن لا تتأسَّفوا على ذلك، فقد أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض، وليصنع لكم نجاةً عظيمةً. والآن أسرعوا واصعدوا إلى أبي وقولوا له أن يأتي إليَّ هو وبنوه وبنو بنيه؛ لأنه يكون جوع في الأرض أيضًا خمس سنين. ثم وقع على عنق بنيامين وبكى، وبكى بنيامين على عنقه، وقبَّل إخوته، وبكى عليهم.

فصعدوا من مصر وجاءوا إلى أرض كنعان إلى يعقوب أبيهم وأخبروه قائلين: يوسف حيٌّ بعدُ، وهو متسلطٌ على كل أرض مصر. فجمد قلبه لأنه لم يُصدِّقهم، ثم كلَّموه بكل ما قاله يوسف لهم. وأبصر يعقوب العجلات التي أرسلها يوسف لتحمله، فعاشت روحه فقال: كفى أن ابني حيٌّ. أذهب وأراه قبل أن أموت. وقام يعقوب من بئر السبع، وحمل بنو إسرائيل أباهم وأولادهم في العجلات التي أرسلها فرعون لحمله، وأخذوا مواشيهم وكل مقتنياتهم وجاءوا إلى مصر (التكوين ٤٣: ١٥–٣٤ و٤٤: ١–٣٤ و٤٥: ١–٢٨ و٤٦: ١–٧).

سورة يوسف: تُتابع الرواية القرآنية خيوط الحبكة القصصية ذاتها، ولكن مع إضافة عنصرَين غير موجودَين في الرواية التوراتية، وهما رحلةٌ إضافيةٌ يقوم بها الإخوة بين مصر وكنعان ومعهم قميص يوسف، وكَشْف يوسف عن هُويَّته لأخيه بنيامين قبل أن يكشفها للآخرين:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ[٢٣] قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ[٢٤] فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ[٢٥] وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ[٢٦]* قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ[٢٧]* فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ[٢٨] إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ * قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ[٢٩] فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ * فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا[٣٠] قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي[٣١] وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ[٣٢] بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ

[٢٣] أي: ضمَّ إليه أخاه الأصغر، وأسرَّ إليه بهُويَّته.

[٢٤] الطاس الذي يشرب فيه.

[٢٥] صواع الملك أي سقايته أو طاسه.

[٢٦] أي: أنا له كفيلٌ وضامن.

[٢٧] أي: جزاء السارق وفق شريعة الإخوة أن يُدفع السارق إلى المسروق منه.

[٢٨] أي: ما كان ليأخذه وفق شريعة مصر بل وفق شريعتهم.

[٢٩] إشارة إلى حادثة لا نعرفها.

[٣٠] أي: لما يئسوا اعتكفوا يتشاورون.

[٣١] أي: حتى يأذن لي أبي بالرجوع وهو راضٍ عني، أو يُمكِّنني الله من أَخْذ أخي.

[٣٢] والقول هنا ليعقوب بعد أن عاد الإخوة وقصُّوا عليه ما جرى.

يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا[٣٣] أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ[٣٤] فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ[٣٥] يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ[٣٦] قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ[٣٧]* قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ[٣٨] قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ[٣٩] مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ[٤٠] بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢ يوسف: ٦٩–١٠٠).

---

[٣٣] حرضًا: أي سقيمًا وضعيفًا.

[٣٤] أي: وجئنا بنقودٍ قليلة، وقيلَ أيضًا بنقودٍ رديئة.

[٣٥] أي: لا لوم ولا عتب عليكم اليوم.

[٣٦] أي: فارقت العير مصر.

[٣٧] أي: تسفهوني وتنسبوني إلى الخرف.

[٣٨] أي: هذا تأويل حلمي القديم عندما رأيت الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا لي ساجدين.

[٣٩] أي: من البادية.

[٤٠] أي: أفسد الشيطان.

موسى

أعطى القرآن الكريم لأخبار موسى وقومه حيِّزًا في الكتاب لم يُعطه لأي شخصيةٍ دينيةٍ أخرى من الماضي، ولسوف نُتابع خيوط قصة موسى كما وردت في كلا النصين، مبتدئين بميلاد موسى.

(١) الميلاد والطفولة

الرواية التوراتية: «ومات يوسف وكل إخوته وجميع ذلك الجيل، وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا وكثروا جدًّا. ثم قام ملكٌ لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هلمَّ نحتال لهم لئلا ينموا، فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمُّون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخيرٍ لكي يذلوهم بأثقالهم. فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنفٍ ... ونما الشعب وكثر جدًّا ... ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلًا: كل ابنٍ يُولَد للعبرانيين تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها.»

«وذهب رجلٌ من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي، فحبلت المرأة وولدت ابنًا. ولما رأت أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر. ولمَّا لم يمكنها أن تُخبئه بعدُ، أخذت سفطًا من البردي وطلتْه بالحُمر والزفت، ووضعت الولد فيه ووضعته بين (نبات) الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيدٍ لتعرف ماذا يُفعل به، فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل، وكانت جواريها ماشياتٍ على جانب النهر، فرأت السَّفَط بين الحلفاء فأرسلت أَمَتها وأخذته، ولما فتحت السَّفَط رأت الولد وإذا هو صبيٌّ يبكي، فرقَّت له وقالت: هذا من أولاد العبرانيين. فقالت أخته لابنة فرعون: هل أذهب وأدعو لكِ امرأةً مرضعةً من العبرانيات؛ لترضع لكِ الولد؟ فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي

بهذا الولد وأرضعيه وأنا أُعطيكِ أُجرتكِ. فأخذت المرأة الولد وأرضعته، ولما كبر جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنًا ودعت اسمه موسى» (الخروج ١: ٦–٢٢ و٢: ١–١٠).

الرواية القرآنية: ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ[١] يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ[٢] إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ[٣] وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ[٤] لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا[٥] إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا[٦] لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ[٧] فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٨ القصص: ١–١٤).

(٢) الهروب إلى مديان

الرواية التوراتية: «وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر في أثقالهم. فرأى رجلًا مصريًّا يضرب رجلًا عبرانيًّا من إخوته. فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن

[١] المقصود بهذه الطائفة هنا العبرانيون.

[٢] أي: يتركهنَّ أحياء.

[٣] هامان هو وزير فرعون، وسوف نتحدث عنه بالتفصيل في موضع لاحق.

[٤] أي: مسرة وفرح.

[٥] أي: جزعت وخافت.

[٦] أي: كادت أن تصرخ بأنه ابنها لولا أن ثبَّتها الله وصبَّرها.

[٧] أي: تتبَّعي أثره.

ليس أحد، فقتل المصري وطمره في الرمل، ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان؛ فقال للمذنب: لماذا تضرب صاحبك؟ فقال: مَنْ جعلك علينا رئيسًا وقاضيًا؟ أمفتكر أنت بقتلي كما قتلت المصري؟ فخاف موسى وقال: حقًّا قد عُرِفَ الأمر. فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يُقتل موسى، فهرب موسى من وجه فرعون وسكن في أرض مديان[8] وجلس عند البئر.

وكان لكاهن مديان سبع بنات. فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهنَّ، فأتى الرُّعاة وطردوهنَّ. فنهض موسى وأنجدهنَّ وسقى غنمهن، فلما أتين إلى رعوئيل أبيهنَّ قال: ما بالكنَّ أسرعتنَّ في المجيء اليوم؟ قلن: رجلٌ مصريٌّ أنقذنا من أيدي الرعاة، وإنه استقى لنا أيضًا وسقى الغنم. فقال لبناته: وأين هو؟ لماذا تركتنَّ الرجل؟ ادعونه ليأكل طعامًا. فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل، فأعطى موسى ابنته صفورة فولدت له ابنًا فدعا اسمه جرشوم ... وحدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات» (الخروج ٢: ١–٢٣).

الرواية القرآنية: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * ... * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ[9] * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ[10]

[8] تقع مديان في أقصى الشمال الغربي للجزيرة العربية، وتشتمل على الطرفين الغربي والشرقي لخليج العقبة.

[9] أي: ضال عند الرشد.

[10] أي: يصرف الرعاة مواشيهم.

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ[١١] فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٢٨ القصص: ١٥–٢٨)

نلاحظ هنا أن الرواية القرآنية جعلت عدد بنات كاهن مدين اثنتَين، بينما جعلتهنَّ الرواية التوراتية سبعة. كما نلاحظ أن موسى قد تزوَّج من إحدى هاتَين البنتَين لقاء عمله في خدمة أبيها ثمان سنين، وهذان العنصران غائبان عن رواية سِفْر الخروج، ولكنهما موجودان في رواية سِفْر التكوين عن ترك يعقوب وذهابه إلى بلاد فدان آرام في الشمال السوري، وهي موطن خاله المدعو لابان، وهناك تزوج من إحدى ابنتيه لقاء خدمته مدة سبع سنين، وهذه هي القصة:

«فدعا إسحاق يعقوب وباركه وأوصاه وقال: لا تأخذ زوجةً من بنات كنعان. قم اذهب إلى فدان آرام، وخُذ لنفسك زوجةً من بنات لابان أخي أمك» (التكوين ٢٨: ١–٢) ... «ثم رفع يعقوب رِجْليه وذهب إلى أرض بني المشرق، ونظر وإذا في الحقل بئرٌ، وهناك ثلاثة قُطْعان غنمٍ رابضة عندها، والحجر على فم البئر كان كبيرًا، فقال لهم يعقوب: يا إخوتي، من أين أنتم؟ فقالوا: نحن من حاران. فقال لهم: هل تعرفون لابان بن ناحور؟ فقالوا: نعرفه، وهي ذي راحيل ابنته آتية مع الغنم. وإذ هو بعدُ يتكلَّم معهم أتت راحيل مع غنم أبيها؛ لأنها كانت ترعى. فكان لما أبصر يعقوب راحيل، أن يعقوب تقدَّم ودحرج الحجر عن فم البئر وسقى غنم لابان خاله. وقبَّل يعقوب راحيل ورفع صوته وبكى، وأخبر يعقوب راحيل أنه أخو أبيها[١٢] وأنه ابن رفقة، فركضت وأخبرت أباها. فكان حين سمع لابان خبر يعقوب ابن أخته أنه ركض للقائه وعانقه وقبَّله، وأتى به إلى بيته. فأقام عنده شهرًا من الزمان، ثم قال لابان ليعقوب: ألأنك أخي تخدمني مجانًا؟ أخبرني ما أُجرتك؟ وكان للابان

[١١] أي: تعمل عندي ثماني سنين.

[١٢] كان أولاد الخال وأولاد العم يُعتبرون بمثابة إخوة.

بنتان اسم الكبرى ليئة واسم الصغرى راحيل. وأحبَّ يعقوب راحيل فقال: أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى. فقال لابان: أن أعطيك إيَّاها أحسنُ من أن أُعطيها لرجل آخر، أقم عندي. فخدم يعقوب براحيل سبع سنين» (التكوين ٢٩: ١–٢٠).

(٣) التجلِّي في الوادي المقدس

الرواية التوراتية: «وأما موسى فكان يرعى غنم حميه يثرون[١٣] كاهن مديان. فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء على حوريب جبل الله. وظهر له ملاك الربِّ[١٤] بلهيب نارٍ من وسط عليقة.[١٥] فنظر وإذا العليقة تتوقَّد بالنار والعليقة لم تكن تحترق. فقال موسى: أميل الآن وأنظر هذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العليقة. فلما رأى الرب أنه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة وقال: موسى، موسى. فقال: ها أنا ذا. فقال: لا تقترب إلى ها هنا. اخلع حذاءك من رجلَيك لأن الموضع الذي أنت واقفٌ عليه أرض مقدسةٌ. ثم قال: أنا إله أبيك، إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. فغطَّى موسى وجهه؛ لأنه خاف أن ينظر إلى الله، فقال الربُّ: إني رأيت مذلَّة شعبي الذي في مصر، فنزلت لأُنقذهم من أيدي المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرضٍ جيدةٍ وواسعةٍ …

وقال الله أيضًا لموسى: … اذهب واجمع شيوخ إسرائيل وقل لهم: الرب إله آبائكم ظهر لي قائلًا: إني افتقدتكم وما صُنِع بكم في مصر، فقلت أُصعدكم من مذلَّة مصر إلى أرضٍ تفيض لبنًا وعسلًا … فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له: الرب إله العبرانيين التقانا؛ فالآن نمضي سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا …

فأجاب موسى وقال: ولكن ها هم لا يصدِّقونني ولا يسمعون لقولي، بل يقولون لمَ يظهر لك الرب، فقال الرب: ما هذه في يدك؟ فقال: عصًا. فقال اطرحها إلى الأرض. فطرحها إلى الأرض فصارت حيَّةً، فهرب منها موسى، ثم قال الرب لموسى: مُدَّ يدك وأمسك بذيلها. فمدَّ موسى يده وأمسك به فصارت عصًا في يده؛ لكي يصدِّقوا أنه قد ظهر له الرب إله

[١٣] يدعو سِفْر التكوين كاهن مدين بالاسم راعوئيل أحيانًا، وبالاسم يثرون أحيانًا أخرى.

[١٤] تعبير «ملاك الرب» هنا وفي مواضع كثيرة يعني ظل الرب وشبحه.

[١٥] شجرة عليق.

آبائهم. ثم قال له الرب أيضًا: أَدْخِل يدك في عبِّك. فأدخل يده في عبِّه ثم أخرجها، فإذا هي برصاء مثل الثلج. ثم قال له: رُدَّ يدك إلى عبِّك. فرد يده إلى عبِّه ثم أخرجها وإذا هي عادَت مثل جسده. فيكون إذا لم يصدِّقوك ولم يسمعوا لصوت الآية الأولى أنهم يصدقون صوت الآية الثانية» (الخروج: ٣: ١–٩ و٤: ١–٨).

الرواية القرآنية: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ[١٦] وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ[١٧] نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨ القصص: ٢٩–٣٠).

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى[١٨] * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى * وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ[١٩] تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (٢٠ طه: ٩–٢٣).

(٤) هارون، والدخول على فرعون

الرواية التوراتية: فقال موسى للربِّ: لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول أمس، بل أنا ثقيلُ الفم واللسان ... فقال: أليس هارون أخاك؟ أنا أعلم أنه هو يتكلم، وأيضًا هو خارج

[١٦] أي: انتهت سنوات خدمته لحميه.

[١٧] أي: من جانب جبل الطور، وهو في التوراة جبل حوريب الذي في سيناء؛ ولذلك دُعِي في موضعٍ آخر في القرآن الكريم بطور سينين، أي طور سيناء (٩٥ التين: ٢).

[١٨] طُوى هو اسم للوادي.

[١٩] الجَناح هنا هو جانب الصدر أو تحت العضد.

لاستقبالك، فحينما يراك يفرح قلبه فتكلِّمه وتضع الكلمات في فمه، وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأُعلِّمكما ماذا تصنعان، وهو يكلم الشعب عنك. بعد ذلك أخذ موسى أهله وودَّع حماه يثرون ورجع إلى إخوته في مصر، فخرج هارون لاستقباله فأخبره موسى بكل كلام الربِّ. ثم إن هارون كلَّم الشعب بجميع الكلام الذي قاله الرب لموسى فآمنوا وسجدوا. (الخروج ٤: ١٠–٣١).

الرواية القرآنية: ﴿... فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ[٢٠] إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[٢١] يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ...﴾ (القصص: ٣٢–٣٥).

الرواية التوراتية: «بعد ذلك دخل موسى وهارون على فرعون تلبيةً لأمر الربِّ، وقالا له: هكذا يقول الرب إله إسرائيل: أَطْلق شعبي ليعبدوا لي في البرية. فقال فرعون: من هو الرب حتى أسمع قوله فأُطلق بني إسرائيل؟ لا أعرف الرب وإسرائيل لا أُطلقه» (الخروج ٥: ١–٢).

الرواية القرآنية: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا[٢٢] أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * ... * قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٢٠ طه: ٤٣–٥٠).

الرواية التوراتية: «وعوضًا عن أن يطلق فرعون بني إسرائيل فقد زاد من أعباء السُّخرة عليهم؛ فتذمَّر رؤساء فرق السخرة الإسرائيليون على هارون وموسى ووضعوا اللوم عليهما فيما حصل للشعب من تعبٍ ونكدٍ» (الخروج ٥: ٤–٢٢).

الرواية القرآنية: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى

[٢٠] أي: معجزة العصا ومعجزة اليد البيضاء.

[٢١] أي: عونًا.

[٢٢] أي: يُعجل بالعقوبة.

لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا[٢٣] قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (٧ الأعراف: ١٢٧–١٢٩).

الرواية التوراتية: فقال الرب لموسى: انظر، أنا جعلتك إلهًا لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيك. أنت تتكلم بكل ما آمرك وهارون يُكلِّم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه، فإذا كلَّمكما قائلًا هاتيا عجيبةً، تقول لهارون خُذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثُعبانًا. فدخل موسى وهارون إلى فرعون وفَعَلَا هكذا كما أمر الرب. طرح هارون عصاه فصارت ثعبانًا، فدعا فرعون أيضًا الحكماء والسحرة ففعل عرَّافو مصر بسحرهم كذلك، طرحوا كل واحدٍ عصاه فصارت العِصِيُّ ثعابين ولكن عصا هارون ابتلعت عِصِيَّهم. ومع ذلك فقد اشتدَّ قلب فرعون ولم يسمح بإطلاق بني إسرائيل (الخروج ٧: ١–١٣).

الرواية القرآنية: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ... ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ... ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ[٢٤] وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ[٢٥]* يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ ... ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٦ الشعراء: ١٥–٤٧).

---

[٢٣] أي: إن وضعنا لم يتحسَّن بمجيئك بل زاد سوءًا.

[٢٤] أي: أرجئه.

[٢٥] جامعين للسحرة.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى[٢٦] * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ[٢٧] بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ ... ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ[٢٨] مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (٢٠ طه: ٥٧–٧٠).

الرواية التوراتية: بعد ذلك يتكرر دخول موسى وهارون على فرعون. وفي كل مرةٍ يرفض فرعون إطلاق بني إسرائيل، كان الرب يُرسل عليه وعلى شعبه كارثةً شاملةً، فيطلب فرعون من موسى أن يلتمس وجه ربه لكي يُوقف الكارثة، حتى إذا كفَّ الرب غضبه عاد فرعون سيرته الأولى. وقد بلغ عدد الكوارث عشرًا، منها تحويل ماء النيل والينابيع إلى دم، والضفادع التي تنتشر في كل مكان وتُغطي الأرض، والبعوض، وأخيرًا ضرب الرب كل بكرٍ في أرض مصر من ابن الجارية إلى ابن الملك الجالس على العرش وكل بكر بهيمة. فقام فرعون ليلًا ودعا هارون وموسى وقال: قوموا اخرجوا من بين شعبي أنتما وجميع بني إسرائيل، واذهبوا واعبدوا الرب كما تكلَّمتم، وخذوا معكم أيضًا غنمكم وبقركم (الخروج: ٧–١٢).

الرواية القرآنية: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ[٢٩] وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى[٣٠] وَمَنْ

[٢٦] أي: مكانًا معينًا، وقيل: مستويًا، وقيل: وسطًا.

[٢٧] فيهلككم.

[٢٨] تبتلع.

[٢٩] أي: بالقحط والجفاف.

[٣٠] أي: يتشاءمون ويتطيرون ويعزُون مصائبهم إلى موسى.

مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ[٣١] وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ۞ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ[٣٢] قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (٧ الأعراف: ١٣٠–١٣٥).

(٥) الخروج وعبور البحر

قصة الخروج من مصر واجتياز سيناء والوصول إلى أطراف بلاد كنعان، وما تلا ذلك من الإقامة في الصحراء مدة أربعين سنة، هي قصةٌ طويلةٌ في التوراة، وتستغرق بقية أحداث سِفْر الخروج إضافةً إلى سِفْر اللاويين وسِفْر العدد وسِفْر التثنية. وقد سلَّط القرآن الكريم ضوءًا على المفاصل الرئيسة لهذه القصة وتفادى الخوض في التفاصيل؛ ولذلك سوف نبدأ منذ الآن بإيراد القصة القرآنية أولًا، ثم ما يُقابلها في القصة التوراتية.

الرواية القرآنية: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا[٣٣] وَلَا تَخْشَى ۞ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۞ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ (٢٠ طه: ٧٧–٧٩).

﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ[٣٤] ۞ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۞ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۞ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۞ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ۞ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۞ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٦ الشعراء: ٦٠–٦٧).

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ آلْآنَ وَقَدْ

[٣١] أي: إن ما يصيبهم هو بتقدير من الله لا بشؤم موسى.

[٣٢] أي: العذاب.

[٣٣] أي: وأنت لا تخاف لحاقًا بك.

[٣٤] أي: مع شروق الشمس.

عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (١٠ يونس: ٩٠–٩٢).

الرواية التوراتية: «وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين[٣٥] مع أنها قريبةٌ؛ لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربًا ويرجعوا إلى مصر، فأدار الله الشعب في طريق برية بحر سوف»[٣٦] (الخروج ١٣: ١٧–١٨).

فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم وهم نازلون عند البحر. فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم، ففزعوا جدًّا … فقال الرب لموسى: ارفع أنت عصاك ومُدَّ يدك على البحر وشُقَّه، فيدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، وها أنا أشدد قلوب المصريين حتى يدخلوا وراءهم … ومدَّ موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريحٍ شرقيةٍ شديدةٍ كل الليل، وجعل البحر يابسةً وانشقَّ الماء. فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم … فقال الرب لموسى: مُدَّ يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين وعلى مركباتهم وفرسانهم. فمد موسى يده على البحر فرجع عند إقبال الصُّبح إلى حاله الدائمة وغطَّى جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر، لم يبقَ منهم ولا واحد. (الخروج: ١٤).

(٦) المن والسلوى

الرواية القرآنية: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ (٢٠ طه: ٨٠–٨١).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي

---

[٣٥] الفلسطينيون التوراتيون هم شعب البيلست أو الفيلست. وقد جاءوا إلى المنطقة مع موجة شعوب البحر الآتية من كريت وجزر بحر إيجه، في أواخر القرن الثالث عشر ق.م. وقد سكنوا في الجنوب الفلسطيني وذابوا تدريجيًّا في المحيط الكنعاني.

[٣٦] خليج السويس، وهو امتداد للبحر الأحمر.

هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ الله ...﴾ (٢ البقرة: ٦١).

الرواية التوراتية: «وأتى كلُّ جماعة بني إسرائيل إلى برية سين التي بين إيليم وسيناء، فتذمَّر كل جماعة بني إسرائيل في البرية على موسى وهارون، وقال لهما بنو إسرائيل: ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خُبزًا للشبع. فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا هذا الجمهور بالجوع. فقال الرب لموسى: ها أنا أُمطر لكم خبزًا من السماء، فيخرج الشعب ويتلقطون حاجة اليوم بيومها ... سمعتُ تذمُّر بني إسرائيل. كلمهم قائلًا: في العشية تأكلون لحمًا وفي الصباح تشبعون خبزًا، وتعلمون أني أنا الرب إلهكم. فكان في المساء أن السلوى[٣٧] صعدت وغطت المحلة. وفي الصباح كان سقيط الندى حول المحلة، ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شيءٌ دقيق مثل قشورٍ كالجليد على الأرض. فقال لهم موسى: هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا ... وأكل بنو إسرائيل المنَّ[٣٨] أربعين سنةً حتى جاءوا إلى أرضٍ عامرةٍ، حتى جاءوا إلى أرض كنعان» (الخروج: ١٦).

وبما أن طيور السلوى المهاجرة لا تظهر إلا في مواسم معينةٍ، فقد انقطع ظهورها، وكان على بني إسرائيل أن يأكلوا من طعامٍ واحدٍ هو المن فقط، فعادوا للتذمُّر على موسى:

«فعاد بنو إسرائيل أيضًا وبكوا وقالوا: من يُطعمنا لحمًا؟ تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجانًا، والقثَّاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم، والآن قد يبست نفوسنا، ليس شيءٌ غير أن أعيننا إلى هذا المنِّ ... فلما سمع موسى الشعب يبكون، وحمي غضب الرب جدًّا، ساء ذلك في عينَي موسى فقال للرب: ... من أين لي لحم حتى أعطي جميع هذا الشعب؟ ... فقال الرب لموسى ... للشعب تقول: تقدَّسوا للغد فتأكلوا لحمًا لأنكم بكيتم في أذنَي الرب قائلين من يُطعمنا لحمًا إنه كان لنا خيرٌ في مصر، فيعطيكم الرب لحمًا فتأكلون، تأكلون لا يومًا واحدًا ولا يومين ولا خمسة أيام ولا عشرة أيام ولا عشرين يومًا، بل شهرًا من الزمان حتى يخرج من مناخركم ويصير لكم كراهة؛ لأنكم رفضتم الرب الذي في وسطكم وبكيتم أمامه قائلين لماذا خرجنا من مصر ... فخرجت ريحٌ من قِبَل

---

[٣٧] وهي نوع من الطيور المهاجرة.

[٣٨] وهو تلك القشور التي غطَّت وجه البرية، ويبدو أنها نوعٌ من الفطريات التي تنبت بعد ندى الصباح.

الرب وساقت سلوى من البحر وألقتها على المحلة نحو مسيرة يومٍ من هنا ومسيرة يومٍ من هُناك» (سِفْر العدد: ١١)

(٧) تفجير الماء من الصخرة

الرواية القرآنية: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٢ البقرة: ٦٠).

الرواية التوراتية: «ثم جاءوا إلى إيليم، وهناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلةً. فنزلوا هناك عند الماء» (الخروج ١٥: ٢٧).

«ثم ارتحل كل جماعة بني إسرائيل من برية سين ونزلوا في رفيديم. ولم يكن ماء ليشرب الشعب. فخاصم الشعب موسى وقالوا: أعطنا ماءً لنشرب. فقال لهم موسى: لماذا تخاصمونني؟ لماذا تجرِّبون الرب؟ وعطش هناك الشعب إلى الماء، وتذمَّر الشعب على موسى وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر لتُميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش. فصرخ موسى إلى الرب قائلًا: ماذا أفعل بهذا الشعب؟ بعد قليلٍ يرجمونني، فقال الرب لموسى: مُرَّ قدام الشعب وخُذ معك من شيوخ إسرائيل، وعصاك التي ضربت النهر خُذها في يدك واذهب، ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخرة فيخرج منها ماءٌ ليشرب الشعب، ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل» (الخروج ١٧: ١–٦).

(٨) التجلِّي على الجبل

الرواية القرآنية: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ[٣٩] فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧ الأعراف: ١٤٢–١٤٣).

[٣٩] أي: ثبت عندما أتجلى عليه.

الرواية التوراتية: في الرواية القرآنية عن التجلي لدينا عنصران: العنصر الأول هو طلب موسى رؤية الرب، والعنصر الثاني هو تجلِّي الرب على الجبل ليجعله دكًّا. وهذان العنصران موجودان في الرواية التوراتية في موضعَين منفصلَين:

(أ) طلب الرؤية: «فقال موسى: أرني مجدك. فقال: أجيز كل جودتي قدامك، وأنادي باسم الرب قدامك، وأتراءف على من أتراءف، وأرحم من أرحم. وقال: لا تقدر أن ترى وجهي؛ لأن الإنسان لا يراني ويعيش. وقال الرب: هو ذا عندي مكان، فتقف على الصخرة، ويكون متى اجتاز مجدي أني أضعك في نقرةٍ من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز، ثم أرفع يدي فتنظر ورائي، وأما وجهي فلا يُرَى» (الخروج ٣٣: ١٨–٢٣).

(ب) التجلِّي على الجبل: «وفي الشهر الثالث بعد خروج بني إسرائيل من أرض مصر، في ذلك اليوم جاءوا إلى برية سيناء مقابل الجبل» (الخروج ١٩: ١–٢). «وقال الرب لموسى: اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحَي الحجارة[٤٠] والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم. فقام موسى ويشوع خادمه، وصعد موسى إلى جبل الله. وأما الشيوخ فقال لهم: اجلسوا لنا هنا حتى نرجع إليكم، وهو ذا هارون وحور معكم، فمن كان صاحب دعوى فليتقدَّم إليهما. فصعد موسى إلى الجبل وحلَّ مجد الرب على جبل سيناء وغطَّاه بالسحاب مدة سبعة أيام. وفي اليوم السابع دُعِيَ موسى من وسط السحاب. وكان منظر مجد الربِّ كنار آكلة أمام عيون جميع بني إسرائيل. ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل. وكان موسى في الجبل أربعين نهارًا وأربعين ليلة» (الخروج ٢٤: ١٢–١٨). «وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دُخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدًّا، فكان البوق يزداد اشتدادًا وموسى يتكلَّم والله يُجيبه» (الخروج ١٩: ٨–١٩).

(٩) الرسالة

الرواية القرآنية: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ

---

[٤٠] وهما لوحان نُقِشَت عليهما الوصايا والشريعة.

فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ[٤١]* سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ...﴾ (٧ الأعراف: ١٤٤–١٤٦).

الرواية التوراتية: على قمة جبل سيناء الذي كان يُدخِّن ويرتجف؛ لأن الله نزل عليه بالنار (الخروج: ١٩). يتلقَّى موسى من ربه الوصايا العشر: لا تكن لك آلهة أخرى أمامي، أَكْرِم أباك وأمك، لا تقتل، لا تسرق ... إلخ (الخروج: ٢٠). وبعد ذلك يأخذ الرب بتفصيل الأحكام الشرعية (الخروج: ٢١–٣١). وفي النهاية يُعطي الرب موسى لوحَين من حجر نُقِشَت عليهما وصيته وشريعته: «ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحَي الشهادة، وهما لوحان من حجرٍ مكتوبان بإصبع الله» (الخروج ٣١: ١٨).

(١٠) العجل

الرواية القرآنية: عندما صعد موسى لميقات ربه أربعين يومًا وتأخَّر في النزول من الجبل، صنع قومه لأنفسهم من حُليِّهم الذهبية صورة للإله على هيئة عجلٍ وتعبَّدوا له. ويبدو أنه كان مجوفًا، فإذا عبرته الريح صدر عنه ما يُشبه الخوار:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ[٤٢] ابْنَ أُمَّ[٤٣] إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ... وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (٧ الأعراف: ١٤٨–١٥٤).

---

[٤١] أي: سأنقذكم من جهنم.

[٤٢] هارون.

[٤٣] أي: يا أخي.

وفي سورة طه ترد قصةُ العجل مرةً أخرى، ولكن مع إدخال عنصر «السامري»، وهو رجلٌ غامضٌ لا يعطينا النص أي تفصيلاتٍ عنه، كان بين قوم موسى، وهو الذي صنع لهم العجل. وتنتهي القصة بإحراق العجل وطحنه ونثر رماده وفُتاته على الماء، حيث نقرأ: ﴿... وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (٢٠ طه: ٨٥–٩٧). كما نفهم من إشارةٍ مختصرةٍ إلى العجل في سورة البقرة أن موسى قد سقى عَبَدة العجل الماء الممزوج برماد وفتات التمثال الذي تمَّ حرقه وطحنه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢ البقرة: ٩٢–٩٣). ومن إشارةٍ أخرى في سورة البقرة أيضًا، نفهم أن العقاب الذي فرضه موسى على قومه هو أن يقتل البريء منهم المذنب: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ[٤٤] ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٢ البقرة: ٥٤).

الرواية التوراتية: «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع آلهة تسير أمامنا؛ لأن هذا موسى، الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لا ندري ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها ... فأخذ ذلك من أيديهم وصوَّره بالإزميل وصنعه عجلًا مسبوكًا. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر.[٤٥] فلما نظر هارون بنى مذبحًا أمامه، ونادى هارون وقال: غدًا عيدٌ للرب.

فقال الرب لموسى: اذهب انزل هناك؛ لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر، زاغوا سريعًا عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا عجلًا مسبوكًا وسجدوا له وذبحوا له ... فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده، لوحان مكتوبان على جانبيهما هما صنعة الله، والكتابة كتابة الله ... وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص. فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يده وكسرهما في أسفل الجبل، ثم أخذ العجل وأحرقه بالنار حتى صار ناعمًا، وذراه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل.

[٤٤] المقصود هنا اقتلوا بعضكم بعضًا.

[٤٥] نلاحظ من قول هارون هذا أن صورة العجل لم تكن إلا رمزًا للإله يهوه الذي أخرجهم من مصر.

وقال موسى لهارون: ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطيئةً عظميةً؟ فقال هارون: لا يحمَ غضب سيدي. أنت تعرف الشعب أنه في شرٍّ، فقالوا لي: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من مصر لا نعرف ماذا أصابه، فقلت لهم: من له ذهب فلينزعه ويُعطِني. فطرحته في النار فخرج هذا العجل ... فوقف موسى في باب المحلة وقال: من للرب فإليَّ. فاجتمع إليه جميع بني لاوي، فقال لهم: هكذا قال الرب إله إسرائيل: ضعوا كل واحدٍ سيفه على فخده ومرُّوا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة، واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه. ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى. ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل» (الخروج ٣٢: ١–٢٨)

(١١) الميقات مع السبعين

الرواية القرآنية: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ[٤٦] قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (٧ الأعراف: ١٥٥).

الرواية التوراتية: «وقال لموسى: اصعد إلى الرب أنت وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل واسجدوا من بعيدٍ. ويقترب موسى وحده إلى الرب وهم لا يقتربون، وأما الشعب فلا يصعد معه ... ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل وتحت رِجْليه شبه صنعةٍ من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة» (الخروج ٢٤: ١–١١)

ونلاحظ هنا الفارق الكبير بين الروايتين؛ فقد صعد السبعون مع موسى في الرواية التوراتية «ورأوا إله إسرائيل»، وهذا ما يتناقض مع قول يهوه لموسى بأن الإنسان لا يراه ويعيش (راجع فقرة التجلِّي على الجبل). أما في الرواية القرآنية فيبدو أن السبعين قد طلبوا من موسى أن يريهم ربهم، فأخذتهم الزلزلة وماتوا. وقد جرت الإشارة إلى هذه الحادثة في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (٢ البقرة: ٥٥).

---

[٤٦] أي: الزلزلة أو الصيحة.

(١٢) التيه

الرواية القرآنية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٥ المائدة: ٢٠–٢٦).

الرواية التوراتية: «ونزلوا في برية فاران،[٤٧] ثم كلَّم الرب موسى قائلًا: أرسل رجالًا ليتجسسوا أرض كنعان التي أنا مُعطيها لبني إسرائيل ... فأرسلهم موسى وقال لهم: انظروا الأرض ما هي، والشعب الساكن فيها أقويٌّ أم ضعيفٌ، قليلٌ أم كثير ... فصعدوا إلى الجنوب،[٤٨] وأتوا إلى حبرون،[٤٩] وأتوا إلى وادي أشكول، وقطفوا من هناك زرجونةً بعنقودٍ واحدٍ من العنب، وحملوه بين اثنَين مع شيء من الرمَّان والتين. فساروا وأتوا إلى موسى وهارون وكل جماعة إسرائيل، وأروهم ثمر الأرض وأخبروه وقالوا: قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها، وحقًّا أنها تفيض لبنًا وعسلًا وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينةٌ عظيمةٌ جدًّا ... لكن كالب[٥٠] أنصت الشعب إلى موسى وقال: إننا نصعد ونمتلكها؛ لأننا قادرون عليها. وأما الرجال الذين صعدوا معه فقالوا: لا نقدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشدُّ منا. فأشاعوا مذمة الأرض التي تجسسوها في بني إسرائيل ...

فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت، وبكى الشعب في تلك الليلة، وتذمَّر على موسى وهارون جميعُ بني إسرائيل، وقال لهما كلُّ الجماعة: ليتنا مِتْنا في أرض مصر أو ليتنا متنا

---

[٤٧] وهي القسم الشمالي من صحراء سيناء.

[٤٨] أي: إلى المناطق الجنوبية من فلسطين.

[٤٩] وهي مدينة الخليل.

[٥٠] كالب بن يفنة، وكان بين الذين أُرْسِلوا للتجسُّس مع يشوع بن نون وآخرين.

في هذا القفر. ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف، تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمةً. أليس خيرًا لنا أن نرجع مصر؟ ... فكلَّم الرب موسى وهارون قائلًا: حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليَّ. قل لهم: حي هو أنا يقول الرب. لأفعلَنَّ بكم كما تكلمتم في أُذني، في هذا القفر تسقط جثثكم من ابن عشرين سنة فصاعدًا، الذين تذمَّروا عليَّ، لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي لأسكنكم فيها، عدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون، وأما أطفالكم الذي قلتم يكونون غنيمةً، فإني سأدخلهم الأرض التي احتقرتموها، فجثثكم تسقط في هذا القفر، وبنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة» (العدد ١٣: ١–٣٣ و١٤: ١–٣٤).

عند هذه النقطة تنتهي قصة موسى في القرآن الكريم، ولكننا سوف نتوقَّف فيما يأتي عند شخصيَّتين تكرر ذكرهما في سياق القصة القرآنية، وهما هامان وقارون.

هامان

يترافق اسم فرعون في الآيات القرآنية التي تقصُّ سيرة موسى باسم وزيره المتنفذ المدعو هامان:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (٢٨ القصص:٥–٦).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٨ القصص: ٣٨).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ... * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ...﴾ (٤٠ غافر: ٢٣–٢٤).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ...﴾ (٤٠ غافر: ٣٦–٣٧).

على أن شخصية هامان الوزير القوي لا تظهر في الرواية التوراتية لسيرة موسى، بل تظهر في مكانٍ وزمانٍ مختلفَين كل الاختلاف عن مكان وزمان موسى وفرعون. فقد كان في سِفْر إستير التوراتي وزيرًا للملك الفارسي زركسيس (أو إحشويروس كما يُدْعَى في التوراة) الذي حكم في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، أي بعد أكثر من ٧٠٠ سنة على العصر المفترض لموسى. وهو من خلفاء الملك قورش الذي استولى على بابل ووَرِث ممتلكاتها

في المشرق العربي. أحب هذا الملك الفارسي فتاةً يتيمةً من سبي يهوذا تُدْعى إستير وتزوجها. وكان عمُّها المدعو مردخاي يعمل حاجبًا لديه، وكان مردخاي لا يُعامل وزير الملك الغني والمتنفذ هامان باحترامٍ، فأخذ هامان يُخطط للانتقام من مردخاي، واستطاع من خلال حظوته لدى الملك استصدار أمرٍ منه بالقضاء على جميع اليهود في المملكة، ولم يكن الملك يعرف بعدُ أن زوجته يهوديةٌ، ولكن إستير تدخلت في الوقت المناسب وأنقذت شعبها من المذبحة (سِفْر إستير: ١–١٠)، ولا يوجد لدينا في السجلات القديمة ذكر للوزير هامان خارج سِفْر إستير.

قارون

الخبر المُفصَّل عن قارون في القرآن الكريم ورد في سياق قصة موسى وذلك في سورة القصص، حيث نقرأ:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ (٢٨ القصص: ٧٦–٨١).

ولدينا في قصة موسى التوراتية شخصٌ ذو مالٍ يُدْعَى قورح، تزعَّم حركة تمرُّدٍ على موسى أثناء ارتحال الجماعة في صحراء سيناء، واتَّحد معه كلٌّ من داثان وآبيرام وأون من سبط راؤبين بهدف تحويل الرئاسة من موسى إلى سبط راؤبين. وانضمَّ إليهم نحو ٢٥٠ من رؤساء الجماعة، وتوجَّه الجميع إلى موسى وهارون واتهموهما بأنهما يترأسان جورًا على بني إسرائيل. فاستعان موسى بالرب، فأجابه بأن انشقت الأرض وابتلعتهم. وعلى حدِّ وصف سِفْر العدد: «فلما فرغ من التكلم بمثل هذا الكلام، انشقت الأرض التي تحتهم،

وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل مَنْ كان لقورح مع كل الأموال. فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية، وانطبقت الأرض عليهم فبادوا من بين الجماعة» (العدد ١٦: ٣١–٣٣).

الملك شاؤل

بعد انتهاء المدة التي حدَّدها الرب بأربعين سنة لبقاء بني إسرائيل في الصحراء، وموت كل الجيل الذي تمرَّد على موسى وخاف دخول أرض كنعان، تحرَّك موسى بجماعته لتحقيق وعدِ الرب. وفي الطريق توفِّي هارون ودُفِنَ في جبل هور. وبعد مسيرةٍ شاقةٍ تخلَّلها عدد من المعارك مع الممالك المحلية في الجنوب السوري، حطَّ موسى بجماعته على الشاطئ الشرقي لنهر الأردن مقابل أريحا في موقعٍ يدعوه النص بعربات مؤاب، وهناك أصعده الرب إلى جبل نبو، وأراه جميع الأرض الموعودة وقال له: قد أريتك إيَّاها بعينك، ولكن إلى هناك لا تعبر. فمات موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب. وكان موسى ابن مائةٍ وعشرين سنة حين مات. لم تكل عيناه ولم تذهب نضارته (التثنية: ٣٤).

خَلَفَ موسى في قيادة بني إسرائيل مُساعده يشوع بن نون، وهو أحد الاثنَين اللذَين قالا لموسى بعد العودة من تجسُّس أرض كنعان إن باستطاعة بني إسرائيل دخول تلك الأرض. عَبَرَ يشوع ببني إسرائيل نهر الأردن، واستولى بعد عددٍ من المعارك الصاعقة على معظم بلاد كنعان، ووزعها على القبائل الاثنتي عشرة. وتفصيل هذه الأحداث التي من المُفترض أنها وقعت في أواخر القرن الثالث عشر؛ موجودٌ في سِفْر يشوع. بعد ذلك عاش بنو إسرائيل حياةً قبليةً في أرض كنعان دونما دولة مركزية تجمعهم، الأمر الذي جعلهم عُرضةً لتعديات جيرانهم الفلسطينيين ولتعديات ممالك شرقي الأردن. وكان قضاةٌ منتخبون يديرون شئونهم المدنية والسياسية المشتركة. وأخبار هذه الفترة مفصَّلةٌ في سِفْر القضاة، الذي يفترض المؤرخون أن أحداثه وقعت على مدى قرنين من الزمان، وذلك من نحو ١٢٠٠ق.م. إلى نحو ١٠٠٠ق.م.

وقد كان النبي صموئيل آخر مَنْ تولَّى القضاء لإسرائيل، وذلك خلال فترةٍ عصيبةٍ بلغ فيها اضطهاد الفلسطينيين للإسرائيليين ذروته. فصلَّى صموئيل إلى الرب ليرفع غضبه عن شعبه، فاستجاب له لأنه كان نبيًّا ومختارًا للرب منذ صغره، وأعان شعبه على أعدائهم (صموئيل الأول: ١–٧). وكان لما شاخ صموئيل أنه جعل ابنيه قضاةً يساعدانه، ولكنهما لم يسلكا في طريقه وإنما مالا إلى المكسب وقبلا الرشوة. فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل وقالوا له: هو ذا أنت قد شِخْت وابناك لم يسيرا في طريقك. فالآن اجعل لنا ملكًا يقضي لنا، فساء الأمر في عينَي صموئيل؛ لأنهم قالوا: أعطنا ملكًا يقضي لنا. وصلَّى صموئيل إلى الرب، فقال الرب لصموئيل: اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك. (صموئيل الأول: ٨). وبعد مدةٍ أوحى الله إلى صموئيل بأنه اختار الشاب شاؤل من قبيلة بنيامين، وأمره أن يمسحه ملكًا على إسرائيل، وبذلك ينتهي عصر القضاة ويبدأ عصر الملوكية في إسرائيل (صموئيل الأول: ٩–١٠).

يُدْعى شاؤل في القرآن الكريم «طالوت». ولدينا عنه خبران فقط: الخبر الأول يتعلَّق بتنصيبه ملكًا، والخبر الثاني يقصُّ عن المعركة الشهيرة مع الفلسطينيين، عندما قتل داود الفارس الفلسطيني جالوت، وكان داود في ذلك الوقت مجرد حامل سلاحٍ لشاؤل.

(١) تنصيب شاؤل

الرواية القرآنية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ[١] إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ[٢] إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢ البقرة: ٢٤٦–٢٤٨).

---

[١] الكلمة مشتقة من عسى.

[٢] المقصود هنا هو النبي صموئيل.

الرواية التوراتية: «وكان رجل من بنيامين اسمه قيس بن أبيئيل، وكان له ابن اسمه شاؤل، شاب وحسن، ولم يكن رجلٌ في بني إسرائيل أحسن منه. من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب (قارن مع ما ورد في سورة البقرة: ﴿... إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ...﴾). فضلَّت أُتن قيس أبي شاؤل. فقال قيس لشاؤل ابنه: خُذ معك واحدًا من الغلمان، وقم اذهب فتِّش عن الأتن» (صموئيل الأول ٩: ١–٣).

ابتعد شاؤل وغلامه كثيرًا عن موطن قبيلة بنيامين، حتى وصلا إلى المكان الذي يُقيم فيه صموئيل. فقال شاؤل لغلامه: هو ذا رجل الله في هذه المدينة، والرجل مكرمٌ، وكل ما يقوله يصير. لنذهب إلى هناك لعله يُخبرنا عن الطريق التي نسلك فيها. وكان الرب قد كشف أذن صموئيل قبل مجيء شاؤل بيومٍ قائلًا: غدًا في مثل الآن أُرسل إليك رجلًا من أرض بنيامين فامسحه رئيسًا لشعبي إسرائيل، فيخلصهم من يد الفلسطينيين. فلما رأى صموئيل شاؤل قال له الرب: هو ذا الرجل الذي كلَّمتك عنه. فاستقبل صموئيل الشاب وأكرمه ودعاه إلى الطعام والمبيت، وفي الصباح جاء صموئيل بزيت المسحة المقدس وسكب منه على رأس شاؤل، وأخبره بأن الرب قد مسحه ملكًا على إسرائيل. بعد ذلك بمدةٍ دعا صموئيل جميع أسباط إسرائيل بألوفهم في بلدة المصفاة، حيث أعلن لهم وقال: أرأيتم الذي اختاره الرب؟ إنه ليس مثله في جميع الشعب. فهتف الشعب وقالوا: ليَحْيَ الملك. ولكن جماعة منهم استصغرت شأنه وقالوا: أنَّى لهذا أن يُخلصنا (قارن مع ما ورد في سورة البقرة: ﴿... قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ...﴾) ولكن شاؤل لم يُجبهم بكلمةٍ. وعندما ربح شاؤل أُولى معاركه وكانت مع بني عمون الساكنين شرقي الأردن، قال الشعب لصموئيل بعد عودة شاؤل منتصرًا: أين هم الرجال الذين قالوا: هل يملك علينا شاؤل؟ أحضروا الرجال لنقتلهم. فقال شاؤل: لا يُقتل أحد في هذا اليوم (صموئيل الأول، الإصحاحات، من ٩ إلى ١١).

هذا عن تنصيب شاؤل ملكًا، أما عمَّا ورد بعد ذلك في المقتبس أعلاه من سورة البقرة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٨). ففيه إشارة إلى استيلاء الفلسطينيين على تابوت العهد، ثم إعادته مُرغمين إلى بني إسرائيل. وتفصيل هذه القصة وارد في الإصحاحات من ٤ إلى ٦ في سِفْر صموئيل الأول. وهذا ملخصها:

في إحدى معاركهم مع الفلسطينيين هُزِمَ بنو إسرائيل وخسروا نحو أربعة آلاف رجلٍ، فقال شيوخ إسرائيل: لماذا كَسَرَنا الرب أمام الفلسطينيين؟ لنأخذ لأنفسنا من مدينة شلوة تابوت عهد الرب، فيدخل في وسطنا ويُخلِّصنا من يد أعدائنا. وكان عند دخول التابوت إلى المحلة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافًا عظيمًا، فسمع الفلسطينيون وعلموا أن التابوت قد جاء إلى المحلة، وقالوا: ويلٌ لنا، من يُنقذنا من يد هؤلاء الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات؟ تشدَّدوا وكونوا رجالًا لئلا تُستعبدوا للعبرانيين. فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل، وأخذوا منهم تابوت العهد غنيمةً وجاءوا به إلى مدينة أشدود الفلسطينية، وأقاموه في معبدهم قرب تمثال إلههم داجون. ولكن عندما عادوا في اليوم التالي وجدوا التمثال ساقطًا على وجهه على الأرض ويداه مكسورتان. ثم ضرب الرب سكَّان أشدود بمرض البواسير من الصغير إلى الكبير، فنقل الفلسطينيون التابوت من مدينة إلى أخرى، فكان الوباء ينتشر حيثما حلَّ التابوت. وبعد سبعة أشهرٍ أشار عليهم كهنتهم وعرافوهم بإعادة التابوت إلى بني إسرائيل مع قربان من ذهبٍ وفضةٍ، فأخذوا التابوت ووضعوه على عربة تجرُّها بقرتان دون سائقٍ، فاستقامت البقرتان في الطريق حتى وصلتا إلى مدينة بيت شمس، وهناك تلقَّاها الإسرائيليون وأنزلوا التابوت وذبحوا ذبائح للرب (صموئيل الأول: ٤–٦).

أما عن محتويات التابوت الوارد ذكرها في الآية الكريمة: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾، فإننا نعلم من سِفْر الخروج (٢٥: ١٦ و٢١) أن التابوت كان يحتوي على لوحي الشريعة اللذين تلقَّاهما موسى من ربه على جبل سيناء. كما وتضيف رسالة بولس إلى العبرانيين في كتاب العهد الجديد إلى محتويات التابوت جرة ذهبية فيها بعض المنِّ الذي أكله العبرانيون في الصحراء، وعصا هارون التي أورقت (الرسالة إلى العبرانيين ٩: ٤). وفيما يتعلَّق بالملائكة التي تحمل التابوت فنحن نعلم من إشارات متفرقةٍ في التوراة أن تابوت العهد كان بمثابة عرش ليهوه، وأن اثنَين من ملائكة الكروبيم المجنحة (مفردها كَروب) كانا يحملانه في موضعه في خيمة الاجتماع التي كانت بمثابة مسكنٍ ليهوه بين شعبه أثناء التجوال في سيناء: «وحملوا من هناك تابوت عهد الرب الجالس على الكروبيم» (١ صموئيل ٤: ٤). «يا راعي إسرائيل ... يا جالسًا على الكروبيم أشْرِق» (المزمور ٨٠: ١). «الرب قد مَلَكَ. ترتعد الشعوب وهو جالسٌ على الكروبيم، تتزلزل الأرض» (المزمور ٩٩: ١). «أيها الرب إله إسرائيل الجالس على الكروبيم، أنت وحدك الإله» (٢ ملوك ١٩: ١٥).

(٢) جالوت وداود

الرواية القرآنية: نُتابع في المقتبس الذي أوردناه أعلاه من سورة البقرة:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ...﴾ (٢ البقرة: ٢٤٩–٢٥١).

في هذا الخبر لدينا وصفٌ لإحدى المعارك الشهيرة التي خاضها شاؤل ضد الفلسطينيين، فقد عسكر الفريقان تجاه بعضهما البعض، وانبرى لبني إسرائيل من الطرف الفلسطيني الفارس الجبار جوليات (أو جالوت في النص القرآني)، يطلب من يبُارزه في قتالٍ منفردٍ، فخاف فرسان بني إسرائيل من منازلته، ولكن الفتى داود قَبِلَ التحدي، وكان في ذلك الوقت مجرد حامل سلاحٍ للملك شاؤل، وعازفًا على العود يعزف له كلما انتابته الكآبة.

الرواية التوراتية: لهذه القصة في سِفْر صموئيل الأول مقدمات، فقد نقل النبي صموئيل إلى شاؤل أمرَ الربِّ بقتال شعب العماليق؛ لأنهم وقفوا في وجه بني إسرائيل وهم في طريقهم إلى أرض كنعان، وبتطبيق قاعدة «التحريم» عليهم، والتي تقتضي إفناء العدو عن بكرة أبيه وقَتْل نسائه وأطفاله وحيواناته جميعًا؛ فتوجَّه شاؤل وهزم العماليق وحرَّم جميع الشعب بحدِّ السيف، ولكنه عفا عن ملكهم المدعو أجاج، كما عفا عن خيار المواشي وساقها أمامه.

فكان كلام الرب إلى صموئيل قائلًا: ندمت على أنِّي جعلت شاؤل ملكًا؛ لأنه رجع من ورائي ولم يحفظ كلامي. فحزن صموئيل جدًّا وصرخ إلى الرب الليل كله؛ لأنه كان يُحب شاؤل. ثم بكَّر صموئيل للقاء شاؤل صباحًا. ولما جاء قال له شاؤل: قد أقمتُ كلام الرب. فقال له صموئيل: وما هو صوت الغنم هذا في أذني وصوت البقر الذي أنا سامعٌ؟ فقال شاؤل: لقد عفا الشعب عن خيار الغنم والبقر لأجل الذبح للرب إلهك. فقال له صموئيل: هل مسرة الرب بالمحرقات والذبائح أكثر من مسرته باستماع صوته وأوامره؟ لأنك رفضت كلام الرب فإن الرب يرفضك من المُلك، ثم قال صموئيل: قدِّموا لي أجاج ملك عماليق. فذهب

إليه أجاج وهو يعتقد أنه قد نجا، ولكن صموئيل أمسك بالسيف وقطع رأسه (صموئيل الأول: ١٥).

بعد ذلك فارق روح الرب شاؤل، وتلبَّسه روحٌ رديء، فكانت تأتيه نوبات من الكآبة، فقال له ضُباطه: هو ذا روح رديء يبغتك من قِبَل الرب، فليأمرنا سيدنا أن نبحث له عن رجلٍ يُحسن الضرب على العود، ويكون إذا كان عليك الروح الرديء من قِبَل الله أنه يضرب بيده فتبتهج. فقال شاؤل: ابحثوا لي عن رجلٍ يُحسن الضرب وأتوا به إليَّ. فانبرى واحد من الغلمان وقال: هو ذا رأيت ابنًا ليسِّي الذي من بيت لحم، يُحسن الضرب على العود، وهو جبارٌ ذو بأسٍ وفصيح وجميل والرب معه. فأرسل شاؤل رسلًا إلى يسِّي، إلى بيت لحم، ليأتوا له بداود، فأحبَّه وجعله حامل سلاح له، وكان يعزف أمامه كلما هاجمته نوبة من الكآبة.

بعد ذلك جمع الفلسطينيون قواتهم وتوجَّهوا لقتال بني إسرائيل، وعلى رأسهم البطل الجبار جوليات، فسار إليهم شاؤل واقترب الجمعان من بعضهما واصطفَّ الجنود للقتال، وكان الفلسطينيون وقوفًا على تلةٍ من هنا وإسرائيل وقوفًا على تلةٍ من هناك والوادي بينهم، فبرز جوليات من بين صفوف الفلسطينيين، وكان طوله ستة أذرعٍ وعلى رأسه خوذة من نحاسٍ، لابسًا درعًا حرشفيًّا ثقيلًا لا يقدر فارسٌ على حمله. فنادى وقال: اختاروا منكم رجلًا فينزل إليَّ، فإن قدرتُ عليه وقتلته تصيرون لنا عبيدًا. فلما سمع شاؤل وجميع بني إسرائيل كلام جوليات، ورأوا طوله الفائق والسلاح الذي دجَّج به نفسه ارتاعوا وخافوا جدًّا. وظل جوليات يفعل ذلك كل يومٍ وما من أحدٍ يجرؤ على التصدِّي له.

ثم إن داود دخل على شاؤل وقال له: مَنْ هو هذا الفلسطيني الأغلف[٣] حتى يُعيِّر صفوف الله الحي؟ عبدك يذهب ويحاربه. فقال له شاؤل: أنت غلامٌ وهو رجل حربٍ منذ صباه. فأصرَّ داود على طلبه. فما كان من شاؤل إلا أن ألبس داود خوذته ودرعه وقلَّده سيفه، فمشى داود خطواتٍ ولكنه تعثَّر؛ لأنه لم يكن مُعتادًا على تقلُّد عدَّة الحرب، فنزعها عنه والتمس خمسة حجارة مُلْس من الوادي، وحمل مقلاعه[٤] وعصاه وسار صوب جوليات.

---

[٣] أي: غير المختون.

[٤] المقلاع عبارة عن أداة بدائية لرَمْي الحجارة وقَذْفها إلى مسافاتٍ بعيدة. وهي مؤلفةٌ من حزامٍ عريضٍ مصنوعٍ من جلدٍ رقيقٍ أو قماشٍ تُوضَع في وسطه قطعة الحجر، ويلوح بها صاحبها بحركةٍ دائريةٍ حول رأسه، ثم يفلت طرفها فينطلق الحجر بالقوة النابذة للحركة الدورانية.

فلما رآه الفارس الفلسطيني استخفَّ به لأنه كان فتًى وأشقر جميل المنظر، وقال له: هل أنا كلبٌ حتى إنك تأتي إليَّ بعِصِيٍّ؟ ثم لعن داود بآلهته، فقال له داود: أنت تأتي إليَّ بسيفٍ ورمحٍ وترسٍ، وأنا آتي إليك باسم رب الجنود. ثم مدَّ يده إلى الجِراب وأخذ منه حجرًا ورماه بالمقلاع، وضرب الفلسطيني في جبهته فسقط على وجهه إلى الأرض، فأسرع داود إليه واستلَّ منه سيفه وقطع رأسه. فلما رأى الفلسطينيون أن جبَّارهم قد مات هربوا، فقام رجال إسرائيل ولحقوا بهم ونهبوا محلتهم. وعندما عاد داود إلى شاؤل جعله قائدًا على إحدى كتائبه، وأحبه قادة داود وجميع الشعب، وصار صديقًا حميمًا ليوناثان بن شاؤل. ثم إن شاؤل زوَّجه ابنته المدعوَّة ميكال مكافأةً له. ومنذ ذلك الوقت أخذ نَجْم شاؤل بالأفول ونَجْم داود بالصعود (صموئيل الأول: ١٦–١٩).

الملك داود

تختصر الرواية القرآنية قصَّة انتقال المُلك من شاؤل إلى داود عندما تقول: ﴿... وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ...﴾ (٢ البقرة: ٢٥١). ولكن انتقال الملك إلى داود في الرواية التوراتية بعد أن قتل الفارس الفلسطيني جوليات في المعركة الشهيرة التي وصفناها سابقًا له قصةٌ طويلةٌ تمتد عبر ١٤ إصحاحًا من سِفْر صموئيل الأول، لا نستطيع هنا إلا أن نأتيَ على أهم مفاصلها.

فبعد أن اتَّخذ الرب قراره بنزع الملك من شاؤل، وأبلغه هذا القرار على لسان صموئيل الذي قال له: «لأنك رفضت كلام الرب فإن الرب يرفضك من المُلك.» ناح صموئيل على شاؤل أيامًا كثيرةً، فقال الرب لصموئيل:

«حتى متى تنوح على شاؤل وأنا قد رفضته؟ املأ قرنك دهنًا[١] وتعال أرسلك إلى بيت يسِّي البيتلحمي لأني قد رأيت في بيته ملكًا ... ففعل صموئيل كما تكلَّم الرب وجاء إلى بيت لحم، فارتعد شيوخ المدينة عند استقباله وقالوا: أسلام مجيئك؟ قال: سلام، وقد جئت لأذبح للرب، تقدَّسوا وتعالوا معي إلى الذبيحة. وقدَّس يسِّي وبنيه ودعاهم إلى الذبيحة ... وعَبَر يسِّي بنيه السبعة أمام صموئيل. فقال صموئيل ليسِّي: الرب لم يختر هؤلاء. وقال صموئيل ليسِّي: هل كملوا الغلمان؟ فقال: بقي الصغير، وهو ذا يرعى الغنم. فقال صموئيل: أرسل وائت به. فأرسل وأتى به، وكان أشقر مع حلاوة العينَين وحسن المنظر، فقال الرب: قُم امسحه لأنه هو. فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته، وحلَّ روح الرب على داود منذ ذلك اليوم فصاعدًا.» (صموئيل الأول ١٦: ١–١٣).

---

[١] الدهن: هو زيت المسحة المقدس.

بعد ذلك جاء رسل شاؤل وأخذوا إليه داود ليعزف له على العود، على ما رأينا في قصة شاؤل سابقًا، فأحبَّه شاؤل وجعله حامل سلاحٍ له. وبعد قتله لجوليات أعطاه شاؤل قيادة إحدى كتائبه وزوَّجه من ابنته، فارتفع شأن داود في الجيش وبين الناس؛ فقد انبرى لتوِّه يشن غزواتٍ خاطفةً على الفلسطينيين ويقتل منهم المئات، ولكن قلب شاؤل تغيَّر نحوه، وخاف من تزايد محبة الناس له فكرهه. وعندما كانت تأتيه نوبات الاكتئاب كان يسعى لقتله، فهرب داود من وجه شاؤل واختبأ.

وفي هذه الأثناء تجمَّع حول داود جماعةٌ من الأفَّاقين والمغامرين ومن أعداء شاؤل، وصاروا يرتحلون معه حيثما ذهب. وعندما يئس من وجود ملاذٍ آمن له في مناطق حكم شاؤل، لجأ وجماعته إلى ملك الفلسطينيين في مدينة جت، ووضع نفسه وجماعته في خدمته متحوِّلًا إلى زعيمِ مُرْتَزقةٍ تعيث فسادًا في أراضي خصوم ملك جت، ولكن الفلسطينيين لم يكونوا يسمحون له بالذهاب معهم لقتال بني إسرائيل، وذلك خوفًا من انقلابه عليهم وعودته إلى صفوف بني جلدته (صموئيل الأول: ٧–٣٠).

في آخر معركة له مع الفلسطينيين هُزِمَ شاؤل هزيمةً منكرةً وأُصِيب بجرحٍ بليغٍ، وعلى حدِّ وصف النص التوراتي: «اشتدت الحرب على شاؤل فأصابه الرماة رجال القِسِّي فانجرح جدًّا، فقال لحامل سلاحه: استلَّ سيفك واطعني به لئلا يأتي هؤلاء الغلف ويقبحوني. فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جدًّا، فأخذ شاؤل السيف وسقط عليه. ولما رأى حامل سلاحه أنه مات شاؤل، سقط هو على سيفه ومات معه» (صموئيل الأول ٣١: ١–١٣). ومن المفترض لدى المؤرخين أن شاؤل قد حكم من عام ١٠٢٠ إلى عام ١٠٠٠ق.م.

عندما سمع داود بمقتل شاؤل رثاه بقصيدةٍ طويلةٍ وحزن عليه، ولكن شعوره بالأمان دفعه إلى العودة إلى موطنه، فقام وذهب إلى مدينة حبرون وأقام فيها. فجاء رجال سبط يهوذا ومسحوا هناك داود ملكًا عليهم، ولكن أبينير رئيس جيش شاؤل لم يعترف بداود وإنما بايع بالملك ابن شاؤل المدعو إشبوشت، وتبعه في ذلك جميع القبائل الإسرائيلية الشمالية. وكانت حرب طويلة بين بيت داود وبيت شاؤل، وكان بيت داود يتقوَّى وبيت شاؤل يضعف. وبعد سنتين دخل اثنان بيت إشبوشت على غفلةٍ وقتلوه وهو نائمٌ في سريره وقطعوا رأسه وجاءوا به إلى داود، ولكن داود أمر الغلمان فقتلوهما، وأما رأس إشبوشت فأخذوه ودفنوه. فجاء جميع أسباط إسرائيل إلى حبرون ومسحوا داود ملكًا عليهم (صموئيل الثاني: ١–٥).

كان داود ابن ثلاثين سنة حين مَلَكَ، ومَلَكَ أربعين سنة. ومن المفترض أن مدة حكمه قد امتدَّت من عام ١٠٠٠ إلى عام ٩٦١ق.م.[٢] كان أول عملٍ لداود بعد أن صار رأسًا للمملكة هو الاستيلاء على مدينة أورشليم التي كانت حتى ذلك الوقت بيد الكنعانيين، وجعلها عاصمة له بعد حبرون. ومن أورشليم أخذ يشنُّ حملاته العسكرية التوسعية حتى سيطر على كامل مناطق شرقي الأردن والجنوب السوري وضمها إلى مملكته.[٣] وعندما أراحه الله من أعدائه، أرسل إليه حيرام، ملك مدينة صور الفينيقية على الساحل السوري، خشب أرز وبنَّائين فينيقيين، فبنوا قَصرًا لداود. وهكذا بدأ داود يعيش حياة الملوك المترفة، وتسرَّى بنساء من أورشليم وَلدْنَ له بنين وبنات. وهذه الأخبار تغطيها الإصحاحات العشرة الأولى من سِفْر صموئيل الثاني.

في إحدى الليالي كان داود يتمشَّى على سطح بيته، فرأى من على السطح امرأة تستحمُّ في بيتها، فاسترق النظر إليها دون أن تشعر به. كانت المرأة جميلةَ المنظر جدًّا، فأرسل داود وسأل عنها، فقيل له بأنها بتشبع زوجة أوريَّا الحثي الجندي المخلص في جيش داود. ولما كان أوريَّا غائبًا في إحدى حملات الجيش، فقد أرسل داود رسلًا وأخذها فدخلت إليه واضطجعت معه ثم رجعت إلى بيتها. وبعد مدةٍ أرسلت المرأة إلى داود لتخبره بأنها حُبلى، فأرسل داود إلى قائد جيشه يوآب يقول: أَرْسِل إليَّ أوريا الحثي. وكان الجيش يُحاصر مدينة ربة عمون في شرقي الأردن، فأتى أوريَّا إلى داود، فسأله داود عن سلامة قائده يوآب وسلامة الجيش، ثم قال له أن يذهب إلى بيته ويغتسل ويرتاح، فخرج أوريا من عند الملك، وبدلًا من أن يذهب إلى بيته نام على باب بيت الملك مع الحرس، وفي الصباح سأله داود عن السبب في عدم ذهابه إلى البيت، فقال له: إن إسرائيل ويهوذا والتابوت معهم ساكنون في الخيام حول مدينة الأعداء، فكيف آتي إلى بيتي وآكل وأشرب وأضطجع مع زوجتي؟ فأطلقه داود وأرسل بيده كتابًا إلى قائد الجيش يوآب يقول فيه: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيُضْرَب ويموت. ففعل يوآب ذلك ومات أوريا، فلما

[٢] هذه السنوات لحكم ملوك إسرائيل الأوائل يفترضها المؤرخون من خلال تقصِّيهم للرواية التوراتية، ولكن لا يوجد لدينا أي شاهد تاريخي أو آثاري على وجودهم.

[٣] لا يوجد أي برهان تاريخي على قيام هذه المملكة الواسعة في القرن العاشر قبل الميلاد، كما أن الدلائل الأركيولوجية لا تثبت قيامها، والملك داود غير موثَّقٍ خارج النصوص المقدسة.

سمعت بتشبع امرأة أوريا أنه مات رجلها ندبته، وعندما انتهت أيام حزنها أرسل داود وضمَّها إلى بيته وصارت له امرأة.

فأرسل الرب النبي ناثان إلى داود، فجاء إليه وقال:

«كان رجلان في مدينةٍ واحدةٍ منهما غني والآخر فقير، وكان للغني غنمٌ وبقرٌ كثيرة جدًّا، وأما الفقير فلم يكن له إلا نعجةٌ واحدة صغيرة قد اقتناها وكبرت معه ومع بنيه جميعًا، تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام في حضنه، وكانت له كابنةٍ. فجاء ضيفٌ إلى الرجل الغني، فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ويُهيئ للضيف الذي جاء إليه، فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيَّأ للرجل الذي جاء إليه. فحمي غضب داود على الرجل جدًّا وقال لناثان: حي هو الرب، إنه يُقْتَل الفاعل ذلك، ويرد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر ولم يُشفق. فقال ناثان لداود: أنت هو الرجل. هكذا قال الرب إله إسرائيل: أنا مسحتك ملكًا على إسرائيل وأنقذتك من يد شاؤل ... وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا. وإن كان ذلك قليلًا كنت أزيد لك كذا وكذا. لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه؟ قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة، وإياه قتلت بسيف بني عمون ... فقال داود لناثان: قد أخطأتُ إلى الرب. فقال ناثان لداود: الرب أيضًا قد نقل عنك خطيئتك، لا تموت، غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون، فالابن المولود لك يموت» (صموئيل الثاني ١٢: ١–١٥).

الرواية القرآنية: لم يذكر القرآن من أخبار داود إلا النزر اليسير، ولكنه توقَّف عند قصة داود وزوجة أوريا الحثي، وقدَّمها بطريقةٍ شديدة الإيجاز والاختصار، وذلك من خلال قضية بسَّطها أمامه رجلان احتكما إليه فيها:

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ[٤] إِنَّهُ أَوَّابٌ[٥] * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ[٦] * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ[٧]﴾.

[٤] أي: ذو القوة.

[٥] كثير الإنابة إلى الله.

[٦] تسبح لله الجبال معه، فتُردِّد الطير رَجْع ذلك التسبيح.

[٧] الكلام المبين.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ[٨] إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ[٩]* إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ[١٠] قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ[١١] بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ[١٢] وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا[١٣] وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ[١٤]* قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ[١٥] لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ[١٦] وَظَنَّ[١٧] دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ[١٨] فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ[١٩]* فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٣٨ ص: ١٧–٢٦).

إن الرجلين اللذين دخلا على داود متجاوزين الحرس والأسوار هما ملاكان أرسلهما الله لتنبيه داود إلى خطيئته من خلال روايتهما للقضية التي فيها يختلفان، وهي القضية التي رواها النبي ناثان للغرض نفسه، وعندما حكم داود للفريق المظلوم أدرك هوية الرجلين وانتبه إلى أنه عمل الشيء نفسه عندما أخذ زوجة رجلٍ لا يملك إلا زوجةً واحدة، في الوقت الذي يمتلك هو أكثر من زوجة وعددًا من السراري. وعرف أن الله قد امتحنه بمحبة تلك المرأة، فاستغفر لربه وخرَّ راكعًا مُعلنًا توبته وندمه.

[٨] أي: الخصوم، والمقصود هنا اثنان.

[٩] ارتقوا سور المحراب.

[١٠] لأنه لا يعرفهم ولأنهم دخلوا دون استئذان.

[١١] أي: نحن خصمان.

[١٢] لا تظلم.

[١٣] اجعلها تحت كفالتي أو ملِّكنيها.

[١٤] أي: غلبني في الجدال.

[١٥] أي: الشركاء.

[١٦] أي: وهؤلاء قليلون.

[١٧] أي: علم وأيقن.

[١٨] أي: امتحناه وجربناه.

[١٩] رجع بالتوبة إلى الله.

ونلاحظ أن الرواية القرآنية لا تتعرض لمعاقبة داود في موت ابنه البريء؛ لأن الله عز وجل قال في كتابه العزيز: ﴿... وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ...﴾ (٦ الأنعام: ١٦٤). أي إن النفوس تُجازَى بأعمالها ولا يحمل أحدٌ خطيئة آخر. بينما يضع المحرر التوراتي على لسان إله إسرائيل قوله: «أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع» (الخروج ٢٠: ٥).

ولدينا في القرآن خبرٌ ثالثٌ عن داود في سورة الأنبياء:

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ[٢٠] إِذْ نَفَشَتْ[٢١] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ[٢٢] وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ...﴾ (٢١ الأنبياء: ٧٨–٧٩). وهذا الخبر غير وارد في التوراة، وليس هناك من اتفاقٍ بين المفسرين بخصوصه.

فيما عدا هذه الأخبار الثلاثة، لا يُوجَد في القرآن سوى إشاراتٍ عابرةٍ إلى كونه نبيًّا، وإلى الكتاب الذي أُنْزِلَ عليه وهو الزبور:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ...﴾ (٥ المائدة: ٧٨).

﴿... وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (٤ النساء: ١٦٣).

﴿... وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (١٧ الإسراء: ٥٥).

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (٢١ الأنبياء: ١٠٥).

والزبور الوارد ذكره في هذه الآيات هو كتاب المزامير في التوراة، وهو عبارةٌ عن أناشيد وصلواتٍ دينية كانت تُرَتَّل في الهيكل بمصاحبة الآلات الموسيقية. وبلغ عددها في سِفْر المزامير مائة وخمسين مزمورًا، ومعظمها يُعْزَى إنشاده إلى داود. وهذا نموذج منها:

«لإمام المغنين. مزمور لداود عندما جاء إليه ناثان النبي بعدما دخل إلى بتشبع.

ارحمني يا الله حسب رحمتك، حسب كثرة رأفتك امحُ معاصيَّ، اغسلني كثيرًا من إثمي ومن خطيتي طهِّرني؛ لأني عارفٌ بمعاصيَّ وخطيتي أمامي دومًا. إليك وحدك أخطأت،

---

[٢٠] الحرث هو الزرع، والمقصود هنا كرمٌ مزروع.

[٢١] أي: رعته ليلًا بلا راعٍ.

[٢٢] أفهمناه الحكم في القضية.

والشر قدام عينيك صنعت؛ لكي تتبرر في أقوالك وتزكو في قضائك. ها أنا ذا بالإثم صُوِّرْت وبالخطيئة حملت بي أمي. ها قد سُررتَ بالحق في الباطن ففي السريرة تُعرِّفني حكمة، طهرني بالزوفا فأطهر، اغسلني فأبيض أكثر من الثلج، أسمِعْني سرورًا وفرحًا فتبتهج عظامٌ سحقتَها، استر وجهك عن خطاياي وامحُ كل آثامي، قلبًا نقيًّا اخلق فيَّ يا الله، وروحًا مستقيمًا جدِّد في داخلي ...» (المزمور: ٥١).

الملك سليمان

الرواية التوراتية: تُوفِّيَ الملك داود بعد أن حكم مدة أربعين سنة أمضاها في الحروب وبناء الدولة الجديدة، وخلفه على العرش سليمان الابن الثاني لبتشبع زوجة أوريا الحثي الذي أنجبته لداود بعد وفاة ابنهما الأول، الذي حكم عليه الرب بالموت عقابًا على خطيئة داود. ومن المفترض لدى المؤرخين أن سليمان قد حكم بين عام ٩٦١ وعام ٩٣١ق.م.[١] ويمكن اختصار أخبار سليمان الواردة في سِفْر الملوك الأول: ١–١١، على الوجه التالي:

ورث سليمان عن أبيه دولة مستقرة لا يطمع فيها أحدٌ من الأعداء الذين كسر شوكتَهم الملكُ المحارب داود، فتفرَّغ سليمان لتنظيم شئون الدولة، والعلاقات الدبلوماسية، والمشاريع العمرانية؛ فقد عقد معاهدات صداقةٍ وتعاون مع المدن الفينيقية على الساحل السوري، وأرسل إلى حيرام ملك صور طالبًا تزويده بخشب أرز من جبل لبنان، وبنجَّارين وبنَّائين فينيقيين لقاء حنطة وزيت يُرسلها له. فبنى سليمان قصورًا له ولزوجاته وسراريه اللواتي بلغ عددهن ألفًا. كما بنى في أورشليم هيكلًا للرب الذي كان قبل ذلك يُقيم في خيمة، ونقل إليه تابوت العهد. وصاهَرَ سليمان فرعون مصر وأتى بابنته وبنى لها قصرًا خاصًّا بها. وعندما تراءى له الرب وسأله ماذا يعطيه، لم يطلب سليمان من الرب سوى أن يُعطيه فهمًا وعلمًا وحكمة. فقال له الرب: «هو ذا قد أعطيتك قلبًا حكيمًا ومميزًا، حتى إنه لم يكن قبلك ولا يقوم بعدك نظيرٌ. وقد أعطيتك أيضًا ما لم تسأله، غنًى وكرامةً، حتى إنه لا يكون رجل مثلك قبلك ولا يكون رجل مثلك في الملوك كل أيام حياتك.» وفاقت حكمة سليمان

---

[١] لم يرد ذكر سليمان ومملكته في أي وثيقةٍ من وثائق الشرق القديم.

حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر، وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان.

وتعاظم سليمان في الملك، فكان وزن الذهب الذي أتى لسليمان في سنةٍ واحدةٍ ستمائة وستين وزنة من الذهب، وذلك عدا الذي أتاه من ضرائب التجار ومن الولاة الذين عيَّنهم في المقاطعات. وفي بيته المعروف ببيت وعر لبنان، كانت جميع آنية طعام سليمان من الذهب الخالص؛ لأن الفضة لم يكن لها قيمةٌ في أيامه. وقد جعل له سُفنًا في بحر فينيقيا تُبحر مع سفن حيرام ملك صور، وتأتي له من المناطق البعيدة بالذهب والفضة والعاج، فتعاظم سليمان على كل ملوك الأرض في الغنى والحكمة، وكانت كل الأرض ملتمسةً وجه سليمان، يأتي إليه كل واحدٍ بهديته. وقد بلغ من ثراء المملكة في عهده أن الفضة في أورشليم كانت مثل الحجارة، وخشب الأرز مثل خشب الجُمَّيز الذي في السهل لكثرته، وكان لسليمان أربعون ألف مزودٍ لخيل مركباته واثنا عشر ألف فارس (الملوك الأول: ١–٩).

«وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان فأتت لتمتحنه بمسائل؛[٢] فأتت إلى أورشليم بموكبٍ عظيمٍ جدًّا، بجمال حاملة أطيابًا وذهبًا كثيرًا جدًّا وحجارة كريمة، وأتت إلى سليمان وكلَّمته بكل ما كان في قلبها، فأخبرها سليمان بكل كلامها، لم يكن أمرًا مخفيًّا عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان، والبيت الذي بناه، وطعام مائدته، ومجلس عبيده، وموقف خُدَّامه وملابسهم، وسُقاته، ومحرقاته التي كان يُصعدها في بيت الرب، لم يبقَ فيها روحٌ بعدُ. فقالت للملك: صحيح كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك، ولم أصدق الأخبار حتى جئتُ وأبصرَت عيناي، فهو ذا النصف الذي لم أُخْبر به ... وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب، وأطيابًا كثيرة وحجارة كريمة. وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مُشتهاها الذي طلبت، عدا ما أعطاها إيَّاه حسب كرم الملك. فانصرفت وذهبت إلى أراضيها هي وكل عبيدها» (الملوك الأول ١٠: ١–١٣).

«وأحب الملك سليمان نساءً غريبةً كثيرة مع بنت فرعون، مؤابيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات، من الأمم الذين قال الرب عنهم لبني إسرائيل لا تدخلوا إليهم وهم لا يدخلون إليكم؛ لأنهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم ... وكان في زمن شيخوخة سليمان أن نساءه أَمَلْنَ قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملًا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه،

[٢] في عصر سليمان، أي في مطلع القرن العاشر، لم تكن مملكة سبأ المعروفة تاريخيًّا قد نشأت بعدُ.

فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب … فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك، ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها، فإني أمزِّق المملكة عنك تمزيقًا» (الملوك الأول ١: ١–١١).

الرواية القرآنية: لم يُعطِنا القرآن الكريم قصةً مطَّردةً عن أخبار سليمان. وفيما عدا زيارة ملكة سبأ المفصَّل ذكرُها في سورة النمل، لا يوجد لدينا إلا إشارات موجزة ومقتضبة إلى أخباره.

ففيما يتعلق بسفن سليمان التي كانت تمخر البحر مع سفن حيرام وتأتيه بالبضائع من الأقطار البعيدة، لدينا الخبر التالي في سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (٢١ الأنبياء: ٨١). وفي سورة النمل: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ[٣] …﴾ (٣٤ سبأ: ١٢).

وفيما يتعلق بأعمال سليمان المعمارية، نقرأ في سورة سبأ وصفًا ينطبق على ما قام به سليمان من أعمالٍ تزيينية في الهيكل الذي بناه للرب: ﴿… وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ … يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ[٤] وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (٣٤ سبأ: ١٢–١٣). وقد ورد بالتفصيل في الإصحاح السابع من سِفْر الملوك الأول وصفٌ لزينة الهيكل وما فيه من تماثيل كروبيم وأسود وثيران، ومن قدورٍ وجفان وآنية طقسيةٍ أخرى، فَلْيراجَع في موضعه من الكتاب.

وعن حكمة سليمان نقرأ في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (٢٧ النمل: ١٥–١٦).

وعن جياد سليمان الكثيرة التي قال المحرر التوراتي إنها بلغت أربعين ألف جواد تأكل من أربعين ألف مزود، نقرأ في سورة ص عن هذه الجياد وولع سليمان بها: ﴿إِذْ عُرِضَ

---

[٣] عين القطر: أي النحاس الذائب.

[٤] الجفان هي الطسوس، والجواب هي الأحواض العظيمة.

عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ[٥] الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ[٦] عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ[٧]* رُدُّوهَا عَلَيَّ[٨] فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ[٩] وَالْأَعْنَاقِ﴾ (٣٨ ص: ٣١–٣٣).

وفي سورة البقرة يُبرئ الله تعالى سليمانَ من الشرك وعبادة الأوثان، مما ورد في سفر الملك الأول: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ...﴾ (٢ البقرة: ١٠١–١٠٢).

وهاروت وماروت، على ما يقول المفسرون، هما ملاكان أرسلهما الله لامتحان البشر، فهبطا في مدينة بابل التي اشتهرت بالسحر والتنجيم، وراحا يعلِّمان السحر للناس، ولكن الله أخذ عليهم ميثاقًا ألَّا يُعلِّما أحدًا قبل أن يقولا له نحن فتنة فلا تكفر، وبيَّنا له طريق الخير والشر.

القصة الوحيدة التي عُولجت بتفصيل هي قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان وما جرى بينهما. وهذا نصها الكامل:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[١٠] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ

[٥] الصافنات هي صفة للجياد السريعة.

[٦] حب الخير: أي حب الخيل.

[٧] توارت بالحجاب: أي غابت عن البصر.

[٨] أي: أعيدوها لي.

[٩] السوق هي السيقان.

[١٠] أي: ألهمني.

لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[11]* فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ[12] فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[13] فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ[14] سُلَيْمَانَ قَالَ[15] أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ * قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكِّرُوا[16] لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ

---

[11] أي: ببرهان واضح على سبب غيابه.

[12] أي: حضر الهدهد ووقف غير بعيد.

[13] أي: الشيء المستور.

[14] أي: جاء الرسول الذي بعثت به الملكة إلى سليمان.

[15] والقول هنا لسليمان.

[16] أي: غيِّروا وموِّهوا عرشها لنرى إن كانت تعرفه.

مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ[١٧] إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ[١٨] فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً[١٩] وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ[٢٠] مِنْ قَوَارِيرَ[٢١] قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧ النمل: ١٧–٤٤).

(١) سليمان والجن

إن سلسلة قصص الملك سليمان في سِفْر الملوك الأول لا تحتوي على ما أشار إليه القرآن الكريم من سُلطته على عالم الجن، وعلى عالم الحيوان ومعرفته لألسنتها، ولكن الأدبيات اليهودية خارج التوراة حافلةٌ بمثل هذه الأخبار.

ففي الفلكلور الشعبي اليهودي هناك حكايات كثيرة عن السلطان الذي وهبه الله لسليمان على عالم الجن والعفاريت وطيور السماء، وكل ما يدبُّ على الأرض. وهناك ملاك مسخَّر له يحمل بيده سوطًا ناريًّا يجلِد كل من تُسوِّل له نفسه عصيان أمر سليمان، فيحوله إلى رماد. وقد بنى له الجن هيكل الرب في أورشليم، وقصورًا وأبنية إدارية ومرافق عامة كثيرة، وحفروا له في أرضه نهرًا، وبعضهم كان يغوص في البحر لاستخراج اللؤلؤ والمرجان، والبعض الآخر يحفر في المناجم لاستخراج الياقوت والزمرُّد وغيرها من الأحجار الكريمة.[٢٢]

ويقول ترجوم sheni في التعليق على ما ورد في سِفْر الملوك الأول: «وتكلَّم سليمان بثلاثة آلاف مثل، وكانت نشائده ألفًا وخمسًا، وتكلم عن الأشجار من الأرز الذي في لبنان إلى الزوفا النابت على الحائط، وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن دبيب السمك» (٤: ٣٣–٣٤). بأن سليمان كان مُتسلطًا على كل الحيوان الذي يدبُّ على الأرض، وعلى طير السماء، وكان

[١٧] ومنعها سليمان عما كان تعبد.

[١٨] أي: القصر أو ساحته.

[١٩] أي: مجمع ماء.

[٢٠] مستوٍ.

[٢١] أي: زجاج.

[٢٢] K. Sanadiki, Legends and Narratives of Islam, Chicago, 2000, p. 206. citing: L. Ginzberg, Legends of the Jews, IV, pp. 140–145.

يفهم ألسنتها جميعًا، حتى إنه كان يتحدث مع الأشجار، كما كان مُتسلطًا على الجن وعلى أرواح الظلام.[٢٣]

ووصلنا نصٌّ في أكثر من نسخةٍ معروف بعنوان ميثاق سليمان Solomon's-Testament، مكتوب باليونانية الهيلينستية وهي لغة الأناجيل، ويرجع تاريخه إلى الفترة بين القرن الثاني والقرن الرابع الميلاديَّين، والنص يهوديٌّ من حيث الأصل، ولكنه خضع للمسة تحريريةٍ مسيحيةٍ تتحدث عن ظهور يسوع المسيح في المستقبل، وهو مكرسٌ لوصف سلطان سليمان على عالم الجن والعفاريت من خلال خاتم سحريٍّ يضعه في إصبعه، وتسخيرها في أعماله العمرانية، وهو يذكر بالتفصيل أنواع هؤلاء الجن ووظائفهم ومهاراتهم.[٢٤]

وفي ميثاق سليمان، لدينا قصةٌ عن العفاريت الذين يطيرون نحو قبة السماء من أجل استراق السمع ومعرفة الأوامر التي يُصدرها الله إلى الملائكة، وبذلك يتنبئون بالحوادث المقبلة:

فقد احتكم رجلٌ عجوزٌ إلى سليمان شاكيًا ابنه الوحيد الذي يُعامله معاملةً سيئةً ويضربه ويهدِّده بالموت، فاستدعى سليمان الشاب وسأله عن حقيقة الأمر، فأنكر التهمة وطلب إنصافه من أبيه الذي تجنَّى عليه، ولكن الأب أصرَّ على طلب الموت لابنه. وكان العفريت المدعو أورنياس حاضرًا فضحك. ولما سأله سليمان غاضبًا عن سبب ضحكه، قال له: إن الوالد سوف يموت بعد ثلاثة أيام موتًا طبيعيًّا. فأمر سليمان الأب والابن أن يعودا إليه بعد ثلاثة أيام. وعندما انصرفا سأل سليمان العفريت عن الوسيلة التي تُعينه هو وأقرانه على كشف حجب المستقبل. فقال له: نحن نطير نحو قبة السماء ونتجوَّل بين النجوم، فنسمع الأوامر التي يُصدرها الله إلى الملائكة بخصوص حيوات البشر، ولكن بما أننا لا نملك قدرة الملائكة على الطيران الطويل، فإننا نتعب لعدم وجود شيءٍ نستند إليه أو نستريح عنده، فيقع بعضنا من الأعالي ويهوي مثل وميض البرق، فيظن الناظر إلينا أننا نجومٌ تتساقَط من الأعالي.[٢٥]

---

[٢٣] J. H. Charlesworth: The Old testament Pseuepigrapha, Doubleday, New york, 1983, Vol. 2, p. 947.

[٢٤] المرجع نفسه، ص٩٣٥ وما بعدها.

[٢٥] المرجع نفسه، ص٩٨٢–٩٨٣.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الشياطين التي تطير كي تسترق السمع في السماء، وعن شُهبٍ تنقضُّ من السماء لإتلافهم:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ...﴾ (٦٧ الملك: ٥).

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ (٣٧ الصافات: ٦–٨).

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥ الحجر: ١٦–١٨).

ولدينا في الرواية القرآنية أيضًا قصةٌ عن سليمان كثيرة الغموض، ولكن يبدو أن لها صلةً بعلاقة سليمان بالجن، نقرأ في سورة ص هذه التتمة للمقتبس الذي أوردناه أعلاه:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٣٨ ص: ٣٤–٣٨).

لا يعطينا النص أي مفتاحٍ لفهم هذه القصة الشديدة الاختزال، ولكننا نجد في الأدبيات اليهودية خارج التوراة ما يُلقي الضوء عليها. فقد ورد في إحدى الملاحم اليهودية أن العفريت المدعو أسموديوس تحدَّى الملك سليمان لأن ينزع خاتم القوة من إصبعه، ولما فعل ذلك ضرب أسموديوس بجناحه سليمان فرماه إلى مسافة أربعمائة فرسخ في الفلاة، ثم اتخذ شبهه وجلس على عرشه. أما سليمان فقد راح يهيم على وجهه شريدًا يستجدي طعامه. وكلما كان يقول للناس بأنه الملك كان يلقى الهزء والسخرية منهم، واعتبر مجنونًا وفاقدًا للرشد. أخيرًا وصل إلى شاطئ البحر واستجدى من أحد الصيادين سمكةً، وعندما شقَّها وجد خاتمه في بطنها فوضعه في إصبعه وعادت إليه قوته، فعاد إلى عاصمته واستردَّ مُلكه.[٢٦]

وقد ورد في تفسير ابن كثير ما يأتي:

يقول تعالى: «وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ» أي اختبرناه بأن سلبناه المُلك. «وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا»: قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: يعني شيطانًا. «ثُمَّ أَنَابَ»:

---

[٢٦] K. Sanadiki, legends and Narrative of Islam, kazi publications, Chicago, 2000, p. 223. citing: louis Ginzberg, legends of the jews, IV, p. 169.

أي رجع إلى مُلكه وسلطانه وأُبَّهته. وقيل: إن اسم ذلك الشيطان صخر، وقيل أيضًا: صرد، وحقيق، وآصف.

ومن القصص التي يوردها ابن كثيرٍ عن بقية المفسِّرين والأخباريِّين، أنَّ سليمان قال لشيطان اسمه آصف: كيف تفتنون الناس؟ فقال: أرني خاتمك أخبرك. فلما أعطاه إيَّاه نبذه آصف في البحر، فساح سليمان وذهب مُلكه، وقعد آصف على كرسيه. فكان سليمان يستطعم ويقول: أتعرفوني؟ أطعموني أنا سليمان. فيكذِّبونه، حتى أعطته امرأةٌ يومًا سمكة ففتح بطنها فوجد خاتمه، فرجع إليه ملكه وفرَّ آصف فدخل البحر.

ويعلق ابن كثير على هذه القصة وغيرها قائلًا: وأرى هذه كلها من الإسرائيليات.

على أن مَنْ رفض مثل هذه التفسيرات لم يأتِنا بما هو أقرب إلى مقصد الآية الكريمة. يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير أن الفتنة المذكورة في الآية هي فتنةٌ واختبار في الجسد. فقد ابتلي الله سليمان بمرضٍ شديدٍ أصابه بالهُزال، حتى صار لشدة المرض كأنه جسدٌ مُلقًى على كرسي، ثم أناب بعد ذلك أي رجع إلى حالة الصحة.

وهذا التفسير للرازي ينطبق على الآية الكريمة لو أنها قالت: «وألقينا على سريره جسدًا»؛ لأن المريض لا يجلس على العرش وإنما يأوي إلى السرير. والله أعلم.

أيوب

(١) أيوب في ثقافة الشرق القديم

إن فكرة المُعذَّب الصابر الذي تأتيه البلايا من كل حدبٍ وصوبٍ على الرغم من تقواه وصلاحه، هي فكرةٌ قديمةٌ في الفكر الديني للمنطقة المشرقية؛ فلقد رأى إنسان الشرق القديم في المصائب والبلايا التي تحلُّ على الأفراد عقابًا على الذنوب والخطايا، ولكن الحكماء المشرقيِّين على إيمانهم هذا، قد انشغلوا في تأمل مسألةٍ طرحت نفسها على الفكر الديني والفلسفي في معظم الثقافات، وهي ابتلاء أشخاصٍ صالحين عاشوا حياةً أخلاقيةً سويَّةً، وأقاموا الصلوات وقرَّبوا القرابين لآلهتهم، وأدوا واجباتهم الاجتماعية على أكمل وجه. ولدينا عن مثل هذه التأمُّلات نصَّان من ثقافة الشرق القديم؛ الأول سومري يعود إلى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، والثاني بابلي يعود إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد.

(٢) أيوب السومري

في هذا النص يتحدَّث الكاتب بلسان حال رجلٍ لا نعرفه، كان غنيًّا وحكيمًا وصالحًا، يعيش عيشة رغدٍ وصفاءٍ بين أهله وأصدقائه، وكان موظَّفًا رفيع المقام في البلاط الملكي. وفيما كان يظن أن هذه الحال دائمةٌ له، أخذت المصائب بالتكاثر عليه وانتابَتْه الأمراض والأسقام دون مقدماتٍ وهو في عزِّ الشباب. كان أمامه إما التمرُّد على السماء وازدراء العدالة الإلهية، أو التسليم بالقضاء الإلهي ومتابعة التضرُّع والصلاة؛ لأن مقاصدَ الآلهة، على ما يردِّده الحكماء المشرقيون، خافيةٌ عن أفهام البشر. وأخيرًا استجاب الإله لهذا الصالح المتألم وكشفَ عنه الضُّر، وأحال عذاباته إلى فرحٍ وسرورٍ، وإليكم منتخبات من النص:

ليرفع الإنسانُ على الدوام كلمات التمجيد لإلهه،
ويفضي إليه بصدقٍ عن كل ما يُعاينه.
إنني رجلٌ عارفٌ ومتبصِّر، ولكن الذي يحترمني صار لا يُفلح.
كلماتي الصادقة تحوَّلت إلى أكاذيب،
ورجل الغش والخداع غلبني، وأنا مُكرهٌ على خدمته.
إن من لا يوقِّرني قد حطَّ من قَدْري أمامك يا إلهي،
وها أنت تغمُرني بالعذاب الدائم المتجدِّد.
أدخلُ إلى بيتي مُثْقلَ الروح،
وأسير في الشوارع مغمومَ الفؤاد.
مليكي، راعيَّ الصالح، انقلب ضدي ونظر إليَّ بعين العداوة،
أطلق ضدي قُوى الشر مع أني لست عدوًّا له.
لم أعُد أسمع كلمة صدقٍ من رفاقي،
وصَحْبي يواجهون صدقي بالأكاذيب،
ورجل الغش والخداع يحيك المؤامرات ضدِّي،
وأنت يا إلهي لا تردعه ولا تُحبط مسعاه.
أنا الحكيم، لماذا أُقرَن مع الأحداث الجهلة؟
وأنا المستبصر العارف، لماذا أُحسب بين الحمقى؟
الطعام متوفرٌ للجميع، ولكن طعامي هو الجوع،
وفي اليوم الذي قُسِّمت فيه الأرزاق، كان نصيبي العذاب.
يا إلهي إني أقف في حضرتك،
أريد أن أتحدَّث إليك وكلماتي كلها أنينٌ وآهات،
أريد أن أشكوَ لك حالي، وأتحسَّر على مرارة طريقي.
عسى أمِّي لا تكفُّ عن النواح أمامك،
عسى أختي لا تكفُّ عن شكوى خيبتي أمامك،
عسى زوجتي لا تكفُّ عن رثاء عذاباتي،
وليترنم المغنون بقدري البائس التعس.
يا إلهي إن ضوء النهار يغمر الأرض، ولكن نهاري أسود.
الدموع والنواح والكرب والغم تسكن فيَّ.

يغمرني العذاب وما من شيءٍ أفعله سوى البكاء.
عفريت القدر يُسدِّد قبضته إليَّ ويحرمني من نَفَسِ الحياة.
وعفريت المرض الخبيث يرتع في جسدي.
يا إلهي أنت أبي الذي أنجبني،
فإلى متى تتجاهلني تائهًا بلا هدايةٍ؟
لقد نطق حكماء الأيام الغابرة بالحق عندما قالوا:
لم يُولَد لامرأةٍ طفل بلا خطيئة،
ومنذ القدم لم يوجد على الأرض امرُؤٌ بلا ذنوب.

بعد مقطعٍ كثير التشوُّه والفجوات، نجد النص وقد انتقل إلى الحديث عن استجابة الإله لصلوات المُعذَّب الصالح:

ذلك الرجل، قد سمع إلهُه بكاءه ونحيبه،
واسترضت شكاوى ذلك الشاب ومناجاته قلب إلهه،
والكلمات الصافية والصادقة التي نطق بها قَبِلها منه،
سَرَّت فؤاده فكفَّ عنه يد الشر،
أَبْعَدَ عنه عفريت المرض الذي أحاط به ونشر جناحه عليه،
حوَّل عذابات الشاب إلى فرحٍ،
وأقام عليه أرواحًا طيبةً تحرسه وتحميه،
فراح الرجل على الدوام يُمجِّد إلهه.[١]

(٣) أيوب البابلي

يُعالج نص أيوب البابلي فكرة المعذَّب الصابر بطريقةٍ مشابهةٍ، وهو معروفٌ بعنوان «لأمتدحنَّ إله الحكمة». ونظرًا لطول النص فسوف أقتطف منه أهم سطوره:

لأمتدحنَّ إله الحكمة، الرب المتفكِّر المتدبر.
مردوخ، إله الحكمة، المتفكِّر المتدبِّر.

---

[١] S. N. Kramer, Sumerian Wisdom texts. in: J. Pritchard, Ancient Near Estern Texts, Princeton, New Jersey, 1969, p. 589.

الذي يمسك بالليل ويطلق النهار.
الذي يلفُّه الغضب مثل ريح العاصفة،
والذي يتسع صدره رحمةً، وقلبه مغفرةً.
لقد تخلَّى عنِّي إلهي واختفى
ولقد هجرتني إلهتي وابتعدت عنِّي،
وغادرني الروح الحارس الذي يُرافقني.
كرامتي أُهِينت، ونظراتي الرجولية وَهَنَتْ،
وعندما أهجع إلى النوم تُهاجمني الرُّؤى المفزعة.
الملك، شمس الناس وابن الآلهة
ساخطٌ عليَّ وقلبه لا يمكن تهدئته نحوي.
رأسي المرفوع الفخور طأطأ نحو الأرض،
وقلبي الجَسور قد أوهنه الخوف.
بعد أن كنت سيدًا مُحترمًا غدوتُ عبدًا ذليلًا،
وصرت بين صحبي الكُثُر هزءًا وسخريةً.
أصدقائي صاروا غرباء عنِّي،
وصحبي تحولوا إلى أشرار وشياطين،
وفي غضبهم أنكروني وتبرَّءوا مني.
لا أحد يقف في صفِّي ولا أحد يفهمني،
وممتلكاتي جرى توزيعها على الدَّهْماء والأغراب.
في النهار تُسْمَع آهاتي وفي الليل يُسْمَع نُواحي.
لقد صرت مثل من لم يقدم لإلهه قُربانًا،
وصرت مثل من لم يشكر آلهته عند كل طعامٍ،
مثل من لم يعرف الركوع ولم يعرف السجود قط،
ومثل من لم يعرف فمه الضراعة والصلاة،
ومثل من أكل طعامه ولم يذكر اسم إلهه.
مع أني كنت حريصًا على الصلاة في كل وقتٍ،
وكان يوم الصلاة عندي مسرةً للفؤاد.
ولكن ما يبدو للإنسان حسنًا قد يكون عند إلهه مرذولًا،

وهل يعرف أحدٌ مشيئة الآلهة في السماء؟
ها هي الأمراض المُوجعة تسكن جسدي،
والرياح الشريرة تهبُّ من الآفاق نحوي.
غلب الضعف جسدي وهاجمت الأوجاع مفاصلي،
اقترب منِّي الموت وبان على مُحَيَّاي،
وها جنازتي قد أُعِدَّت والقبر يُناديني،
وقبل أن تُفارقني الروح توقَّف البكاء عليَّ.

بعد أن يصل يأس الرجل ذروته، تأتيه بشائر الخلاص من خلال أحلامٍ يراها. ثم يتدخَّل الإله مردوخ ليُعيد إليه صحته وممتلكاته وكرامته:

لقد أبعد مردوخ الرياح الشريرة التي تهبُّ من الآفاق،
واجتثَّ جذور الوهن منِّي مثلما تُجْتَثّ الشجرة.
وها أنا ذا أسير في الطرقات حُرًّا من كل مرضٍ وألمٍ،
وكل من ارتكب خطأً في حقِّ مردوخ فليتعلَّم منِّي.
لقد أنهضني مردوخ وأخذ بيدي،
وضرب اليد التي كانت تُؤذيني.
فمَنْ غيرُ مردوخ يستطيع استعادة المحتضر إلى الحياة؟
فما دامت الأرض مبسوطةً والسماء مرتفعة،
وما دامت الأنهار تجري والرياح تهبُّ،
ليمتدحنَّ بنو الإنسان الإله مردوخ.[٢]

(٤) أيوب في التوراة

تعود قصة المُعذَّب الصابر إلى الظهور في كتاب التوراة، وذلك في سِفْرٍ خاصٍّ بها هو سِفْر أيوب. والقصة التوراتية تحتوي على عناصر القصة الرافدينية جميعها، ولكن بتوكيدٍ أكثر شدةً على دور الإله في بلايا ومصائب ذلك المعذَّب، واستخدامه الشيطان وسيلةً له.

---

[٢] R. D. Biggs, AKKadian Didactic and Wisdom Literature. In: James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 1969. pp. 596–600.

فقد كان أيوب رجلًا حكيمًا ومستقيمًا يتَّقي الرب ويحيد عن الشر. وكانت مواشيه سبعة آلاف رأسٍ من الغنم، وثلاثة آلاف جملٍ، وخمسين فدان بقر، وخمسمائة أتان، وخدمه كثيرون جدًّا، فكان أعظم بني المشرق (١: ١–٣). وفي أحد الأيام جاء بنو الله (= الملائكة) ليمثلوا أمام الربِّ، وجاء الشيطان معهم، فسأل الرب الشيطان عمَّا إذا كان ينوي شرًّا لأيوب؛ لأنه ليس مثله رجلٌ صالحٌ وكامل. فأجابه الشيطان: «هل مجَّانًا يتقي أيوب الرب؟ أليس لأنك سيَّجْتَ حوله وباركتَ أعمال يديه فانتشرَتْ مواشيه في الأرض؟ ولكن ابسط يدك ومسَّ كل أملاكه بضرٍّ فإنه يجدِّف في وجهك.» هنا يُداخل الشك نفس الرب في أمر أيوب، ويرغب في معرفة خبيئة نفسه ودواعي صلاحه، فيطلق يد الشيطان في أيوب يفعل به ما يشاء شريطة أن يُبْقِيه على قيد الحياة، ليعرف هل سيكفر أيوب إذا زالت عنه النعمة أم لا (١: ٦–١٢).

وهكذا يُباشر الشيطان عمله. ففي يوم واحد سُرِقَت أبقاره وجماله، وقتل اللصوص عبيده جميعًا، وسقطت نار فأحرقت قطعان غنمه، ثم تهدَّم البيتُ على أولاده فماتوا جميعًا: «فقام أيوب وجزَّ شعر رأسه وخرَّ إلى الأرض وسجد وقال: عريانًا خرجت من بطن أمي وعُريانًا أعود إلى هناك، الرب أعطى والرب أخذ. فليكن اسم الرب مباركًا إلى الأبد. وفي كل هذا لم يُخطئ أيوب ولم ينسب لله جهالةً» (١: ١٢–٢٢).

بعد ذلك يأتي الشيطان ويمثُل أمام الرب ثانية، فيعاتبه الرب على دسيسته؛ لأن أيوب لم يُخطئ ولم يُجدِّف على الرغم مما حلَّ به من مصائب. فيقترح الشيطان استمرار الاختبار، وأن يطال الأذى هذه المرَّة أيوب في جسده وصحته. فأطلق الرب يد الشيطان مرةً أخرى في أيوب. فخرج الشيطان وضرب أيوب بقروحٍ خبيثة انتشرت في كل جسده. فأخذ كسرةً فخار يحتك بها وهو قاعدٌ وسط رماد بيته المحترق، وقال لزوجته: «هل نقبل الخير من الله، والشر لا نقبل؟ وفي كل هذا لم يُخطئ أيوب بشفتيه» (٢: ٤–١٣).

وعندما اشتدت الأوجاع على أيوب، رفع صوته طالبًا الرحمة والعدل: «أبحرٌ أنا أم تنين، حتى جعلت عليَّ حارسًا؟ إن قلت: فراشي يعزِّيني، مضجعي ينزع كربتي، تريعني بالأحلام، وترهبني برؤًى، فاختارَت نفسي الخنق، الموت على عظامي هذه، قد ذبت. لا إلى الأبد أحيا. كفَّ عني لأن أيامي نفخة، ما هو الإنسان حتى تعتبره، وحتى تضع عليه قلبك، وتتعهَّده كل صباح، وكل لحظةٍ تمتحنه، حتى متى لا تلتفت عنِّي ولا تُرخيني ريثما أبلع ريقي، أأخطأت؟ ماذا أفعل لك يا رقيب الناس؟ لماذا جعلتني عاثورًا لنفسك حتى أكون على نفسي حملًا» (٧: ١٢–٢٠).

ولكن هذه الشكوى تذهب هباءً؛ لأن الخصم هنا هو نفسه الحكم: «ذاك الذي يسحقني بالعاصفة ويكثِّر جروحي بلا سببٍ. لا يدعني آخذ نَفَسي ولكن يشبعني مرائر. إن كان من جهة القوة يقول: ها أنا ذا، وإن كان من جهة القضاء يقول: من يُحاكمني؟ … أنا مُستَذْنَبٌ فلماذا أتعب عبثًا … ليس هو إنسانًا مثلي فأجاوبه فنأتي جميعًا إلى المحاكمة، ليس بيننا مُصالحٌ يضع يده على كلَينا» (٩: ٢٩–٣٣). «أَفهمني لماذا تُخاصمني؟ … يداك كوَّنتاني وصنعتاني كلي جميعًا، أفتبتلعني؟ … كُفَّ عنِّي قبل أن أذهب ولا أعود إلى أرض ظلمةٍ وظل موت» (١: ١–٢١).

ولكن إعلان البراءة من جانب أيوب وثباته على توكيد حقِّه لا يُجدي، وبدلًا من أن يجيبَ الرب أيوب عن تساؤلاته المشروعة، فإنه يعمد إلى تذكيره بقوته وجبروته: «مَنْ هذا الذي يظلم القضاء بكلام بلا معرفةٍ؟ اشدد حَقْوَيك الآن كرجل، فإني أسألك فتخبرني: أين كنتَ حين أسستُ الأرض؟ أَخبِرْ إن كان عندك فَهْم، من وضع قياسها أو مدَّ عليها مطمارًا؟ على أي شيءٍ قرَّت قواعدها؟ أو مَن وضع حجر زاويتها عندما ترنَّمت كواكب الصبح معًا وهتف جميعُ بني الله؟» (٣٨: ١–٦).

عند ذلك يفهم أيوب أن ربَّه لا يحتاج إلى التذكير بقواعد العدالة كما يفهمها البشر، وإنما يطلب الخضوع والتسليم سواء أجاءت مشيئته بالخير أم بالشر؛ لذلك أجابه قائلًا: «قد علمت أنك تستطيع كل شيءٍ ولا يعسر عليك أمرٌ … قد نطقتُ بما لم أفهم، بعجائب فوقي لم أعرفها … بسمع الأذن قد سمعت عنك، والآن رأتك عيني؛ لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد» (٢٤: ١–٥).

أمام هذا الخضوع المطلق والتسليم بقوة الرب وعظمته، يهدأ غضب الرب. وتنتهي القصة بأن يُعيد الرب إلى أيوب صحته ويعوِّض له كل ما فقد من ممتلكاته، ويعزِّيه عن بنيه الذين فقدهم بنسلٍ جديد: «وزاد الرب على كل ما كان لأيوب ضعفًا، فجاء إليه كل إخوته وكل معارفه، وأكلوا خبزًا في بيته ورَثَوْا له وعزَّوه عن الشر الذي جلبه الرب عليه. وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه، وكان له أربعة عشر ألفًا من الغنم، وستة آلاف من الإبل، وألف فدان من البقر، وألف أتان. وكان له سبعة بنين وثلاث بنات … وعاش أيوب بعد ذلك مائة وأربعين سنة» (٤٢: ١–١٧).

وعلى ما تفيدنا الرواية التوراتية فقد كان لأيوب قبل مصيبته سبعة بنين وثلاث بناتٍ (أيوب ١: ٢). وعندما كشف ربُّه عنه الضرَّ وهبه أيضًا سبعة بنين وثلاث بنات (أيوب ٤٢: ١٣).

(٥) أيوب في القرآن

يرد اسم أيوب في سورة الأنعام على أنه واحدٌ من أنبياء الله الصالحين: ﴿... وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦ الأنعام: ٨٤).

أما قصة ابتلائه فترد في موضعَين فقط وباختصارٍ شديدٍ، وذلك في سورة الأنبياء وسورة ص:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ (٢١ الأنبياء: ٨٣–٨٤).

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * ... إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٨ ص: ٤١–٤٤).

فبلايا أيوب في القصة القرآنية تأتي من الشيطان، كما هو الحال في الرواية التوراتية، ولكن دون التعرُّض لدور الرب فيها. فقد أصابه الشيطان بنصبٍ، أي بتعبٍ ومرضٍ في جسده، وبعذابٍ في روحه. كما نفهم من السياق أنه أُصيب بموت أولاده أيضًا. وبعد زمنٍ من المعاناة يدلُّه ربه على نبع ماء ليغتسل به فيزول مرضه الجسدي، ثم يشرب منه فتزول عذاباته الروحية. وبعد ذلك أحيا الله أولاده الذين ماتوا، ووهبه مثلهم في العدد.

وتنتهي القصة القرآنية بالثناء على صبر أيوب وثقته بربه.

النبي إلياس

بعد وفاة سليمان عصت الأسباط العشرة التي تسكن المناطق الشمالية على ابنه رحبعام، وبايعت بالمُلك عامله السابق على هذه المناطق المدعو يربعام، ولم يبقَ لابن سليمان إلا سبطي بنيامين ويهوذا. وبذلك انقسمت المملكة إلى مملكتَين؛ واحدة شمالية عاصمتها ترصة دُعِيَت بمملكة إسرائيل (أو السامرة فيما بعدُ)، وأخرى جنوبية دُعِيَت بمملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم. ومن المفترض أن هذه الأحداث قد جرت في السنة الأولى بعد وفاة سليمان، أي عام ٩٣١ق.م.

بعد أن تتابع على حكم المملكة الشمالية بعد يربعام ثلاثةُ ملوكٍ، آلَت السلطة فيها إلى القائد العسكري المدعو عُمري، وذلك نحو عام ٨٨٥ق.م. وعُمري هذا هو أول ملكٍ إسرائيلي موثَّق تاريخيًّا، ومعه تبدأ أخبار مملكة إسرائيل بالتقاطع مع وثائق الشرق القديم. أما يهوذا فلم يرد ذكرها خارج التوراة إلا بعد مائة وخمسين سنة من ذلك التاريخ، نحو عام ٧٣٢ق.م. بنى عُمري مدينة جديدة أسماها السامرة وجعلها عاصمة له. وقد كشف علماء الآثار المحدثون عن هذه المدينة تحت تلٍّ لا يبعد كثيرًا عن مدينة نابلس الحالية، وأزاحوا التراب عن قصورها الملكية وأبنيتها الإدارية، التي تستلهم نمط العمارة الفينيقي الذي كان سائدًا في ذلك الحين.

ومن الشواهد النصيَّة على قيام أسرة عُمري في السامرة، لدينا نقشٌ على جانبٍ كبير من الأهمية عُثِرَ عليه بموقع ديبان المؤابية في شرقي الأردن، مكتوب بالقلم الآرامي – الفينيقي وبلهجةٍ كنعانيةٍ قريبة من لهجة إسرائيل ويهوذا التي تُدْعَى اليوم بالعبرية. يقول النص في سطوره الأولى: «أنا ميشع ملك مؤاب من ديبان. أبي ملك على مؤاب ثلاثين سنة، وأنا

ملكت بعد أبي وبنيت هذا المقام للإله كموش؛ لأنه أعانني على كل الملوك ونصرني على أعدائي. أما عُمري ملك إسرائيل فإنه أذلَّ مؤاب أيامًا كثيرة، ثم خلفه ابنه وقال: سأذل مؤاب في أيامي، ولكن كموش جعلني أراه مهزومًا أمامي ... إلخ.»[١]

وابن عُمري المشار إليه في نقش ميشع، هو الملك آخاب الذي حكم إسرائيل بعد أبيه مدة اثنَين وعشرين عامًا، وهو موثَّق تاريخيًّا في نص لشلمنصر الثالث ملك آشور، يصف فيه حملته على بلاد الشام عام ٨٥٤ق.م.، ومواجهته في موقع قرقرة على نهر العاصي لحلفٍ عسكريٍّ سوري بقيادة هدد عزر ملك دمشق. والنص يذكر الملك آخاب في معرض تعداده لأسماء ممالك الحلف الاثنتي عشرة: «هب إلى ساح المعركة هدد عزر ملك أمريشو (= دمشق) ومعه ١٢٠٠ عربة و١٢٠٠ فارس و٢٠٠٠٠ جندي، وإرخوليني ملك حماه ومعه ٧٠٠ عربة و٧٠٠ فارس و١٠٠٠٠ جندي، وآخاب الإسرائيلي ومعه ٢٠٠٠ عربة و١٠٠٠٠ جندي ... إلخ.»[٢]

في عصر آخاب هذا نشط النبي إيليا، أو إلياس وفق اللفظ السرياني، وكانت أعلى كرامة أعطاها الله لهذا النبي هي التحكم بالمطر يُنزله بدعائه ويمنعه بدعائه. وكان الملك آخاب قد تزوَّج الأميرة الفينيقية إيزابيل ابنة ملك صيدون، فجاءت معها بعبادة الإله بعل وعبادة الإلهة عشيرة، فانساق آخاب لرغباتها وعبد بعل، وأقام له معبدًا في عاصمة السامرة، وعمل مقاماتٍ دينية على المرتفعات له وللإلهة عشيرة، ومارس عبادات وطقوس الخصب، وعمل كل ما من شأنه إغاظة الرب إله إسرائيل (الملوك الأول: ١٦).

وكانت كلمة الرب قد جاءت إلى إيليا وهو في موطنه بجلعاد شرقي الأردن؛ لكي يمضي ويبشر في مملكة السامرة. فدخل على الملك آخاب وانتقد سلوكه، وأخبره بأنه سيمنع المطر عن أرض إسرائيل عقابًا لها على خطاياها وخطايا آخاب، وقال: «حي هو الرب إله إسرائيل الذي وقفتُ أمامه. إنه لا يكون طلٌّ ولا مطرٌ في هذه السنين إلا عند قولي.» ثم خرج من عنده وتوارى. فقال له الرب: «انطلق من هنا واختبئ عند نهر كريث الذي هو مقابل الأردن، فتشرب من ماء النهر؛ وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك.» فذهب وأقام هناك فكانت الغِربان تأتي له بالطعام.

---

[١] انظر النص الكامل للنقش في كتابي: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، ص٣٠٦–٣٠٨.

[٢] راجع النص الموسع في كتابي: آرام دمشق وإسرائيل، ص٢٠٨–٢٠٩.

ولما جفَّ النهر لأنه لم يكن مطرٌ في الأرض، أمره الرب أن يذهب إلى نواحي مدينة صيدون إلى بلدة صرفة، وهناك سوف تعوله أرملةٌ أُوحيَ إليها بخدمته. فذهب وأقام عند الأرملة، فكانت أوعية الدقيق والزيت خاوية لدى قدومه، فامتلأت وصارت تمتلئ من تلقاء ذاتها كلما فرغت. وبعد مدة مرض طفل الأرملة الوحيد ومات، فأخذ إيليا الصبي ومدَّده على سريره ثم صرخ إلى الرب وقال: «يا رب، لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه.» فسمع الرب لصوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش (الملوك الأول: ١٧).

ونحو نهاية السنة الثالثة للجفاف، خرج إيليا وفق تعليمات الرب وجاء فدخل على الملك آخاب، وقال له أن يأتي بأنبياء البعل الأربعمائة والخمسين إلى جبل الكرمل ويجمع الشعب هناك، ليُثبت لهم بأن البعل إله زائفٌ وأن الإله الحق هو الرب إله إسرائيل. وعندما جاء الأنبياء واجتمع الشعب قال لهم إيليا: «إلى متى تعرجون بين الفرقتين؟ إذا كان إله إسرائيل هو الله فاتبعوه، وإذا كان البعل فاتبعوه، أنا بقيت نبيًّا للرب وحدي وأنبياء البعل أربعمائة وخمسون. فليعطونا ثورَين ويختاروا لأنفسهم واحدًا ويعطوني الآخر، وليقطِّع كلٌّ منا ثوره ويضعه فوق المحرقة ولا يشعل نارًا. ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب، والإله الذي يُجيب بنارٍ تأكل الذبيحة فهو الله.» فأخذوا الثور الذي أُعْطِيَ لهم وقرَّبوه ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهيرة قائلين: يا بعل أجبنا. فلم يكن من صوت ولا مُجيب، ثم تقدم إيليا وصلَّى إلى الرب فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب. عند ذلك أمر إيليا الشعب أن يمسكوا بأنبياء البعل، فجاء إليهم وذبحهم جميعًا. ثم التفت إلى الملك آخاب وقال له: اذهب إلى بيتك وكُلْ واشرب لأن هطول المطر قريبٌ. ثم صعد إلى ذروة الجبل وخرَّ إلى الأرض وجعل رأسه بين ركبتيه، وما لبثت السماء أن اسودَّت من الغيم والريح وكان مطر عظيم. وعندما سمعت إيزابيل بما جرى لأنبياء البعل، طلبت قَتْل إيليا، فهرب واختبأ في برية بئر السبع (الملوك الأول: ١٨).

تُوفِّي الملك آخاب وخلفه ابنه الأكبر أخزيا. وفي نهاية السنة الثانية من حُكمه أُصيب بمرضٍ أقعده، فأرسل رُسلًا إلى معبد بعل في مدينة عقرون الفلسطينية؛ ليستخير نبوءته بخصوص مرضه. فقال الرب لإيليا: قم اصعد إلى رسل ملك السامرة الذاهبين إلى عقرون وقل لهم: ألا يوجد في إسرائيل إله لتذهبوا إليه حتى ذهبتم تسألون بعل عقرون؟ إن السرير الذي صعد عليه أخزيا لا ينزل عنه لأنه موتًا يموت. وعندما عاد الرسل بعد أن لَقِيَهم إيليا وتحدث معهم وهم لا يعرفونه، سألهم الملك: ما هيئة الرجل الذي كلمكم بهذا الكلام؟

فقالوا: إنه رجل أشعر مُتنطق بمنطقة من جلد على حَقْويه. فقال: هو إيليا النبي. فأرسل إليه رئيس خمسين مع جنود ليأتي به إليه، وإذا هو جالس على رأس جبلٍ. فقال له: يا رجل الله، الملك يقول: انزل. فأجابه إيليا: إذا كنتُ أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء وتأكلك أنت والذين معك. فنزلَت نارٌ من السماء وأكلته هو والذين معه، ثم عاد الملك فأرسل رئيس خمسين آخر، فحصل لهم الشيء نفسه. وعندما أرسل إليه الملك رئيس خمسين ثالثًا، صعد إليه وجثا على ركبتيه وتضرَّع إليه ألَّا يفعل به كما فعل بالآخرين. فقال الرب لإيليا: انزل معه ولا تخَفْ. فقام ونزل معه ودخل على أخزيا وقال له: من أجل أنك أرسلت رسلًا لتسأل بعل زبوب إله عقرون؛ فالسرير الذي صعدت عليه لا تنزل منه بل موتًا تموت. فمات أخزيا حسب كلام الرب وملك يهورام أخوه عِوضًا عنه (الملوك الثاني: ١).

في نهاية حياته التبشيرية، قال إيليا لتلميذه أليشع الذي كان يُرافقه: امكث هنا لأن الرب أرسلني إلى نهر الأردن. فقال أليشع: حي هو الرب وحيَّة هي نفسك، إني لا أتركك أبدًا. فانطلَقا معًا، وعندما وصلا ضفَّة النهر أخذ إيليا رداءه ولفَّه وضرب به الماء فانفلق إلى هنا وهناك وعبرا على اليَبَس، ولما عبرا قال إيليا لأليشع: ماذا أفعل لك قبل أن أُوخَذ منك؟ فقال أليشع: ليكن نصيب اثنَين من روحك عليَّ. فقال: إن رأيتني أُوخَذ منك يكون لك كذلك. وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبةٌ من نارٍ وخيلٌ من نارٍ ففصلت بينهما، فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء، وكان أليشع يرى وهو يصرخ: يا أبي، يا أبي. ولم يره بعد ذلك. (الملوك الثاني: ٢).

وقد وردت آخر إشارة إلى إيليا في سِفْر ملاخي، وفحواها أن الله سوف يُرسل من السماء النبي إيليا كعلامة من علامات اليوم الأخير: «ها أنا ذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب العظيم والمخوف، فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم» (ملاخي ٤: ٥). من هنا فقد طَابق مؤلفو الأناجيل بين إيليا ويوحنا المعمدان الذي ظهر للتبشير بظهور المسيح. ففي روايته لظهور الملاك وبشارته لزكريا بولادة ابنه يوحنا، استخدم لوقا الآية نفسها من سِفْر ملاخي، حيث قال الملاك لزكريا: «طِلْبتك قد سُمِعَت، وامرأتك أليصابات ستلد لك ابنًا وتسمِّيه يوحنا، ويكون لك فرحٌ وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته؛ لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا ومسكرًا لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس، ويرد كثيرًا من بني إسرائيل إلى إلههم، ويتقدَّم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء، والعُصاة إلى فكر الأبرار؛ لكي يُهيئ للرب شعبًا مستعدًّا» (لوقا ١: ١٣–١٧).

والمقصود هنا أن روح إيليا سوف تحلُّ في يوحنا المعمدان كعلامةٍ من علامات قدوم ملكوت السموات. وبهذا المعنى قال يسوع نفسه عن يوحنا: «فإن هذا هو الذي كُتِب عنه: ها أنا أُرسل أمام وجهك ملاكي الذي يُهيئ الطريق قدامك» (متى ١١: ١٠).

(١) في القرآن الكريم

لا يرد في القرآن الكريم من سيرة إيليا الطويلة التي أوردنا أهم مفاصلها أعلاه، ومن أعماله ومعجزاته، سوى صِراعه مع العبادات البعلية التي كانت سائدةً يومها في إسرائيل. وفي هذا السياق يذكر القرآن اسم الإله بعل، وهو الإله الوحيد الذي يرد ذكره في الكتاب من غير آلهة الجزيرة العربية، مثل ود وسواع ويغوث ونسر واللات والعزى ومناة. نقرأ في سورة الصافات عن تنديد إيليا — أو إلياس كما يدعوه القرآن — بقومه لانصرافهم عن عبادة الله إلى عبادة البعل ما يأتي:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۞ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۞ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۞ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ[٣] ۞ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٧ الصافات: ١٢٣–١٣٢).

وقد عرف عرب الجاهلية شكلًا من أشكال البعل متمثلًا في الإله «هُبَل» الذي جِيء بصنمه من بلاد الشام ونُصب في الكعبة، على ما يورد المؤلف العربي ابن الكلبي في كتابه «الأصنام». ووجه الصلة بين الإلهين هو أن الاسم هُبَل في بعض اللهجات الشامية في بلاد الشام مؤلف من سابقة التعريف «هـ» التي تقوم مقام أل التعريف في اللغة العربية، ومن «بل» الذي هو بعل على ما يلفظه التدمريون وأقوام شامية أخرى. وبما أن «بل» أو «بعل» هو لقب للإله هدد يعني في اللهجات الكنعانية «السيد» أو «الرب»، فإن من جاء بالصنم من بلاد الشام لم يكن يقصد إلى جلب عبادةٍ جديدة وإله جديد إلى مكة، وإنما إلى جلب صورة لإله الكعبة تحت لقب «هُبَل/هبعل»، أي الرب.[٤]

---

[٣] إل ياسين: صيغة أخرى للاسم إلياس.

[٤] من أجل تفصيلات أوفى عن هذا الموضوع، راجع بحثي المنشور في الجزء الثاني من موسوعة تاريخ الأديان التي تصدرها دار علاء الدين بدمشق، تحت عنوان: «ديانة العرب قبل الإسلام».

(٢) استطراد

إيليا في التقوى الشعبية

من عجيب المفارقات أن النبي إيليا الذي قضى حياته في صراعٍ مع العبادات البعلية، قد تحوَّل هو نفسه إلى شخصية بعليةٍ في التقوى المسيحية الشعبية، يؤدي دور إله الخصب السوري القديم بعل لدى الشرائح الفلاحية في بلاد الشام وبعض الأقطار المتوسطية الأخرى. فهذه الشرائح التي بِتحوُّلها إلى المسيحية في القرون الميلادية الأولى، قد فقدت شفيعها الزراعي الذي يهبها المطر وخصب الأرض والماشية، وجدت في شخصية إلياس الذي صعد من عالم البشر إلى العالم القُدسي؛ بديلًا عن الإله بعل وأقرانه من الآلهة المتحكِّمة بمظاهر الطبيعة، ودعته بمار إلياس، أي القدِّيس إلياس.

وقد رأت التقوى الشعبية عددًا من نقاط التشابُه بين الإله بعل ومار إلياس. فالإله بعل كان مُتحكمًا بالمياه بعد إخضاعه لإله البحر والأنهار المدعو بالكنعانية «يم»، وكذلك إلياس الذي تظهر سُلطته على المياه من خلال فلقه لمياه نهر الأردن. وبعل كان متحكمًا بالمطر يُرسله حين يشاء ويمنعه حين يشاء، وكذلك إلياس الذي كان بدعائه يُرسل المطر أو يمنعه. ومسكن بعل كان في أعالي جبل صفون أو الأقرع كما يُدْعَى اليوم، وكانت مقاماته الدينية تنوضع على الجبال وقمم المرتفعات؛ وكذلك إلياس الذي كان مكانه المفضل جبل الكرمل وعليه ذبح أنبياء البعل، والذي كان يلجأ إلى أماكن آمنةٍ في أعالي الجبال، وقد كلَّمه الرب وهو على جبل حوريب في سيناء مثلما كلَّم موسى من قبل. وبعل كان يُسْمِع صوته للأنام هادرًا من خلال الرعد، ويلوِّح بسلاحه الذي هو البرق، ويضرب خصومه بحربته التي هي الصاعقة؛ وكذلك مار إلياس الذي كان يستجلب نارًا من السماء، هي الصاعقة ولا شك، لتدمير خصومه، ومركبته النارية التي تجرُّها خيولٌ من نار، هي التي تُحْدِث الرعد والبرق لدى احتكاك حوافر جيادِها بصخور أعالي الجبال.

ومقامات مار إلياس منتشرة اليوم على طول السلسلة الجبليَّة الساحلية السورية، وفي بعض المناطق الجبلية الداخلية. ونموذجها مقام مار إلياس الحي بمعرة صيدنايا، الذي يُشرف من موقعٍ شاهقٍ على سهل دمشق، ودير مار إلياس في شوبا بجبل لبنان، ومقام مار إلياس على جبل الكرمل، وهو المعروف حتى الآن شعبيًّا باسم جبل مار إلياس.

بهذه الطريقة حافظَت التقوى الشعبيَّة على شفيعها الزراعي القديم، والشخصية الماورائية الأقرب إلى همومها المعاشية. وعندما تحوَّل معظمُ سكان سورية المسيحيين إلى

الإسلام، حملت الشرائح الفلاحية معها شفيعها الزراعي، وألبسته لبوسًا إسلاميًّا تحت اسم الخَضِر، على وزن نَضِر، ويعني الأخضر وسيد الخضرة الزراعية. وقد جرت المطابقة بين هذه الشخصية وشخصية العبد الصالح الذي رافق موسى في رحلته إلى مَجْمَع البحرين، وفاقه علمًا ومعرفةً (سورة الكهف: ٦٠–٨٢) على الرغم من أن القرآن الكريم لم يذكر اسم ذلك العبد الصالح.

ولكي يمنح الخيال الشعبي لهذا الولي الإسلامي نعمة الخلود التي تمتَّع بها إلياس، فقد دبَّج المؤلفون الإسلاميون قصةً مفادها أن الخَضِر قد رافق الملك الجبار ذا القرنين في رحلته للبحث عن نبع الحياة الذي يهب الخلود لمن يشرب منه. وقد جعل ذو القرنين الخَضِر على رأس جنوده، وسار حتى وصل مغرب الشمس فسأل عن النبع، فقيل له: إنه وراء أرض الظلمة. فاختار من عسكره ستة آلاف ودخل أرض الظلمة. وبعد مسيرة يومٍ وليلة أصاب الخضرُ نبع الحياة فشرب منه، وأخطأه ذو القرنين.

وتظهر في القَصَص الشعبي الإسلامي، مثل ألف ليلة وليلة وسيف بن ذي يزن والأميرة ذات الهمة، الخصائصُ الإخصابية للخَضِر؛ فهو الذي يُكلل الأشجار بالخضرة، وينشر عباءته الخضراء بساط عشبٍ على السهول والتلال، وخلال ظهوراته يُشاهَد جالسًا على طِنْفَسةٍ خضراء. والفلاحون في فلسطين كانوا حتى وقتٍ قريبٍ يستنزلون المطر بالدعاء إلى الخَضِر ويدعونه بالاسم التبادلي مار إلياس، عندما ينشدون: «يا سيدي خضر الأخضر اسقِ زرعنا الأخضر، يا سيدي مار إلياس اسقِ الزرع اليباس.» وكان يهود فلسطين قبل الاحتلال الصهيوني يدعون إيليا باسم الخضر. وفي تركيا العثمانية كان الاسم الشائع للخَضِر هو خضر إلياس، الذي يجمع بين اسم الخضر واسم إلياس.

أثناء عصر الحروب الصليبية والتبادل الثقافي الذي حصل بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية، ظهرت إلى الوجود شخصيةٌ بعليةٌ جديدةٌ تجمع الخَضِر ومار إلياس إلى نموذجٍ فرنسيٍّ هو القدِّيس جاورجيوس، أو مار جرجس كما يُدْعَى في بلاد الشام. وقد نُسجت لهذا القديس سيرة حياة تقول بأنه كان بطلًا من أبطال الإيمان المسيحي، عاش في مدينة اللد بفلسطين في القرن الثالث الميلادي، وأنه أنقذ ابنة الملك التي اعتنقت المسيحية من تنين هائلٍ صرعه بحربته. وبهذه الطريقة تم ابتعاث الأسطورة السورية القديمة عن صراع بعل مع التنين لوتان وقتله، وتمَّ الجمع أيضًا بين القديسين الزراعيين الثلاثة، وراح المزارعون السوريون يقصدون المقامات المكرسة لهذه الشخصيات الثلاثة على أنها شخصيةٌ واحدةٌ. والاسم جاورجيوس في اليونانية يعني الفلاح. وهو يُدْعَى في الأقطار الأوروبية بجورج

الأخضر، وذلك كناية عن علاقته بالزراعة. والفلاحون الأوروبيُّون يحتفلون بعِيده في ٢٣ نيسان باعتباره احتفالًا بقدوم الربيع.

وبعد ظهور شخصية القديس المحارب مار جرجس، عادت شخصية الخَضِر لتكتسب منه خصائصه القتالية مثلما اكتسب منها ومن إلياس الخصائص الزراعية. والفولكلور الشعبي طافح بروايات عن قوة الخضر الخارقة. فالمزارعون في بعض أنحاء سورية يدعونه بأبي حربة، والمرويَّات عن قوة ذِراعه تزخر بالإشارة إلى صخورٍ ضخمةٍ رماها من مسافاتٍ شاسعةٍ. إحدى هذه الصخور، وهي أسطوانية الشكل منزرعة على الشاطئ قرب مدينة طرطوس، تقوم النسوة العاقرات بزيارتها والتضرُّع إلى الولي من أجل الإنجاب. وفي بيت جالا قرب القدس، هنالك صخرةٌ عليها ما يُشبه أثر القدم يُقال إن الخضر قفز من فوقها، ويزورها الناس هناك لطلب الشفاء.[٥]

---

[٥] للتوسُّع في موضوع القدِّيسين الزراعيين الثلاثة، انظر:

- الدكتور حسني حداد: أساطير الخصب القديمة والمعتقدات الشعبية في سورية، ترجمة أحمد الهندي، مراجعة وتقديم فراس السواح، دار الكندي، سورية ١٩٨٩.
- الدكتور حسني حداد، وسليم مجاعص: بعل هداد، دار أمواج، بيروت ١٩٩٣.

النبي إليسع

لا يَرِد ذكر إليسع، أو أليشع كما يُدْعَى في التوراة، إلا مرتين في القرآن باعتباره من أنبياء الله الصالحين، ومن دون إعطاء أي تفصيلاتٍ عن سيرته وقومه وأعماله:

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٦ الأنعام: ٨٥–٨٦).

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٣٨ ص: ٤٨).

ولإلقاء مزيدٍ من الضوء على هذه الشخصية النبوية التوراتية، سنُقدِّم فيما يأتي نبذةً مختصرةً عن سيرته اعتمادًا على سِفْر الملوك الثاني، الإصحاحات من ٢ إلى ١٠.

بعد أن غادر النبي إيليا الأرض وصعد في عربةٍ نارية إلى السماء، أمسك تلميذه أليشع برداء إيليا الذي سقط عنه، ورجع ووقف على شاطئ الأردن وقال: أين هو الرب إله إيليا؟ ثم ضرب الماء بالرداء فانفلق وسار على اليبس. فقال من رآه من الناس: قد استقرَّت روح إيليا على أليشع.

تابع أليشع مهمة إيليا في التبشير في المملكة الشمالية. وكانت أولى معجزاته في مدينة أريحا التي عبر إليها بعد أن فلق الماء. فقد جاء إليه رجال المدينة وقالوا له: إن نبع الماء الذي يشربون منه قد صار رديئًا وغير صالحٍ للشرب. فجاء أليشع إلى النبع وطرح فيه بعض الملح، فصار ماؤه سائغًا لا شائبة فيه. ثم خرج من هناك إلى جبل الكرمل حيث أقام مدة يتعبَّد، عاد بعدها إلى مدينة السامرة، فجاءت إليه امرأة أرملة كانت زوجة لرجلٍ صالحٍ، وقالت له: إن المرابي يطالبها بدَيْن على زوجها ويهدِّدها بأخذ ولديها عَبْدين له إذا امتنعت عن تسديد الدَّيْن. فقال لها أليشع: ماذا يوجد في بيتك؟ فقالت: ليس عندي إلا بقية من زيتٍ لا تُسمن ولا تغني من جوعٍ. فقال لها أليشع أن تجهِّز أوعيةً فارغةً وتصب فيها

من الإناء الذي يحتوي على بقية الزيت، فإذا امتلأت فعليها أن تستعير من جيرانها أوعيةً أخرى وتملأها أيضًا. ففعلت ذلك وباعت الزيت وسدَّدت الدين وعاشت بالباقي.

وعلى الرغم من الودِّ المفقود بين أليشع وأسرة الملك آخاب، إلا أنه أنقذ ابن آخاب الذي ورثه على العرش يهورام من الهلاك عطشًا هو وجيشه. وتفصيل القصة أن يهورام ملك إسرائيل ويهوشافاط ملك يهوذا اتفقا على السير معًا لمحاربة ملك مؤاب، ثم عقدَا حلفًا مع ملك آدوم في الجنوب، وتوجَّهت جيوشهما معًا لاصطحابه معهما. وعندما تقدَّمت الجيوش الثلاثة في برية آدوم نفدت لديهم مئونة الماء، فداروا سبعة أيامٍ ولم يجدوا ماءً للجيش والبهائم. فقال يهوشافاط ملك يهوذا: أليس هنا نبي للرب فنسأل الرب به؟ فأجاب واحد من ضُباط يهورام ملك إسرائيل وقال: هنا أليشع الذي كان يخدم إيليا. فجاءوا به. فقال أليشع ليهورام: ما لي ولك، اذهب إلى أنبياء أُمك وأبيك (أي أنبياء البعل وعشيرة). فقال له يهورام: كلَّا لا أذهب لأني رأيت أن الرب قد دعا هؤلاء الملوك الثلاثة ليهلكهم على يد ملك مؤاب. فقال له أليشع: لولا أنِّي أريد أن أرفع وجه يهوشافاط ملك يهوذا ما كنت أنظر إليك. لا ترون ريحًا ولا مطرًا ولكن هذا الوادي يمتلئ ماءً فتشربون. وفي الصباح ذبح وأوقد وأصعد محرقة، وإذا مياه آتية عن طريق آدوم وامتلأت الأرض ماءً.

وكانت امرأة من بلدة شونم تستضيف أليشع كلما عبر إلى البلدة، فقالت لزوجها أن يبني له غرفةً على السطح ليضطجع فيها كلما مرَّ بهم. وفي أحد الأيام جاء واضطجع في الغرفة وقال لغلامه أن يدعو المرأة إليه. فسألها ماذا يستطيع أن يفعل من أجلها لقاء معروفها. فقالت له إن ما يُنغِّص حياتها هو عدم إنجاب طفلٍ لزوجها. فقال لها إنه في مثل هذا الوقت من العام القادم يكون لها ولدٌ. فحبلت المرأة ووضعت صبيًّا بعد تسعة أشهرٍ. وفي ذات يومٍ خرج الولد مع أبيه إلى الحصاد، فأصابه وجعٌ في الرأس، فعاد إلى البيت وجلس على ركبتَيْ أمه إلى الظُّهر ومات. فصعدت إلى غرفة أليشع وأضجعت الولد على سرير أليشع، ثم انطلقت على أتان إلى رجل الله في جبل الكرمل. عندما علم أليشع بالأمر نزل وانطلق معها، فدخل الغرفة وتمدَّد فوق الغلام فسخن جسده، وما لبث أن عطس سبع عطساتٍ وفتح عينيه.

وأصاب البرص نعمان قائد جيش ملك دمشق، وكان ذا حظوةٍ لدى الملك. فسمع بوجود نبيٍّ في السامرة مُستجابٍ عند الرب، فأرسل كتابًا بيد نعمان إلى ملك السامرة يقول فيه: قد أرسلت إليك نعمان عبدي فاشفه من برصه عند وصول هذا الكتاب. فلما قرأ ملك إسرائيل الكتاب، اعتقد أن ملك دمشق يحاول خلق مسوغات لغزو عاصمته السامرة.

فمزَّق ثيابه وقال: هل أنا إله لكي أُحييَ وأُميت؟ فلما سمع أليشع بأن ملك إسرائيل قد مزَّق ثيابه أرسل إلى الملك يقول: لماذا مزقت ثيابك؟ ليأتِ نعمان إليَّ فليعلم أنه يوجد نبي في إسرائيل. فجاء نعمان بخيله ومركباته ووقف عند باب أليشع. فأرسل أليشع إليه من يقول له: اذهب واغتسل سبع مراتٍ في نهر الأردن فيرجع إليك لحمك وتطهر. فغضب نعمان وقال: أليس نهرا دمشق إبانه وفرفر أحسن من جميع مياه إسرائيل؟ أما كنت أغتسل بهما فأطهر؟ ولما ألحَّ عليه مرافقوه أذعن وغطس في مياه الأردن سبع مرات فشُفِيَ. ورجع إلى أليشع وقال له: الآن عرفت أنه لا يوجد إله إلا في إسرائيل.

وكان بعد مدةٍ أن الصراع قد احتدم بين دمشق والسامرة. ووصلت جيوش آرام إلى السامرة وحاصرتها. وعندما طال الحصار عمَّت المجاعة في المدينة وفُقِد القمح والشعير. فاعتقد ملك إسرائيل أن أليشع هو المسئول عن ذلك بلعناته التي يستنزلها على إسرائيل، فأقسم أن يقطع رأسه، وأرسل إليه ضابطًا وثُلة من الجنود لتأتي به، فقال لهم أليشع: غدًا يكون الدقيق متوفِّرًا حتى تصبح كيلته بشاقل واحد وكيلتا الشعير بشاقل في باب السامرة. فقال له أحد الجنود ساخرًا: وهل يصنع الرب كُوًى في السماء يُنزل منها القمح والشعير؟! وكان في المساء أن الرب أسمع جيش دمشق صوتَ مركباتٍ وخيلٍ لجيش عظيم، فظنُّوا أن نجدةً جاءت من مصر لمساعدة ملك إسرائيل، فقاموا على عَجَلٍ وهربوا تاركين وراءهم خيامَهم ومقتنياتهم. وفي الصباح خرج الإسرائيليون ونهبوا معسكر الآراميين، وصارت كيلة الدقيق بشاقل وكيلتا الشعير بشاقل حسب قول الرب.

بقيَ على أليشع أن يُحقِّق رغبة الرب في إبادة بيت آخاب من أجل عبادتهم لبعل وعشيرة. وكانت قوات يهورام الابن الثاني لآخاب تحارب قوات حزائيل ملك دمشق في شرقَي الأردن، عندما أُصيب بجرحٍ بليغٍ وانسحب إلى وادي يزرعيل (= مرج ابن عامر) في الداخل ليبرأ من جراحه، وترك جيشه تحت إمرة قائده ياهو، فأرسل أليشع أحد تلاميذه إلى مقرِّ قيادة ياهو ليمسحه ملكًا. فمضى الرسول ودخل على ياهو وهو بين ثُلةٍ من ضباطه، فاختلى به في داخل خبائه وأخرج قنينة الزيت وصبَّ منها على رأسه، وقال: هكذا قال الرب إله إسرائيل، قد مسحتك ملكًا على شعب الرب فتضرب بيت آخاب سيدك وانتقم لدماء جميع عبيد الرب من إيزابيل، فتأكلها الكلاب وليس من يدفنها.

وعندما خرج ياهو على ضباطه وأخبرهم بما جرى في الداخل، هتفوا له وضربوا بالبوق وقالوا: قد ملك ياهو. أما هو فقد انطلق بثلَّةٍ من جنوده إلى وادي يزرعيل. وعندما قارب على الوصول إلى مقر يهورام عرفه المراقبون على البرج وأخبروا سيدهم. فتطَيَّر يهورام من

هذه الزيارة وتوقَّع شرًّا، فخرج إليه بمركبته. وعندما التقيا صاح يهورام: أسلام يا ياهو؟ فقال له: أي سلام وزنا أمك إيزابيل وسحرها دائم. فلوى يهورام أعنة أحصنته وهرب وهو يصيح: خيانة، خيانة. فعاجله ياهو بسهمٍ اخترق قلبه، وقبل دخوله إلى السامرة دبَّر قَتْل أبناء آخاب السبعين، وجيء إليه برءوسهم في سللٍ إلى وادي يزرعيل.

وفي السامرة جمع ياهو كل الشعب وقال لهم: إن آخاب قد عبد البعل قليلًا، أما أنا فأعبده كثيرًا، ادعوا لي جميع أنبياء البعل وكل عابديه وكل كهنته؛ لأن لي ذبيحةً عظيمةً للبعل، فأتى الجميع واجتمعوا في معبد البعل، فدخل ياهو مع جنوده وأبادهم جميعًا (الملوك الثاني: ٢–١٠).

يونس/يونان

تَرِد قصة يونس، أو يونان كما يُدعى في التوراة، موزَّعة في القرآن الكريم على المواضع الآتية:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ❁ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ (٦٨ القلم: ٤٨–٤٩).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (١٠ يونس: ٩٨).

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ❁ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١ الأنبياء: ٨٧–٨٨).

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ❁ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ❁ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ❁ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ❁ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ❁ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ❁ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ❁ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ❁ وأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ❁ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (٣٧ الصافات: ١٣٩–١٤٨).

وبإعادة ترتيب الأحداث المُبعثرة في هذه المواضع الأربعة ووَضْعها في تتابعٍ زمنيٍّ، يمكن أن نسرد القصة مجدَّدًا وفق ما يلي:

- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾
- ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ...﴾ (و«ذا النون» هنا تعني «صاحب الحوت»، أي يونس نفسه).

- ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (أي هرب وركب في سفينةٍ مُثقلةٍ بالبضائع والركَّاب).
- ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ (أي فشارك في القرعة ولكنه خسر).
- ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (أي ابتلعه الحوت بعد أن فعل ما يُلام عليه).
- ﴿... فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.
- ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.
- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ...﴾.
- ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (أي فقذفه الحوت من بطنه إلى اليابسة وهو متعبٌ ومعلول).
- ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾.
- ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.
- ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

إلَّا أن القصة تبقى مع ذلك مليئة بالغوامض، والأسئلة الآتية تبقى مفتوحة:

(١) لماذا ذهب يونس مُغاضبًا، ومن الذي غاضبه؟ وكيف أمن أن الرب لن يقدر عليه؟
(٢) لماذا لجأ إلى تلك السفينة المشحونة والمُثقلة بالبضائع والركاب؟ وما هي وجهته؟
(٣) ما هو موضوع القرعة التي ساهم بها وخسر؟
(٤) كيف وجد نفسه في الماء فالتقمه الحوت؟
(٥) ما قصة شجرة اليقطين التي أنبتها الله عليه فظلَّلته؟
(٦) من هم أولئك القوم الذين آمنوا برسالة يونس، والذين يزيد تعدادهم عن مائة الألف؟

هذه التساؤلات تُجيب عنها الرواية التوراتية للقصة التي يبسطها سِفْر يونان القصير؛ فقد اختار الرب يونان للتبشير في مدينة نينوى الآشورية، وتحذير أهلها الذين كثر شرُّهم من غضب الرب، ولكن يونان حاول التملُّص من هذا الواجب، وظن أن الرب لن يطاله إذا سافر إلى مكانٍ بعيدٍ. وهذا هو النص الكامل تقريبًا للسِّفْر وفق الترجمة الكاثوليكية للعهد القديم:

«كانت كلمة الرب إلى يونان بن أمتاي قائلًا: قم انطلق إلى نينوى المدينة العظيمة، ونادِ عليها فإن شرَّها قد كثر أمامي. فقام يونان ليهرب إلى ترشيش (= إسبانيا) من وجه الرب، ونزل إلى يافا فوجد سفينةً سائرةً إلى ترشيش، فأدَّى أُجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب. فألقى الرب ريحًا عظيمةً في البحر فأشرفت السفينة على الانكسار، فخاف الملَّاحون وصرخوا كُلٌّ إلى إلهه، وألقَوا الأمتعة التي في السفينة إلى البحر ليخفِّفوا عنهم. أما يونان فنزل إلى جوف السفينة واضطجع واستغرق في النوم. فدنا منه رئيس النوتية وقال له: ما بك مُستغرقًا في النوم؟ قم فادعُ إلهك لعل الله يفكر بنا فلا نهلك. وقال كلٌّ لصاحبه: هلموا نُلْقِ قُرَعًا لنعلم بسبب من أصابنا هذا الشر. فألقوا قُرعًا فوقعت القرعة على يونان، فقالوا له: أخبرنا بسبب من أصابنا هذا الشر؟ ما عملك، ومن أين جئت، وما أرضك، ومن أيِّ شعبٍ أنت؟ فقال لهم: أنا عبراني، وإني أتَّقي الرب إله السموات الذي صنع البحر واليبس. فخاف الرجال خوفًا عظيمًا وقالوا له: لماذا صنعت ذلك؟ وقد علموا أنه هاربٌ من وجه الرب لأنه أخبرهم، وقالوا له: ماذا نفعل بك حتى يسكن البحر عنا؟ وكان البحر يزداد هياجًا، فقال لهم: خُذوني وألقوني إلى البحر فيسكن البحر عنكم، فإني عارفٌ أن هذه الزوبعة العظيمة إنما حلَّت بكم بسببي ... فصرخوا إلى الرب وقالوا: أيها الرب لا نهلكنَّ بسبب نفس هذا الرجل، ولا تجعل علينا دمًا بريئًا فإنك أنت أيها الرب قد صنعت كما شئت. ثم أخذوا يونان وألقوه إلى البحر فوقف البحر عن تموُّجه ...

فأعدَّ الرب حوتًا عظيمًا لابتلاع يونان، فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. فصلَّى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت وقال: إلى الرب صرخت في ضيقي فاستجاب لي، من جوف الجحيم استغثت فسُمِعَ صوتي ... إلخ (صلاة طويلة). فأمر الرب الحوت فقذف يونان إلى اليبس.

وكانت كلمة الرب إلى يونان ثانية قائلًا: قم انطلق إلى نينوى المدينة العظيمة، ونادِ عليها المُناداة التي كلَّمتك بها. فقام يونان وانطلق إلى نينوى بحسب كلمة الرب، وكانت نينوى مدينةً عظيمةً على مسيرة ثلاثة أيام. فابتدأ يونان يدخل المدينة مسيرة يوم واحدٍ، ونادى وقال: بعد أربعين يومًا تنقلب نينوى. فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصومٍ ولبسوا مسوحًا من كبيرهم إلى صغيرهم. وبلغ الكلام ملك نينوى، فقام عن عرشه وألقى عنه حلَّته والتفَّ بمسحٍ وجلس على الرماد، وأمر أن ينادى ويُقال في نينوى عن أمر الملك وعظمائه: لا يذُق بشرٌ ولا بهيمةٌ ولا بقرٌ ولا غنمٌ شيئًا، ولا ترع ولا تشرب ماءً، وليلتف البشر بمسوحٍ وليصرخوا إلى الله بشدةٍ، ويتوبوا كل واحد عن طريقه الشرير، لعل الله يرجع ويندم ويعود

عن اضطرام غضبه فلا نهلك. فرأى الله أعمالهم أنهم تابوا عن طريقهم الشرير، فندم الله على الشر الذي قال إنه يصنع بهم، ولم يصنعه.

فساء الأمر يونان مساءةً عظيمة، وصلَّى إلى الرب وقال: أيها الرب، ألم يكن هذا كلامي وأنا في أرضي ولذلك بادرت بالهرب إلى ترشيش؟ فإني علمت أنك إله رءوفٌ رحيمٌ طويل الأناة كثير الرحمة ونادم على الشر. فالآن يا رب خُذ نفسي مني فإنه خيرٌ لي أن أموت من أن أحيا. فقال الرب: أبحقٍّ غضبك؟

وخرج يونان وجلس شرقي المدينة وصنع له مظلةً وجلس تحتها في الظل ريثما يرى ماذا يُصيب المدينة. فأعدَّ الرب الإله يقطينة،[1] فارتفعت فوق يونان ليكون على رأسه ظلٌّ. ففرح يونان باليقطينة فرحًا عظيمًا، ثم أعد الله دودةً عند طلوع الفجر في الغد فضربت اليقطينة فجفَّت، فلما أشرقت الشمس أعدَّ الله ريحًا شرقيةً حارَّة فضربت رأس يونان فغشي عليه، فتمنَّى الموت لنفسه وقال: إنه خيرٌ لي أن أموت من أنا أحيا. فقال الله ليونان: أبحقٍّ غضبك لأجل اليقطينة؟ فقال: بحقٍّ غضبي إلى الموت. فقال الرب: لقد أشفقتَ أنت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولم تُربِّها، التي نشأت بنت ليلةٍ وهلكت بنت ليلة، أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة (= ١٢٠٠٠٠ نسمة لأن الربوة تعادل ١٠٠٠٠) من أناسٍ لا يعرفون يمينهم من شمالهم، ما عدا بهائم كثيرة؟

مقارنة

الرواية التوراتية	الرواية القرآنية
• كانت كلمة الرب إلى يونان بن أمتاي قائلًا …	• ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٧ الصافات ١٣٩).
• فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب.	• ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ …﴾ (٢١ الأنبياء ٨٧).

[1] ورد اسم هذه الشجرة في الترجمة البروتستاندية على أنه يقطينة، بينما قالت الترجمة الكاثوليكية «خروعة»، وهي فصيلة من النبات ينتمي إليها اليقطين.

الرواية التوراتية	الرواية القرآنية
• فنزل إلى يافا فوجد سفينة فأدى أجرتها ونزل فيها.	• ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٣٧ الصافات ١٤٠).
• فكانت زوبعة عظيمة وأشرفت السفينة على الانكسار.	...
• قالوا هلمَّ نُلقِ قُرعًا لنعلم بسبب من أصابنا هذا الشر ... فوقعت القرعة على يونان.	• ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ (٣٧ الصافات ١٤١).
• فأخذوا يونان وألقَوه إلى البحر فوقف عن تموُّجه.	...
• فأعد الرب حوتًا عظيمًا لابتلاع يونان، فكان في جوف الحوت ثلاثة أيام.	• ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (٣٧ الصافات ١٤٢).
• فصلَّى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت.	• ﴿... فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ...﴾ (٢١ الأنبياء ٨٧).
• فأمر الرب الحوت فقذف يونان إلى اليبس.	• ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (٣٧ الصافات ١٤٥).
• وكانت كلمة الرب إلى يونان ثانية: قم انطلق إلى نينوى ... التي فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس (= مائة وعشرين ألفًا).	• ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (٣٧ الصافات ١٤٧).
• فآمن أهل نينوى بالله، وصاموا ولبسوا مسوحًا.	• ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (٣٧ الصافات ١٤٨).
• وخرج يونان من المدينة وجلس ريثما يرى ماذا يصيب المدينة.	• ...
• فأعدَّ الله يقطينة فارتفعت فوق يونان ليكون على رأسه ظل.	• ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ (٣٧ الصافات ١٤٦).

أصحاب الكهف

(١) الرواية القرآنية

تتحدث هذه القصة القرآنية عن عددٍ من الشباب المؤمن، الذين فرُّوا من الاضطهاد الديني ورفضوا عبادة الأوثان التي فرضها عليهم الملك، فلجئوا إلى كهفٍ في جبلٍ خارج المدينة. وهناك ألقى الله عليهم سُباتًا فناموا لمدةٍ تزيد عن الثلاثمائة سنة. وعندما انجلت الغُمة بعثهم الله من نومهم وأراد إطلاع الناس على حقيقة ما جرى لهم، ليؤمنوا بأن وعد الله حقٌّ، وأنه قادرٌ على إحياء الموتى مثلما أحيا هؤلاء الفتية.

أما عن مناسبة نزول الوحي بهذه القصة، فيقول ابن كثيرٍ بأن بعضًا من أهل الكتاب سألوا النبي عن خبر أصحاب الكهف، فقال لهم: «غدًا أُجيبكم»، ولم يُتْبع قوله هذا بقول «إن شاء الله». ولكن الوحي تأخَّر عليه خمسة عشر يومًا، وعندما جاء الوحي بالقصة أراد تعالى تذكير رسوله بنسيانه هذا؛ ولذلك قال في آخرها:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾. والقصة مذكورةٌ فقط في سورة الكهف، ولا يوجد إشارةٌ إليها في أي موضعٍ آخر. وهذا نصُّها الكامل:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ[١] كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا[٢] * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ[٣] فِي

[١] الرقيم: هو لوح فخاري أو حجري أو معدني تُنقش عليه الكتابة القديمة.

[٢] أي: هل ظننت أن أهل الكهف والرقيم كانوا أعجب آياتنا؟ والمقصود أن لله آياتٍ أعجبَ من ذلك.

الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا[٤]﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا[٥]﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا[٦]﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ[٧] فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا[٨]﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ[٩] عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ[١٠] ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ[١١] هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ[١٢] يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ[١٣] لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ[١٤]

---

[٣] أي: رمينا عليهم سباتًا فناموا.

[٤] سنين كثيرة.

[٥] أي: إن الفريقَين المختلفَين بشأنهم عرف عدد سنوات نومهم.

[٦] أي: لقُلْنا قولًا بعيدًا عن الحق.

[٧] أي: هلَّا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلًا واضحًا.

[٨] أي: ما ترتفقون به من طعام وشراب.

[٩] أي: تميل عن كهفهم.

[١٠] أي: تعدل وتبتعد.

[١١] أي: نقودكم أو فضتكم.

[١٢] أي: يعرفوا بأمركم.

[١٣] أطلعنا الناس عليهم.

فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ❋ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ[15] مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ[16] فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ❋ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ❋ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ❋ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ❋ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (١٨ الكهف: ٩–٢٦).

لا يوجد في كتاب العهد القديم أو في كتاب العهد الجديد خبرٌ عن أصحاب الكهف. فهذه قصة مسيحيةٌ متأخرةٌ جرى تداولها في العصر الذي صارت فيه المسيحية دينًا رسميًّا للإمبراطورية الرومانية، بعد تحوُّل الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦–٣٣٧م) إلى الدين المسيحي. وأول نصٍّ مُدوَّن لهذه القصة هو نص سرياني يعود بتاريخه إلى أواخر القرن الخامس الميلادي. ويبدو أنه قد اعتمد مروياتٍ شفهية متداولة أكثر قدمًا، وهذا ملخَّص وافٍ له.[17]

في جولةٍ له خارج عاصمته جاء الإمبراطور ديكيوس إلى إفسوس، وهي مدينةٌ يونانيةٌ عريقة في آسيا الصغرى، وهناك وصلته أخبارُ انتشار المسيحية فيها، فحاول التضييق على المسيحيين وأمرهم جميعًا بتقديم القرابين إلى الآلهة الرومانية، فرضخ فريقٌ منهم وارتدَّ تحت التهديد، ورفض فريقٌ قليل آخر مُفضلًا الألم والعذاب على ترك المعتقد. ومن هؤلاء سبعة فتية (وبعض الروايات تقول ثمانية) قُدِّمت أسماؤهم إلى الإمبراطور ليتَّخذ قراره فيهم، فأعطاهم مهلةً للتفكير في العدول عن موقفهم هذا ثم غادر المدينة ليكمل جولته. فترك الفتية بيوتهم ولجئوا إلى جبل أنخليوس خارج إفسوس حيث اختبئوا في كهفٍ. وعندما نفدت مئونتهم أرسلوا واحدًا منهم إلى المدينة ليشتريَ لهم طعامًا، وهناك علم أن الإمبراطور قد عاد إلى إفسوس وهو يطلبهم. اضطرب الفتية لسماع هذه الأنباء، وبعد تناولهم

[14] أي: فريقان من الناس تنازعوا بشأن ماذا يفعلون بموضع الكهف.

[15] أي: بعددهم.

[16] أي: لا تجادل بشأنهم إلا جدلًا متيقنًا عارفًا بحقيقة الخبر.

[17] K. Sanadiki, Legends and Narratives of Islam, Kasi publications, Chicaco, 2000, pp. 286–288. citing: James Hasting, Incyclopedia of Religion and Ethics.

طعامهم ألقى عليهم الرب سُباتًا عميقًا، وأغلق عليهم مدخل الكهف بصخرةٍ عظيمةٍ. فتَّش جنود الإمبراطور عن الفتية ولم يعثروا لهم على أثرٍ، فجاءوا إلى أهلهم وانتزعوا منهم تحت التهديد بالقتل مكان اختباء الفِتية، ولكنهم عندما وصلوا إلى الكهف وجدوه مُغلقًا بتلك الصخرة العظيمة، وتأكَّد لهم أن الفتية قد لقوا حتفهم في داخله، فغادروا وأخبروا الإمبراطور.

دام سُبات الفتية ثلاثمائة وسبع سنين، وكانت الدولةُ قد تحوَّلت إلى الدين المسيحي منذ أمدٍ بعيد، وآلت السلطة إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني. وفي عصر هذا الإمبراطور دار جدالٌ في الأوساط المسيحية حول مسألةِ بَعْث الأموات، ووقف أحد الأساقفة المدعو ثيودور في صف من يُنكر البعث، الأمر الذي أرَّق الإمبراطور. في هذه الأثناء أراد مالك الحقل الذي يقع فيه الكهف بناء حظيرةٍ لغنمه، فراح يقتلع من صخرة المدخل حجارة لاستخدامها في رفع الجدران، وذلك حتى انكشف مدخل الكهف، ولكن الرجل لم يدخل ولم يلحظ وجود أحدٍ هناك.

ثم إن الله أيقظ الفتية من سُباتهم، وظنَّ كل واحدٍ منهم أنه لم يَنَم إلا ليلةً واحدة، وراحوا يشجعون بعضهم على النزول إلى المدينة لاستقصاء الأخبار وشراء الطعام. وأخيرًا وقع الاختيار على المدعو ديوميديوس الذي نزل في المرة الأولى، فحمل فضته ومضى. عندما وصل ديوميديوس إلى بوابة المدينة رأى صليبًا كبيرًا مُعلقًا عليها، فتعجَّب وتبلبلت خواطره ولم يجد لذلك تفسيرًا. ثم إنه دخل وتجول ووقف أخيرًا عند أحد الباعة ليشتريَ طعامًا، وعندما أخرج نقوده المعدنية، رأى البائعُ عليها صورةَ الإمبراطور ديكيوس، الذي اختفى الفتية في عهده، منقوشةً على العملة، فظن أن الفتى قد عثر على كنزٍ قديم مدفون في الأرض، فراح يضغط على الفتى لمعرفة مكان الكنز، وتجمَّع حولهما أهل السوق. ثم إن الخبر شاع بسرعةٍ ووصل إلى أسقف المدينة وإلى الحاكم، فَجيء إليهما بالفتى وقصَّ عليهما القصة كاملةً، وطلب منهما مصاحبته إلى الكهف للتأكد من صحة كلامه. وخلال تفحصهما لمدخل الكهف عثرا على رقيمين معدنيَّين نُقِشَت عليهما كتابة تحكي قصة الفتية، كانا قد وُضِعَا تحت الصخرة عند احتباسهم، وبذلك تمَّ التأكُّد من صحة روايتهم. ثم إن الإمبراطور جاء بنفسه إلى المكان واستمع إلى الفتية، فقال له واحد منهم: إن الله قد أنامهم هذه المدة الطويلة ثم أيقظهم؛ لكي يُثبت للمتشككين حقيقة البعث في يوم الحساب، وقدرة الله عليه. عند ذلك أمر الإمبراطور ببناء مقامٍ دينيٍّ في موضع الكهف تذكارًا للفتية.

مقارنة

الرواية السريانية	الرواية القرآنية
• عدد الفتية سبعة أو ثمانية تبعًا للروايات المختلفة المتداولة.	• ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ...﴾ (١٨ الكهف: ٢٢).
• الفتية يرفضون السجود للآلهة الوثنية، ويفضِّلون العذاب على التخلِّي عن معتقدهم.	• ﴿... إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ...﴾ (١٨ الكهف: ١٣–١٤).
• الفتية يلجئون إلى جبلٍ خارج مدينة إفسوس ويأوون إلى كهف.	• ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ (١٨ الكهف: ١٦).
• الإمبراطور يُرسل من يأتي إليه بالفتية، ولكن الله يُلقي عليهم سباتًا وييسر لهم من يسد بابه بصخرة.	• ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (١٨ الكهف: ١٠).
• دام سبات الفتية ثلاثمائةٍ وسبع سنين، وكانت المملكة خلال ذلك قد تحوَّلت إلى المسيحية.	• ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ...﴾ (١٨ الكهف: ٢٥–٢٦).
• الله يوقظ الفتية، فظنَّ كلٌّ منهم أنه لم يَنَم إلا ليلة واحدة.	• ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ...﴾ (١٨ الكهف: ١٩).
• الفتية يرسلون واحدًا منهم بفضته للاستطلاع وشراء الطعام.	• ﴿... فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ...﴾ (١٨ الكهف: ١٩).
• النقود القديمة تكشف أمر الفتية، فيأتي الحاكم والأسقف إلى الكهف ليجدا رقيمَين دُوِّن عليهما خبر الفتية.	• ترد الإشارة إلى هذَين الرقيمَين في مطلع القصة: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (١٨ الكهف: ٩).

الرواية السريانية	الرواية القرآنية
• يأتي الإمبراطور بنفسه إلى الموقع، ويقول له الفتية: إن الله فعل بهم ذلك ليؤكد حقيقة البعث.	• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ...﴾ (١٨ الكهف: ٢١).
• الإمبراطور يأمر ببناء مقامٍ دينيٍّ في موقع الكهف.	• ﴿... فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ (١٨ الكهف: ٢١).

خراب أورشليم

في سورة الإسراء لدينا خبر حملتَين شنَّهما الأعداء على مدينة أورشليم؛ الحملة الأولى كانت حملة تأديبية لم تؤدِّ إلى دمار المدينة وإنما إلى نهبها وتحذيرها، أما في الحملة الثانية التي جرت بعد مدةٍ، فقد قام العدو نفسه بتخريب المدينة وتهديم معبدها، وكان ذلك عِقابًا لبني إسرائيل على ذنوبهم وخطاياهم:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ❋ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا[١] بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ[٢] وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ❋ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ[٣] وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا[٤]❋ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ[٥] لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ[٦] وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا[٧] مَا عَلَوْا[٨] تَتْبِيرًا ❋ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (١٧ الإسراء: ٤–٨).

---

[١] أي: أُولَى المرتين في الإفساد.

[٢] أي: سلكوا وسط البيوت.

[٣] أي: أعنَّاكم عليهم.

[٤] أي: أكثر عددًا.

[٥] أي: وعد المرة الثانية من إفسادكم.

[٦] أي: ليحزنوكم ويهينوكم.

[٧] أي: ليخرِّبوا ويهدِّموا.

[٨] أي: ما استولوا عليه.

(١) الرواية التوراتية وخلفيتها التاريخية

في عام ٦٠٥ق.م. ارتقى نبوخذنصر عرش بابل التي دانت لها بلاد الشام بعد آشور، وكانت مصر تبذل محاولةً لفرض نفوذها على بلاد الشام، ووصل الفرعون نخو بقواته إلى نهر الفرات، ولكن نبوخذنصر هزمه في موقع كركميش على الفرات، ثم طارده إلى ما وراء سيناء. وفي طريقه دخل نبوخذنصر مدينة أورشليم التي وقفت إلى جانب مصر في النزاع، وخلع ملكها المتمرد يهوياقيم وعين بدلًا عنه ابنه يهوياكين ملكًا بدلًا منه وساقه أسيرًا إلى بابل (أخبار الأيام الثاني ٣٦: ٥–٨). ولكن الملك الجديد خلع طاعة بابل بعد أن غادر نبوخذنصر المنطقة، ومال إلى مصر التي كانت تَعِدُ الممالك السورية بالعون ضد بابل، ولكن نبوخذنصر عاد بعد مدةٍ إلى المنطقة من أجل اجتثاث نفوذ مصر بشكلٍ نهائيٍّ، واتخذ من موقع ربلة على العاصي مقرًّا لقيادته، ومن هناك كانت قواتُه تنطلق لتأديب الممالك المتمرِّدة على النفوذ البابلي. وفي هذا السياق حملته على أورشليم التي جاء خبرها في سِفْر الملوك الثاني، حيث نقرأ:

«جاء نبوخذنصر ملك بابل على المدينة، وكان عبيده يحاصرونها. فخرج الملك يهوياكين إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساء خصيانه، وأخذه ملك بابل في السنة الثامنة لُملكه. وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ... وسبى كل الرؤساء وجميع جبابرة البأس، عشرة آلاف سبي، وجميع الصناع والأقيان ... وسبى يهوياكين إلى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض سباهم إلى بابل، وعيَّن بدلًا منه متنيا عمُّه ملكًا عِوضًا عنه، وغَيَّرَ اسمه إلى صدقيا» (الملوك الثاني ٢٤: ١٠–١٧).

وقد جرت هذه الحملة في العام السابع لحكم نبوخذنصر، على ما يُفيدنا نصٌّ لهذا الملك كشفَت عنه الحفريات الأثرية، وهو نصٌّ شديد الاختصار نقرأ فيه ما يأتي: «في السنة السابعة، قاد ملك أكاد جيوشه نحو بلاد حاتي (= سورية) فحاصر مدينة يهوذا وفتحها في اليوم الثاني من شهر آذار، فقبض على الملك وعيَّن بدلًا عنه ملكًا جديدًا اختاره، وأخذ منها جِزيةً كبيرة.»[٩]

---

[٩] Leo Oppenheim, Assyrian and Babylonian Historical Texts. In: J. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 1969, P. 564.

وهذه هي الحملة الأولى على أورشليم الوارد ذكرها في الرواية القرآنية حيث قرأنا:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ (١٧ الإسراء: ٥).

لم توجه هذه الحملة الضربة الأخيرة لأورشليم، وإنما أبقت عليها بعد سبي خيرة رجالها، فأخذت تستردُّ أنفاسها وتستعيد قوَّتها، ثم إن الملك الجديد صدقيا حاول خلق حلفٍ عسكريٍّ لمواجهة بابل، وراح يبعث الرسل إلى ملوك فينيقية وشرقي الأردن لتأليبهم على الحاكم البابلي. ويبدو أن ملوك آدوم ومؤاب وعمون في شرقي الأردن، وملكَي صيدون وصور، أو مندوبين عنهم قد اجتمعوا في أورشليم بدعوةٍ من ملكها صدقيا، على ما نَفْهم من سِفْر إرميا ٢٧: ٣. وهذه التحركات والاتصالات كانت تجري بتشجيعٍ من مصر؛ لأننا نعرف من برديةٍ مصريةٍ أن الفرعون بسامتيك قد قام في هذه الأثناء بجولةٍ دبلوماسيةٍ زار خلالها عددًا من الممالك الفلسطينية والفينيقية. ويبدو أن الهدف الرئيس من وراء ذلك كان تأليب ملوك المنطقة على بابل.[١٠]

انقسم شيوخ أورشليم في الرأي إلى فريقَين؛ فريق يدعو إلى مقاومة بابل بالسيف، وآخر يدعو إلى قبول العبودية لبابل دفعًا للكارثة المتوقَّعة في حال اللجوء إلى المقاومة. وكان على رأس الفريق الثاني النبي إرميا الذي اعتبر نبوخذنصر منفذًا لمشيئة الرب. نقرأ في سِفْر إرميا: «هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي على وجه الأرض، وأعطيتها لمن حسُن في عيني. والآن قد دفعتُ كل هذه الأراضي ليد نبوخذنصر ملك بابل عبدي،[١١] فتخدمه كل الشعوب، وكذلك ابنه وابن ابنه حتى يأتيَ وقتُ أُسقطه فيه ... أَدْخلوا أعناقكم تحت نير ملك بابل واخدموه وشعبه واحيوا ... لماذا تصير هذه المدينة خَرِبة؟» (إرميا ٢٧: ٤–١٧). ولكن كلمات إرميا لم تلقَ آذانًا صاغيةً من الملك حزقيا والداعين إلى الحرب.

قرر نبوخذنصر التخلُّص نهائيًّا من شغب ملوك يهوذا، فشنَّ حملةً جديدةً على مناطق سورية الجنوبية طالت عددًا من الممالك الفلسطينية بينها مملكة يهوذا، فحاصر عاصمتها

---

[١٠] Hershel Shanks, edt, Ancient Israel, Prentice Hall, New Jersy, 1988, P. 147.

[١١] قارن مع ما ورد في الرواية القرآنية: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

أورشليم للمرة الثانية بعد عشر سنواتٍ مضَت على الحصار الأول. استمر الحصار قرابة السنتين على ما يروي لنا مُحرر سِفْر الملوك الثاني، وعندما نفدت المئونة واشتدَّ الجوع، حاول الملك صدقيا الهرب مع عائلته بمعونة كتيبةٍ من خيرة جنوده، وذلك من خلال فتحةٍ سريَّةٍ جرى إحداثها في السور، ولكن الجنود البابليين قبضوا عليه وساقوه إلى مقر قيادة نبوخذنصر في ربلة، فأمر بقتل أفراد عائلة صدقيا أمام ناظريه، ثم سمل عينيه وأرسله أسيرًا إلى بابل. وبعد ذلك اقتحم نبوز ردان قائد الجيش البابلي أورشليم فأحرقها، وهدم أسوارها وهدم هيكلها وسبى معظم أهلها إلى بابل. وبذلك تم حذف مملكة يهوذا من الخارطة السياسية للمنطقة، فتحوَّلت إلى ولايةٍ بابليةٍ هامشيةٍ، ثم إلى ولايةٍ فارسيةٍ بعد ذلك. أما من تبقَّى من سكان يهوذا، فقد أقام نبوخذنصر عليهم حاكمًا من بينهم يُدْعَى جدليا (سِفْر الملوك الثاني: ٢٥). وقد جرت هذه الأحداث نحو عام ٥٧٨ق.م.

وهذه هي الحملة الثانية على أورشليم المذكورة في الرواية القرآنية، حيث قرأنا:

﴿... فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (١٧ الإسراء: ٧).

وعلى الرغم من عدم توافر نصٍّ بابليٍّ يصف الحملة الأخيرة على أورشليم وتخريبها وهدم هيكلها، إلا أن الحملة التنقيبية البريطانية التي نقَّبت في موقع أورشليم بين عامَي ١٩٦٠ و١٩٦٧؛ قد كشفت عن آثار دمارٍ وحرائق هائلةٍ في الموقع ترجع إلى بدايات القرن السادس قبل الميلاد، كما كشفت عن آثار انقطاع في السكن دام قرابة قرن من الزمان.[١٢]

(٢) الرجل الذي أماته الله مائة عام

تتصل بقصة دمار أورشليم قصة أخرى عن الرجل الذي أماته الله مائة عامٍ ثم بعثه من الموت. نقرأ في سورة البقرة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ

[١٢] Kathleen Kenyon, Digging Up Jerusalem, London, 1974, PP. 166–172.

بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[١٣] وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاس …﴾ (٢ البقرة: ٢٥٩).

كما هو الحال في القَصَص القرآني الذي تجري أحداثه في فضاءٍ تاريخيٍّ وجغرافيٍّ، فإن هُويَّة هذه المدينة وهُويَّة بطل القصة مغفلان هنا، ولكن لدينا قصة شبيهة بها أوردها محرر سِفْر باروخ الرابع، وهو من الأسفار غير القانونية. وأبطال هذه القصة النبي إرميا، وكاتبه باروخ، وغلامه أبيمالك الذي أماته الله ستة وستين عامًا ثم أحياه. وتبتدئ أحداث القصة عشية دمار أورشليم، وتنتهي بالتبشير بإحياء المدينة وعودة المسبيين إليها، وهذا ملخصها:

عشية دمار مدينة أورشليم المحاصرة، كشف الرب للنبي إرميا عن قراره بتدمير المدينة على يد نبوخذنصر وسبي أهلها عقابًا على ذنوبهم، وأمره بمغادرتها مع بقية المسبيين، وأن يترك وراءه كاتبه باروخ. فقال إرميا للرب إنه يريد تقديم معروفٍ لغلامه أبيمالك لقاء خدمته المخلصة له، فلا يشهد دمار المدينة. فقال له الرب أن يرسله في مهمةٍ شكليةٍ تُبعده عن المكان ريثما تنتهي الأحداث، وطمأنه بأنه سوف يبسط حمايته عليه. في الصباح أرسل إرميا أبيمالك إلى مكان بعيدٍ ليجمع له بعض التين لاستخدامه في علاج المرضى، وأثناء غيابه اقتحم البابليون أورشليم ودمروها وسبوا أهلها وبينهم إرميا. أما باروخ كاتبه فقد لجأ إلى قبرٍ فارغٍ وعاش فيه وكانت الملائكة تزوره هناك.

جمع أبيمالك التين في سلةٍ وقفل عائدًا. وفي الطريق جلس تحت شجرةٍ ليحتمي بظلها من حرِّ النهار وأسند رأسه إلى السلة، فجلب عليه الرب سُباتًا دام ستًّا وستين سنة. وعندما أفاق شعر بثقلٍ في رأسه عزاه إلى عدم أخذه كفايته من النوم، ثم تفقَّد التين في سلته فوجده ما زال طازجًا ويقطر حليبًا (قارن مع قوله تعالى: ﴿… فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ …﴾؛ أي لم يفسد ويتغير). وعندما وصل إلى أورشليم الخاوية والمهدَّمة لم يجد تفسيرًا لما حدث. ثم راح يجول في المكان إلى أن التقى برجلٍ عجوزٍ فسأله عن سكان المدينة أين ذهبوا، وعن إرميا وباروخ؛ فقصَّ عليه العجوز كل ما جرى، وتعجَّب من أنه ما زال يتذكر إرميا الذي ذهب مع المسبيين إلى بابل منذ ستٍّ وستين سنة. ثم إن ملاكًا جاء وقاد أبيمالك إلى حيث كان باروخ ما زال يُقيم في القبر الفارغ. ففسر له باروخ حقيقة ما جرى

[١٣] أي: يتغيَّر.

له، وأن موته وبعثه دليلٌ على قدرة الله على إحياء الموتى وقدرته على إحياء المدينة وبعثها من جديدٍ، ثم إن باروخ كتب بوحيٍ من الرب رسالةً إلى إرميا حملها له صقر مُكلفٌ بهذه المهمة، وفيها يقول له أن يُهيئ نفسه هو وبقية المسبيين للعودة إلى أورشليم التي سوف تصحو من غفوتها على أيديهم.[١٤]

[١٤] L. H. Charlesworth, The Old Testament Pseudepigrapha, Doublday, New york, 1995, vol. 2, PP. 413–425.

يأجوج ومأجوج

هاروت وماروت

(١) يأجوج ومأجوج

يأجوج ومأجوج اسم لقبائل بربرية كانت تُفسد في الأرض وتعتدي على جيرانها بالقتل والسلب والنهب. وقد ورد خبرهم في القرآن الكريم في سياق قصة ذي القرنين، وهو ملكٌ صالحٌ مؤمنٌ يَسَّر له الله أسباب المُلك والسلطان والفتح والعمران، فانطلق في حملةٍ تهدف إلى نشر دين الله بين الأقوام الوثنية، حتى بلغ مغرب الشمس، أي أقصى حدٍّ في الأرض المسكونة، حيث تغرب الشمس على أفق المحيط. ثم انقلب راجعًا حتى وصل إلى أقصى شرق المسكونة، حيث تشرق الشمس من وراء بقاعٍ مجهولةٍ، فوجد شعبًا يتكلم لغة غريبة ساكنًا عند فجوةٍ بين سلسلتَي جبال، تتدفَّق من ورائها عليهم تلك الأقوام. نقرأ في سورة الكهف:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا[١] * فَأَتْبَعَ سَبَبًا[٢] * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي

[١] أي: يسَّر له الله الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم.

[٢] أي: فاتخذ طريقًا.

عَيْنٍ حَمِئَةٍ[٣] وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ[٤] وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[٥] عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ[٦] فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ[٧] أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ[٨] حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ[٩] قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا[١٠] * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا[١١]﴾ (١٨ الكهف: ٨٣–٩٧).

ولكن يأجوج ومأجوج سوف ينقبون السد في آخر الزمن، ويكون خروجهم للإفساد في الأرض ثانيةً من علامات الساعة. وهذا ما تُشير إليه بقية القصة في سورة الكهف:

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي[١٢] جَعَلَهُ دَكَّاءَ[١٣] وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (١٨ الكهف: ٩٨–١٠٠).

[٣] أي: ذات حمأة، وهو الطين الأسود، ولا ندري في أي مكانٍ وقف حتى خُيِّل إليه ذلك.

[٤] أي: بين جبلين.

[٥] أي: خراجًا ماليًّا.

[٦] أي: ما أنعم الله به عليَّ خيرٌ مما تبذلونه لي.

[٧] أي: ساعدوني بتقديم اليد العاملة.

[٨] أي: قطع الحديد.

[٩] أي: بين جانبَي الجبلَين.

[١٠] أي: نحاسًا مذابًا.

[١١] أي: يتسوَّرونه ويعلونه.

[١٢] أي: يوم القيامة.

[١٣] أي: دكَّه وسوَّاه بالأرض.

وهناك إشارة أخرى في سورة الأنبياء إلى نقب يأجوج ومأجوج للسد عند اقتراب الساعة: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ[١٤] * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢١ الأنبياء: ٩٦–٩٧).

(١-١) الرواية التوراتية

يرد الاسم «جوج» في سِفْر حزقيال على أنه اسم لملك يحكم على أرضٍ تُدْعَى «ماجوج» أو على شعب يُدْعَى بهذا الاسم، وهو سيقوم بغزو أرض إسرائيل قبل اليوم الأخير، ولكنه يُقتل هو وشعبه في مذبحةٍ هائلةٍ:

«وكان كلام الرب إليَّ قائلًا: يا بن آدم اجعل وجهك على جوج أرض ماجوج، رئيس روش وماشك وتوبال، وتنبأ عليه وقل ... هكذا قال السيد الرب، في ذلك اليوم عند سُكنى شعبي إسرائيل آمنين ... تأتي من موضعك من أقاصي الشمال أنت وشعوب كثيرة معك، كلهم راكبون خيلًا، جماعة عظيمة وجيش كثير، وتصعد على شعبي إسرائيل كسحابةٍ تغشى الأرض. في الأيام الأخيرة يكون (هذا)، وآتي بك على أرضي لكي تعرفني الأمم حين أتقدَّس فيك أمام أعينهم ياجوج ... ويكون في ذلك اليوم، يوم مجيء جوج على أرض إسرائيل، يقول السيد الرب إن غضبي يصعد في أنفي، وفي غيرتي في نار سخطي تكلمتُ أنه في ذلك اليوم يكون رعش عظيم في أرض إسرائيل، فترعش أمامي سمك البحر وطيور السماء ووحوش الحقل والدابَّات التي تدبُّ على الأرض، وكل الناس الذين على وجه الأرض. وأستدعي السيف عليه في كل جبالي، يقول السيد الرب، فيكون سيف كل واحد على أخيه، وأُعاقبه بالوبأ والدم، وأُمطر عليه وعلى جيشه وعلى كل الشعوب الذين معه مطرًا جارفًا وحجارة برد عظيمة ونارًا وكبريتًا، فأتعظَّم وأتقدَّس وأُعْرَف في عيون أممٍ كثيرةٍ فيعرفون أني أنا الرب» (حزقيال ٣٨: ١–٢٣).

من مقارنة الروايتين، نلاحظ أن الرواية القرآنية قد انفردت بذكر السد الذي بُنِيَ لكي يحجب يأجوج ومأجوج، ونقبهم له قبل يوم القيامة وانتشارهم للإفساد في الأرض، وتتفق الروايتان على أن خروج هذه الأقوام هو علامة من العلامات التي تسبق اليوم الأخير.

---

[١٤] من كل مرتفعٍ وناحيةٍ يُهْرَعون.

وقد ورد ذكر جوج وماجوج أيضًا في سِفْر الرؤيا، وهو آخر أسفار العهد الجديد، باعتبارهم أقوامًا مفسدين يظهرون في آخر الزمن، فيصطدمون بجيش المؤمنين، ولكن الله يقضي عليهم:

«ثم متى تمت ألف السَّنة يُحَلُّ الشيطان من سجنه ويخرج ليُضلَّ الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج وماجوج ليجمعهم للحرب، الذين عددهم مثل رمل البحر. فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القدِّيسين وبالمدينة المحبوبة (= أورشليم). فنزلت نارٌ من عند الله من السماء وأكلتهم. وإبليس الذي كان يُضلهم طُرِحَ في بحيرة النار والكبريت» (الرؤيا ٢٠: ٧–١٠).

(٢) هاروت وماروت

(٢-١) الرواية القرآنية

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٢ البقرة: ١٠١–١٠٢).

وقد عرضنا لتفسير هذه الآيات في معرض تقديمنا لسيرة الملك سليمان سابقًا، وأوردنا ما قاله المفسرون من أن هاروت وماروت هما ملاكان أرسلهما الله لامتحان البشر، فنزلا في أرض بابل وعاشا بين الناس مدةً من الزمن كانا أثناءها يُعلمان الناس السحر بعد أن يبيِّنا لكل واحدٍ أن ما يصفونه له هو ابتلاء واختبار من الله تعالى.

(٢-٢) الرواية التوراتية

لا يوجد في التوراة العبرانية قصةٌ عن نزول ملائكة إلى الأرض واختلاطهم بالبشر إلا القصة الواردة في سِفْر التكوين عن دخول أبناء الله، أي الملائكة، على بنات الناس بعد أن رأوا من

حسنهنَّ وجمالهنَّ، فولدن لهم أولادًا عمالقةً كان بهم ابتداء الشر على الأرض (التكوين ٦: ١–٥). ولكن الأسفار غير القانونية قد توسَّعت في هذا الموضوع وأسهبت، معتبرة أن هؤلاء الملائكة الساقطين هم الذين تحوَّلوا إلى شياطين، وتحوَّل كبيرهم إلى إبليس.

ولكننا نعثر في الفولكلور اليهودي على قصة هبوط ملاكَين إلى الأرض أحدهما يُدْعَى عزازيل والآخر شمهازي، وذلك ليثبتا للخالق تفوُّق الملائكة على الإنسان في الأخلاق وفي طاعة الله، وأن الإنسان غير جديرٍ بالدور الذي رسمه الله له، ولكن شمهازي ما لبث أن وقع في حبِّ امرأةٍ تُدْعَى الزُّهرة وطلب وصالها، ولكنها تمنَّعت واشترطت عليه أن يُطلعها على اسم الله الأعظم الخفي، ففعل ذلك. وما إن حازت على الاسم حتى استخدمت قوته في الصعود إلى السماء قبل أن تفيَ بوعدها لشمهازي، ولكن الله أوقفها بين أفلاك الأجرام السماوية السيَّارة، وحوَّلها إلى الجرم المعروف بكوكب الزُّهرة أو كوكب فينوس.[١٥]

هذه القصة اليهودية وتنويعاتها الأخرى، كانت وراء العديد من القصص التي أوردها المفسرون القدماء لإلقاء الضوء على هاروت وماروت في القصة القرآنية، ومنها هذه القصة المرفوعة لابن عباس، والتي أوردها ابن كثيرٍ في تفسيره:

«قال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا مسلم، أخبرنا القاسم بن الفضل الحذائي، أخبرنا يزيد عن ابن عباس، أن أهل السماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض فرأوهم يعملون بالمعاصي، فقال الله: أنتم معي وهم في غيبٍ عنِّي. فقيل لهم: اختاروا منكم ثلاثةً يهبطون إلى الأرض ليحكموا بين أهل الأرض، وجُعِل فيهم شهوة الآدميين، فأُمِرُوا ألَّا يشربوا خمرًا، ولا يقتلوا نفسًا، ولا يزنوا، ولا يسجدوا لِوَثنٍ. فاستقال منهم واحد فأُقِيل. فأُهْبِط اثنان إلى الأرض هما هاروت وماروت، فأتتهما امرأةٌ من أحسن الناس، فهوياها معًا ثم أتيا منزلها فأراداها، فقالت لهما: لا، حتى تشربا خمري وتقتلا ابن جاري وتسجدا لوثني. فقالا: لا نسجد. ثم شربا من الخمر، ثم قتلا ثم سجدا، فأشرف أهل السماء عليهما، وقالت لهما: أخبراني بالكلمة التي إذا قلتماها طرتما. فأخبراها فطارت، فمُسِخَت جمرة وهي هذه الزهرة. وأما هما فأُرْسِلَ إليهما سليمان بن داود فخيَّرَهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فهما مناطان بين السماء والأرض.»

---

[١٥] K. Sandiki, Legends and Narratives of Islam, Kazi Publications, Chicago, 2000, PP. 235–236. citing, Louis Ginzbery, Legends of the Jews, III, P. 247.

وابن كثير في تفسيره يُورد هذه القصة وتنويعات عديدة عليها، ثم يعلق قائلًا:
«وقد رُوِيَ في هاروت وماروت عن جماعةٍ من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة، وغيرهم، وقصَّها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلُها راجع إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديثٌ مرفوعٌ صحيحٌ متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. وظاهر سياق القرآن إجمال من غير بسطٍ ولا إطناب. ونحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى. والله أعلم بحقيقة الحال.»

هذه التصوُّرات المتأخرة عن أصل كوكب الزهرة، إنما تقوم على أرضية ميثولوجية مغرقة في القدم. فقد رأت الشعوب السامية القديمة في كوكب الزهرة تجسيدًا لإلهة الحب الشهواني، التي دُعِيَت إنانا لدى السومريين، وعشتار لدى البابليين، واستارت عند الكنعانيين. وقد نقل الفينيقيون عبادة استارت إلى جزيرة قبرص، ومنها انتقلت إلى بلاد اليونان تحت اسم إفروديت، التي يقصُّ هزيود في كتابه «أصول الآلهة» عن ولادتها من زبد البحر على شاطئ جزيرة قبرص. أما الرومان فقد دعوها فينوس، وهو الاسم الفلكي الشائع اليوم لكوكب الزهرة. كما دعاها الفُرْس أناهيتا، وفي فنونهم المصوَّرة تبدو على هيئة حسناء تعزف على العود.

وعند عرب الجزيرة قبل الإسلام حمل كوكب الزهرة معاني البياض والحسن والبهجة،[١٦] ورأوا فيه تجسيدًا لإلهتهم العُزى على ما ترويه المصادر الخارجية،[١٧] وقد عُرِفَت الزهرة بأكثر من اسم، وذلك حسب ظهورها بعد غروب الشمس أو قبل شروقها، فكانوا يدعون نجمة المساء عتر (= استارت = عترتا)، أما نجمة الصبح فيدعونها العزَّى ويلقِّبونها بكوكب الحسن.[١٨] ولهذه الإلهة ضحَّى الرسول الكريم بشاةٍ عفراء عندما كان على دين قومه، على ما يرويه ابن الكلبي في «كتاب الأصنام».[١٩] ولكنه بعد البعثة صار يتطير من ظهورها ويقول: لا مرحبًا ولا أهلًا. فقد رُوِيَ عن نافع قال: سافرت مع ابن عمر، فلما كان آخر الليل قال: يا نافع، هل طلعت الحمراء (أي الزهرة)؟ وأعادها مرتَين

[١٦] راجع: تاج العروس للزبيدي، ج٣، ص٢٤٩، ولسان العرب، ج٥، ص٤٢١.
[١٧] محمد سليم الحوت: الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت، ١٩٧٩، ص٧٥ و٨٧.
[١٨] محمد سليم الحوت: الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت، ١٩٧٩، ص٧٥ و٨٧.
[١٩] ابن الكلبي: الأصنام، تحقيق أحمد زكي، القاهرة ١٩٦٥، ص١٩.

أو ثلاثًا. ثم قلت: قد طلعت. فقال: لا مرحبًا ولا أهلًا. قلت: سبحان الله، نجمٌ مسخرٌ سميعٌ مطيعٌ، قال: ما قلت لك إلا ما سمعته من رسول الله.[٢٠]

كما روى البعض عن عبد الله بن عمر أنه كلما رأى الزهرة لعنها وقال: هذه التي فتنت هاروت وماروت.[٢١]

[٢٠] تفسير الطبري، ج١، ص٣٤٥.

[٢١] تفسير الطبري، ج١، ص٣٤٦.

قصة الخليقة

(١) الخلفية الميثولوجية

تتحدث أقدمُ الأساطير المدوَّنة في ثقافات الشرق القديم، وهي الأساطير السومرية (النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد)، عن خلق العالم ابتداءً من الهَيُولَى المائية الأولى. ونستطيع اعتمادًا على عددٍ من النصوص السومرية التي لم تصلنا كاملةً، إعادة بناء أسطورة التكوين السومرية على الشكل الآتي:[١]

(١) في البدء كانت الإلهة نمو، وهي المياه البدئية التي انبثق عنها كل شيءٍ فيما بعد.

(٢) ثم إن هذه المياه الأولى أنجبت توءمين هما السماء آن، وهو مذكر، والأرض كي، وهي مؤنث، وكانا ملتصقين ببعضهما في كتلةٍ ماديَّة غير متمايزة، تدعوها النصوص السومرية بجبل السماء والأرض.

(٣) من تلاقح السماء والأرض وُلِدَ الهواء إنليل، وبدأ يشعر بالضيق من عدم وجود متسعٍ له للحركة بين أبويه، فعمد بقوته الخارقة إلى فصل السماء عن الأرض، فسمت السماء وانبسطت الأرض، وراح الهواء إنليل يرتع بينهما.

إن عناصر قصة الميلاد المائي هذه تعود إلى الظهور في الميثولوجيا المصرية. ففي البدء لم يكن سوى الأوقيانوس المائي العظيم المدعو نون. في أعماق هذه الهيولى المائية البدئية، كانت تحوم روح بلا هويةٍ تركَّزت في داخلها تدريجيًّا كل الممكنات، وصار اسمها آتوم

---

[١] S. N. Kramer, Sumerian Mythology, Harper and Row, New York, 1961, ch. 2.
S. N. Kramer, The Sumerian, The University of Chicago Press, 1963, ch. 4.

(والكلمة تعني الاكتمال، وفي الوقت نفسه العدم). ثم إن آتوم هذا تجلَّى عند بدء الزمن تحت اسم آتوم-رع، وأنجب الآلهة والبشر. وفي روايةٍ أخرى لقصة الخليقة المصرية نجد أن إله الشمس رع كان كامنًا في حضن المياه الأولى نون تحت اسم آتوم. ولخوفه على نوره من الانطفاء انطوى داخل بُرعم لوتس ظل يهيم على غير هدًى في الأعماق المائية. ثم جاء وقت سئم فيه من حالته الشبيهة بالعدم، فانبثق بإرادته الخاصة وتجلَّى تحت اسم «رع»، وبعد ذلك أنجب الهواء شو، وهو مذكَّر، والرطوبة تفنوت، وهي مؤنث. وهذان أنجبا بدورهما الأرض جيب، وهو مذكر، والسماء نوت، وهي مؤنث. وكانت السماء والأرض في حالة التصاق وعناق شبقي دائمٍ، ولكن الهواء شو الذي يؤدي هنا دور إنليل السومري، تسلَّل بينهما فرفع السماء على ذراعيه نحو الأعلى ووطئ الأرض بقدميه. ومنذ ذلك الحين وجيب ينوح ويبكي على فراق زوجته نوت.[٢]

على أن أكمل وأطول نصٍّ في التكوين قد قدمه لنا البابليون ورثة الحضارة السومرية، وهو يعود بتاريخه إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وقد وُجِدَت منه نسخة شبه تامة في مكتبة الملك آشور بانيبال بمدينة نينوى تعود بتاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد. في هذه الأسطورة يحلُّ الإله البابلي مردوخ محل الإله القديم إنليل كبطلٍ للتكوين، وهو الذي يفصل الكتلة المائية البدئية المدعوة تعامة، أو الأم هابور أصل كل الأشياء، والتي تصوَّرَهَا البابليون على هيئة تنين مائيٍّ هائلٍ؛ ليصنع منها السماء والأرض وبقية مظاهر الوجود. فبعد معركةٍ فاصلةٍ مع هذه الإلهة وجُندِها، قطع مردوخ رأسها ثم شقَّها إلى قسمين، فانفتحت كما الصَّدَفة، فرفع نصفها الأول إلى الأعلى فصار سماءً وضع تحتها العوارض حتى لا يتسرَّب ماؤها، وبسط الثاني فصار أرضًا. ثم التفت بعد ذلك إلى تنظيم شئون السماء والأرض، فعمد إلى السماء وزيَّنها بالنجوم وأظهر كويكبات أبراج السنة، وصنع القمر وأوكله بالليل، وصنع الشمس وأوكلها بالنهار، وفصل بين تخوم النهار وتخوم الليل، ثم التفت إلى الأرض فأبرز معالمها وصنع التلال والجبال، وفجَّر من باطنها ينابيع وأسال أنهارًا، وخلق الغيوم وحمَّلها بالمطر الغزير، مُهيئًا بذلك لظهور الحياة النباتية والحيوانية. وأخيرًا خَلَقَ الإنسان.

[٢] J. Viaud, Egyptian Mythology. In: Larousse Encyclopedia of Mythology, Hamlyn, London, 1977, PP. 11–16 ...

وقد وصلتنا هذه الأسطورة منقوشةً على سبعة ألواحٍ فخارية: ستة الألواح الأولى منها مخصصة لوصف فعاليات الإله الخلاقة، أما اللوح الأخير فمُخصص لوصف جلوس الإله مردوخ على العرش في القصر الجديد الذي بناه له رفاقه الآلهة، واحتفالهم بنصره على تنين الماء وخلق العالم، وترنُّمهم بأسمائه الخمسين التي يُعبر كل واحدٍ منها عن صفة من صفاته أو خصيصة من خصائصه.[٣] ولعل هذا ما أوحى إلى المحررين التوراتيين، الذين استلهموا هذه الأسطورة في فترة السبي البابلي، بفكرة أيام الخلق الستة واستراحة الخالق في اليوم السابع، ودبَّجوا قصتهم التي تقوم على العناصر ذاتها التي قامت عليها أسطورةُ التكوين البابلية وبقية أساطير التكوين في الثقافات المشرقية.

(٢) قصة الخليقة التوراتية

على الرغم من أن قصة الخليقة قد تصدَّرت الإصحاحات الأولى من سِفْر التكوين، وهو أول أسفار التوراة العبرانية، إلا أن إشاراتٍ متفرقةً إلى فعاليات إله التوراة يهوه في التكوين قد وردت في عدد من الأسفار الأخرى، حيث نجد يهوه مُنهمكًا قبل الخلق، على طريقة الإله مردوخ، في السيطرة على المياه الأولى وإخضاعها، أو في الصراع مع تنين بحريٍّ يُمثل تلك المياه، يُدْعَى لواياتان أو رهب. نقرأ في سِفْر المزامير: «أنت شققت البحر بقوتك، كسرت رءوس التنانين على المياه، أنت رضضت رءوس لواياتان … لك النهار ولك الليل أيضًا. أنت هيأت النور والشمس، أنت نصبت كل تخوم الأرض. الصيف والشتاء أنت خلقتهما» (المزمور ٧٤: ١٣–١٧). وأيضًا: «أنت متسلِّطٌ على كبرياء البحر، عند ارتفاع لججه أنت تُسكتها. أنت سحقت رهب مثل القتيل، بذراع قوتك بددت أعداءك. لك السموات ولك الأرض أيضًا. المسكونة وملؤها أنت أسستهما، الشمال والجنوب أنت خلقتهما» (المزمور ٨٩: ٩–١٢). وأيضًا: «المؤسسُ الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر وإلى الأبد. كسوتَها الغمر كثوب. فوق الجبال تقف المياه، من انتهارك تهرب، من صوت رعدك تفر تصعد إلى الجبال، تنزل إلى البقاع إلى الموضع الذي أسسته لها. وضعتَ تخمًا لها لا تتعداه، لا ترجع لتغطي الأرض» (المزمور ١٠٤: ٥–٩). ونقرأ في سِفْر إشعيا: «استيقظي، استيقظي، البسي قوة يا ذراع الرب. ألستِ أنتِ القاطعة رهب، الطاعنة التنين؟» (إشعيا ٥١: ٩).

[٣] من أجل النص الكامل لأسطورة التكوين البابلية، ومراجعه، انظر كتابي «مغامرة العقل الأولى»، فصل التكوين البابلي.

وفي الحقيقة فإن فكرة إخضاع المياه البدئية وقتل تنينها، لم ترد إلى الميثولوجيا التوراتية من ميثولوجيا بلاد الرافدَين فقط، وإنما من الميثولوجيا السورية الكنعانية أيضًا. ففي نصوص بعل وعناة التي وردتنا من ثقافة مدينة أوغاريت الساحلية، نجد الإله بعل أقوى وأفتى الأرباب يُخْضِع المياه البدئية المتمثلة في الإله «يم» قبل أن يُباشر مهامه في تنظيم العالم، وترتيب دورة الفصول التي تأتي بالمطر والثلج لخصب الأرض وحياة الزرع. كما إنه يصرع التنين البحري «لوتان»، الذي يظهر في النصوص التوراتية تحت اسم «لواياتان». نقرأ في نصوص بعل الفقرة التالية وما يُقابلها في سِفْر إشعيا التوراتي، حيث يبدو وكأن المحرر التوراتي ينسخ حرفيًّا عن النص الأوغاريتي:

النص الأوغاريتي

والآن تريد أن تسحق لوتان
الحيَّة الهاربة
الآن تريد أن تُجهز على الحية المتحوية
ذات الرءوس السبعة.

سِفْر إشعيا ٢٧: ١

في ذلك اليوم يعاقب الرب
بسيفه القاسي الشديد
لواياتان الحية الهاربة
لواياتان الحية المتحوية
ويقتل التنين الذي في البحر.

نأتي الآن إلى النص الأساسي لقصة الخليقة التوراتية، مع لفت النظر إلى أن لفظ الجلالة «الله»، أينما ورد في التوراة، هو ترجمة للاسم العبري «إيلوهيم»، وهو أحد الأسماء التي استخدمها المحررون التوراتيون في الإشارة إلى إلههم، إلى جانب الاسم إيل والاسم يهوه:

«في البَدْء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خَربةً وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرفُّ فوق وجه المياه. وقال الله: ليكن نور. فكان نور، ورأى الله أنه حسن.

وفصل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهارًا والظلمة دعاها ليلًا. وكان مساء وكان صباح يومًا واحدًا.

وقال الله: ليكن جلدٌ في وسط المياه، وليكن فاصلًا بين مياه ومياه. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك ودعا الله الجلد سماءً. وكان مساء وكان صباح يومًا واحدًا.

وقال الله: لتجتمع المياه التي تحت السماء إلى مكانٍ واحدٍ ولتظهر اليابسة. وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضًا، ومجمع المياه دعاه بحارًا. ورأى الله ذلك أنه حسن، وقال الله: لتنبت الأرض عشبًا وبقلًا يبزر بزرًا، وشجرًا ذا ثمرٍ يعمل ثمرًا كجنسه بزره فيه على الأرض. وكان كذلك. فأخرجت الأرض عُشبًا وبقلًا يبزر بزرًا كجنسه، وشجرًا يعمل ثمرًا بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يومًا ثالثًا.

وقال الله: لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكن لآيات وأوقات وسنين، وتكون أنوارًا في جلد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم، وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يومًا رابعًا.

وقال الله: لتُفِض المياه زحافات ذات نفس حيةٍ، وليطرْ طيرٌ فوق الأرض وعلى وجه السماء. فخلق الله التنانين وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها، وكل طائرٍ ذي جناحٍ كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن، وباركها الله قائلًا: أثمري واكثري واملئي المياه في البحار، وليكثر الطير على الأرض. وكان مساء وكان صباح يومًا خامسًا.

وقال الله: لتُخْرِج الأرض ذوات نفسٍ حيةٍ كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلَّطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى كل الدبابات التي تدبُّ على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرًا وأنثى خلقهم، وباركهم وقال لهم: أثمروا واكثروا واملئوا الأرض وأخضعوها، وتسلَّطوا على سمك البحر وعلى طير السماء، على كل حيوانٍ يدبُّ على الأرض … ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدًّا. وكان مساء وكان صباح يومًا سادسًا.

فأُكملت السموات والأرض وكل جُندها، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل خالقًا» (سِفْر التكوين ١ و٢: ١–٣).

تتفق قصة الخليقة التوراتية في جميع عناصرها تقريبًا مع قصة الخليقة البابلية. فالخلق يتم انطلاقًا من المياه البدئية التي يفصلها الخالق ويصنع منها السماء والأرض. وبعد ذلك تتتابع مراحل خلق بقية مظاهر الكون وفق الترتيب نفسه، ويأتي خلق الإنسان بمثابة الخاتمة، ثم يستريح إله التوراة في اليوم السابع مثلما استراح مردوخ في قصره، واستوى على عرشه أمام بقية الآلهة التي احتفلت به.

(٣) قصة الخليقة القرآنية

كما هو الحال في سِفْر التكوين التوراتي، فإن القرآن الكريم يُخبرنا بأنه في البَدْء لم يكن سوى الله والماء. ثم خلق الله كل شيءٍ في ستة أيام: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ …﴾ (سورة هود: ٧). ويروي ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الحديث الآتي عن الرسول الكريم رواه البخاري ومسلم: «كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذِكر كل شيءٍ.» وفي حديثٍ آخر أن أبا هريرة قال لرسول الله: «إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرَّت عيني، فأخبرني عن كل شيءٍ. قال رسول الله: كل شيءٍ خُلِقَ من ماءٍ» (ابن كثير، ج١١ مجلد ٢، ص٥٧٥. وج١٧ مجلد ٣، ص٢٣٩).

وعندما أراد الله خَلْق العالم، عمد إلى هذه الكتلة المائية البدئية فشقَّها إلى نصفين، وصنع منها السماء والأرض: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ …﴾ (٢١ الأنبياء: ٣٠). ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾، أي كان الجمع متصلًا بعضه ببعض، متلاصقًا مُتراكمًا بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر. ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعًا والأرض سبعًا، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء» (الجزء ١٧، المجلد ٣، ص٢٣٨). وفي موضعٍ آخر يروي ابن كثير عن الربيع بن أنس: «وكان عرشه على الماء، فلما خلق السموات والأرض قسَّم ذلك الماء قسمَين، فجعل نصفًا تحت العرش، وهو البحر المسجور» (الجزء ١١، المجلد ٢، ص٧٥)

بعد ذلك تتتابع عمليات الخَلْق وَفْق ترتيبها في القصة التوراتية تقريبًا، إلا أننا لا نستطيع أن نُرجع كل عمليةٍ إلى يومٍ بعينه من أيام التكوين. فقد رفع الله السماء وتركها

في حالةٍ سديميةٍ غير منظمةٍ، ثم التفت إلى تنظيم الأرض فرسم معالمها وخلق نباتاتها وحيواناتها: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (٣١ لقمان: ١٠). ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٣٦ النازعات: ٢٧–٣١). ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ...﴾ (٢١ الأنبياء: ٣١–٣٢).

وقد استغرق خلق الأرض وتنظيمها أربعة أيامٍ من أيام الخلق الستة. بعد ذلك التفت الله إلى السماء وهي في حالتها السديمية، فنَظَّم أمورها وزيَّنها بالأجرام المضيئة والكواكب التي تسير في أفلاكها: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٤١ فُصِّلت: ٩–١٢).

وهنالك آيات أُخرى تُشير باختصارٍ إلى فعاليات التكوين دون أن توحي بترتيبٍ مُعين، منها: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ...﴾ (٢١ الأنبياء: ٣٣). ﴿... وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ...﴾ (٦ الأنعام: ٩٦). ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ...﴾ (١٠ يونس: ٥). ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (٢٥ الفرقان: ٦١). ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ (٣٦ يس: ٣٣–٣٤). ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ (٤٢ الشورى: ٢٩).

بعد ذلك يأتي خلق الإنسان كآخر عملٍ من أعمال التكوين: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ... إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢ البقرة: ٢٩–٣٠).

وكما رأينا الربَّ في الرواية التوراتية يستريح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، فإن الله يستوي على العرش في اليوم السابع: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ...﴾ (٥٧ الحديد: ٤). ولكن الاستواء على العرش هنا لا يتضمَّن معنى الراحة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ[٤]﴾ (٥٠ ق: ٣٨).

وهنالك عنصر في الرواية القرآنية لم يَرِد في سِفْر التكوين التوراتي، وهو خلق سبع سموات وسبع أرضين: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ...﴾ (٦٥ الطلاق: ١٢). ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ...﴾ (٦٧ الملك: ٣). ولكن مثل هذا التصور للسماء والأرض قد ورد في الأدبيات الدينية اليهودية، ومنها ما جاء في كتاب الهاجاده (وهو نوعٌ من الشروح على التوراة يستخدم أسلوب القص.) فعندما خلق الله السماء جعلها سبع طبقاتٍ، تتدرَّج من السماء الدنيا التي تستند قبتها إلى الأرض عند الجهات الأربع، وحتى السماء السابعة التي تتصل بيدَي الخالق. كما جعل الأرض أيضًا سبع طبقات، ثم جعل الجحيم في الجهة الشمالية من الأرض وقَسَّمَه إلى سبع درجات، وجعل الفردوس في الجهة الشرقية وقسَّمه إلى سبع درجات أيضًا.[٥]

وقد غَدَا هذا التصوُّر لطبقات السماء والأرض جزءًا من العقائد اليهودية الراسخة، والتي تتفق مع التصورات الكوزمولوجية لثقافات الشرق القديم، التي رأت أيضًا أن السماء تتألَّف من سبع طبقات، وفوق السماء السابعة هناك مسكن إله السماء المدعو آنو في بلاد الرافدَين، وإيل في بلاد الشام. والتي رأت أيضًا أن الأرض تندرج هبوطًا في سبع طبقات نحو العالم الأسفل (أو الجحيم)، وفي كل بوابة من بوابات الجحيم.

---

[٤] (= تعب).

[٥] Willis Barnston, The Other Bible, Harper, New York, 1980, pp. 16–19.

قصة خلق الإنسان

(١) الخلفية الميثولوجية

كانت الميثولوجيا السومرية أول مَنْ عالج قصة خلق الإنسان في الأدب المكتوب، وذلك في نصٍّ يعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. فقبل أن يظهر الإنسان على مسرح الأرض ويقدم لآلهته القرابين التي تقيم أودَهُم، كان الآلهة يعملون ويكدُّون في الأرض من أجل تحصيل معاشهم. ثم جاء يوم تعبوا فيه من العمل فمضوا إلى إله الحكمة إنكي ليجد لهم حلًّا، ولكن إنكي لم يعطِ أذنًا صاغيةً لشكواهم، فمضوا إلى أمه نمو لتكون واسطتهم إليه. فخاطبته قائلة: «أي بني، انهض من مضجعك واصنع أمرًا حكيمًا. اجعل للآلهة خدمًا يقدمون لهم معاشهم.» نزل إنكي عند مشيئة أمه وأعطى تعليماته بخصوص عملية صنع الإنسان التي شارك بها كلٌّ من الإلهة نمو والإلهة ننماخ (= الأم الأرض) وآلهة الصناعة وربات الولادة، وجرى صنع الإنسان من الطين على صورة الآلهة. وعند هذه النقطة ينكسر الرقيم الفخاري وتضيع بقية القصة.[١]

وقد التقطت الميثولوجيا البابلية اللاحقة العناصر الرئيسة لهذه القصة، وصاغت منها تصورات مشابهة فيما يتعلق بخلق الإنسان. ففي ملحمة أتراحاسيس نجد الآلهة المكلفين بالعمل والكد في الأرض يُعلنون الثورة على وضعهم، ويحرقون أدوات عملهم ثم يمضون إلى الإله إنليل طالبين إنصافهم، فيوكل إنليل إلى الإلهة مامي (= ننماخ أو ننتو) مهمة خَلْق

---

[١] S. N. Kramer, Sumerian Mythology, Harper, New York, 1961.

الإنسان التي تنفذها بالتعاون مع الإله إنكي، حيث يتم قتل أحد الآلهة ويعجن دمه ولحمه بالطين الذي يُصْنَع منه جسد الإنسان. وبذلك يتحد الإله والإنسان في عجينةٍ واحدةٍ.[٢]

ولدينا نصٌّ بابليٌّ يتحدث عن خلق الزوجَين الأولَين آدم وحواء، ويدعوهما أوليجار وألجار اللذين سوف يحملان وذريتهما عبء العمل عن الآلهة. فبعد الانتهاء من فعاليات التكوين، اجتمع الآلهة وتساءلوا عما بقي عليهم خلقه. فقال بعضهم لبعض: «لنذبح بعض آلهة اللامجا (وهم فصيلة من صغار الآلهة)، ومن دمائهم فلنخلق الإنسان فنوكله بخدمة الآلهة على مر الأزمان. سنضع في يده السلة والمعول، فيحفر الخنادق والترع، ويسقي الأرض بأقاليمها الأربعة، ويُخرج من جوفها الخيرات الوفيرة، أوليجار وألجار سيكون اسماهما.»[٣]

(٢) خلق الإنسان في التوراة

تقوم قصة خلق الإنسان التوراتية على ثلاثة عناصر رئيسة من العناصر التي قامت عليها الأساطير الرافدينية، وتضيف إليها عنصر الجنة حيث تم إسكان الإنسان الأول. وهذه العناصر هي:

(١) خَلْق الإنسان من ترابٍ ممزوج بالماء.
(٢) صُنعه على شبه الآلهة.
(٣) فَرْض عبء العمل عليه.

في الإصحاحَين الأول والثاني من سِفْر التكوين، لدينا قصتان عن خَلْق الإنسان كما هو الحال في الأساطير الرافدينية؛ في القصة الأولى هنالك حديثٌ عن خلق الإنسان بصورةٍ عامة دون الإشارة إلى الزوجَين الأولَين، وفي القصة الثانية هنالك حديثٌ مفصَّل عن خَلْق الزوجَين الأولَين؛ فقد خلق الله الرجل آدم أولًا وأسكنه في جنةٍ زرعها في منطقةٍ من الأرض يدعوها النصُّ بشرقي عدن، ثم خلق من ضلعه المرأة حواء.

وفي الحقيقة، فإن كلمة «آدم» التي استخدمها سِفْر التكوين كاسم علم للرجل الأول؛ هي كلمةٌ سورية قديمة تدل على الإنسان بشكلٍ عام، وتعني «البشر»، وقد وردت بهذا

---

[٢] Stephaie Dally. Mesopotamian Myths and Epics, Oxford, 1999.

[٣] Alexander Heidel, The Babylonian Genesis, Phoenix, Chicago, 1970.

المعنى في أكثر من موضعٍ في نصوص مدينة أوغاريت. ومنها ما ورد في ملحمة كِرت، حيث نجد الإله الأعلى إيل يُلقَّب بأبي آدم، أي أبي البشر: «وبينما كِرت يبكي وقع عليه السبات، بينما هو يذرف الدموع غلبه النعاس، ولكنه ما لبث أن أجفل، إذ ظهر له في الحلم إيل، في رؤاه ظهر أبو آدم.»[٤]

(٢-١) سِفْر التكوين – القصة الأولى

«وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلَّطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدبُّ على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرًا وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم: أثمروا واكثروا، واملئوا الأرض وأخضعوها، وتسلَّطوا على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدبُّ على الأرض. وقال الله: إني قد أعطيتكم كل بقلٍ يبزر بزرًا، وكل شجرٍ فيه ثمر ليكون لكم طعامًا» (١: ٢٦–٢٩).

(٢-٢) سِفْر التكوين – القصة الثانية

«هذه مبادئ السموات والأرض حين خُلِقَت. يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات، كل شجر الأرض لم يكن بعدُ في الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعدُ؛ لأن الرب لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسان ليعمل في الأرض. ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض. وجبل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسًا حية. وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقًا، ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرةٍ شهيةٍ للنظر وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر … وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الرب الإله آدم قائلًا: من جميع شجر الجنة تأكل أكلًا، وأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها؛ لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت.

وقال الرب الإله: ليس جيدًا أن يكون آدم وحده، فأصنعُ له مُعينًا نظيره. وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا

[٤] راجع كتابي: مدخل إلى نصوص الشرق القديم، فصل ملحمة كرت.

يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفسٍ حيةٍ فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية، وأما نفسه فلم يجد معينًا نظيره. فأوقع الرب الإله سباتًا على آدم فنام، وأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحمًا. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي، هذه تُدْعَى امرأة؛ لأنها من امرئ قد أُخِذَت؛ لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدًا واحدًا. وكانا كلاهما عريانين، آدم وحواء، وهما لا يخجلان» (٢: ١–٢٥).

غير أن الرواية غير الرسمية في الأسفار التوراتية غير القانونية، وفي الأدبيات اليهودية الأخرى، تُضيف العديد من العناصر إلى هذه الرواية. ولعل أكثر التنويعات غنًى وإثارة، هي ما قدمه لنا كتاب «الهاجاده» الذي زاد على الرواية الرسمية عددًا من العناصر، أهمها:

(أ) استطلاع الله رأي الملائكة بخصوص ما هو مُقْدِم عليه من خلق الإنسان.
(ب) تحدِّي الله للملائكة لكي يُخبروه بأسماء حيوانات الأرض قبل عرضها على آدم.
(ج) الله يُعلِّم آدم أسماء الحيوانات قبل عرضها عليه.
(د) مع خَلْق آدم يخلق الله جميع أرواح البشر الذين سيتسلسلون من صلبه.

وفيما يأتي أقدِّم ملخصًا لقصة خلق الإنسان كما وردت في الهاجاده.[٥]

«في البدء خلق الله سبعة أشياء قبل أن يخلق العالم هي: التوراة مسطرةٌ بنار بيضاء على نار سوداء، والعرش الإلهي، والفردوس عن يمين العرش، والجحيم عن يسار العرش، والهيكل المقدس أمام العرش، ومذبح الهيكل، وجوهرة على مذبح الهيكل محفور عليها اسم المسيح المخلص. وعندما أراد خَلْق العالم تشاور مع التوراة بهذا الخصوص، فأبْدَت التوراة شكَّها من جدوى خَلْق العالم الأرضي؛ لأن الناس سوف يُشيحون بوجوههم عن تعاليمها ويقعون في المعصية، ولكن الله بدَّد شكوكها بقوله: إنه هيَّأ للبشر سبل التوبة والغفران قبل خلقهم، وأعدَّ لهم وسائل تصحيح سلوكهم، وإنه قد جهَّز الفردوس والجحيم لأجل الثواب والعقاب، وسمى المسيح من أجل تقديم الخلاص لجميع الخطأة.

بعد أن انتهى الله من خَلْق السموات وملائكتها والأرض وكائناتها جاء دور الإنسان. وهنا يستطلع الله رأي رؤساء الملائكة فيما يتعلق بهذه الخطوة، فجاءت مشورة معظمهم في

[٥] Willis Barnstone, The Other Bible, Harper-Collins, New York, 1980, pp. 15FF.

غير صالح الإنسان؛ لأنه سيكون ممُتلئًا بالكذب والغش والخداع، ميَّالًا إلى النزاع والخصام، فقال لهم: من أجل من خلقت طير السماء وسمك البحر وحيوان الأرض؟ وما نفع وليمة أُعِدَّت فيها كل الطيبات وما من ضيف يتمتع بها؟ فأجاب الملائكة: ليكن اسمك مُمجدًا في الأرض كلها، ولتأتِ مشيئتك بما تراه مناسبًا.

أرسل الله الملاك جبرائيل وأمره أن يأتيه بأربع قبضات من تراب جهات الأرض الأربع، ثم عجنها بيدَيه وسواها في هيئة الإنسان، ثم نفخ في الصورة من روحه فصار آدم نفسًا حيَّة. وبذلك صار الإنسان أقدم مخلوقات الله لا آخرها في ترتيب الخلق، باعتبار ما لروحه من قِدم هو قدم الروح الإلهية ذاتها. ومع خَلْق آدم خلق الله جميع أرواح البشر الذين سيتسلسلون من صلبه إلى يوم القيامة، وحفظها في مكانٍ خاصٍّ من السماء السابعة. وسيكون إذا حملت امرأة من نساء الأرض، فإن الله يقرر للكائن الجديد كل صفاته وخصائصه عدا تلك المتعلقة بالخير والشر؛ لأنه سيكون إنسانًا مخيرًا في سلوكه يتحمَّل تبعات أعماله. بعد ذلك يأمر الله خازن الأرواح أن يأتيه بالروح التي اسمها كذا، وتؤمر أن تحلَّ في الجسد الذي بدأ في التكوُّن.

ولقد خرج آدم من يد الخالق إنسانًا تام التكوين في العشرين من عمره، فأسكنه في جنة عدن ليحفظها ويرعاها، لا بواسطة عمله الجسدي، وإنما من خلال دراسته للتوراة والتزامه وصايا ربه. هذه الجنة قد زرعها الله في عدن شرقًا وذلك في اليوم الثالث من أيام التكوين، وقسَّمها إلى سبع درجات لتستقبل كل درجةٍ أهلها وفق ما قدموا في الحياة الدنيا، وجعل لها بوابتَين عليهما ألوف من ملائكة الرحمة. فإذا وصل واحد من أهل الجنة نضى الملائكة عنه حُلَّة القبر، وألبسوه عباءة من سحاب المجد، ووضعوا على رأسه إكليلًا من لآلئ وأحجار كريمة، وفي يده سبعة أغصان تفوح بأطيب روائح الجنة، ثم اقتادوه إلى مكان ربيع دائمٍ تجري تحته أربعة أنهار، فنهر من لبن، ونهر من بلسم، وثالث من خمر، ورابع من عسل. وهناك عرائش تتدلَّى منها عناقيد من ذهبٍ وجواهر، وتحت كل عريشة مائدة منصوبة من حجرٍ كريم يقف عليها ستون ملاكًا يقولون للرجل الصالح: كُلْ طعامك بفرحٍ. وليس في المكان نورٌ يأتيه من خارجه؛ لأن نوره مُستمدٌّ من ضياء وجوه الصالحين الذين تحوَّلت هيئاتهم فصارت تُضاهي يوسف في الحسن والجمال.

بعد أن أسكن الله آدم في الجنة، أراد أن يُثبت للملائكة الذين عارضوا في خَلْق آدم تفوقه عليهم، فجمع حيوانات الأرض وعرضها عليهم لينبئوه بأسمائها ولكنهم عجزوا عن

ذلك، ثم عرضها على آدم بعد أن علَّمه أسماءها وحيًا، فسماها آدم بأسمائها. فلقد كان آدم نبيًّا وحكمته من حكمة الأنبياء.»

(٣) خلق الإنسان في القرآن

تقوم الرواية القرآنية عن خلق الإنسان على العناصر نفسِها التي وجدناها في سِفْر التكوين وفي كتاب الهاجاده، على ما تبينه المقارنة الآتية:

(١) جسد الإنسان يُصْنَع من الطين:

«وجبل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض» (التكوين ٢: ٧).

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (٥٥ الرحمن: ١٤).

(٢) يستخدم الله يدَيه في صنع الإنسان تكريمًا له على باقي المخلوقات:

«وجبل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض» (التكوين ٢: ٧). «عجن الله بيدَيه أربع قبضاتٍ من تراب الأرض وسوَّاها إنسانًا» (الهاجاده).

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ...﴾ (٣٩ الزمر: ٧٥).

(٣) بعد أن صنع الله جسد آدم من ترابٍ، نفخ فيه من روحه ليصير نفسًا إنسانيةً:

«ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسًا حية» (التكوين ٢: ٧). «ثم نفخ في صورة آدم من روحه، فصار آدم نفسًا حية» (الهاجاده).

﴿... وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ... ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ...﴾ (٣٢ سورة السجدة: ٧–٩).

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٣٨ ص: ٧١–٧٢).

(٤) الله يستشير الملائكة في مسألة خَلْق الإنسان قبل أن يُقْدِم عليه:

«استطلع الله رأي رؤساء الملائكة فيما هو مُقْدِمٌ عليه، فجاءت مشورة معظمهم في غير صالح الإنسان؛ لأنه سيكون مُمتلئًا بالكذب والغش والخداع، ميَّالًا إلى النزاع والخصام» (الهاجاده).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ... قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢ البقرة: ٣٠).

(٥) الله يُعد جنة غنَّاء في منطقة شرقي عدن، ويُسكن فيها آدم:

«وغرس الرب الإله جنةً في عدن شرقًا، ووضع هناك آدم الذي صنعه» (التكوين ١: ٨).

«ولقد خرج آدم من يد الخالق إنسانًا تام التكوين في العشرين من عمره، فأسكنه الله في الجنة التي غرسها في عدن شرقًا» (الهاجاده).

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...﴾ (٢٠ طه: ٧٦). ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ...﴾ (٢ البقرة: ٣٥).

(٦) «مع خَلْق آدم خلق الله جميع أرواح البشر المتسلسلين من صلبه إلى يوم القيامة، وحفظها في مكانٍ خاص من السماء السابعة» (الهاجاده).

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ...﴾ (٧ سورة الأعراف: ١٧٢).

(٧) الله يتحدَّى الملائكة أن يخبروه بأسماء حيوانات الأرض:

«وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها ... فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية» (التكوين ٢: ١٩–٢٠).

«بعد أن أسكن الله آدم في الجنة، أراد أن يثبت للملائكة تفوُّقه عليهم، فجمع حيوانات الأرض وعرضها عليهم زوجًا زوجًا لينبئوه بأسمائها، ولكنهم عجزوا. فعرضها على آدم بعد أن علَّمه أسماءها وحيًا، فسماها آدم بأسمائها» (الهاجاده).

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ (٢ البقرة: ٣١–٣٣).

(٨) الله يخلق المرأة من جسد آدم:

«فأوقع الرب الإله سُباتًا على آدم فنام، فأخذ واحدةً من أضلاعه وملأ مكانها لحمًا، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأةً وأحضرها إلى آدم» (التكوين ٢: ٢–٢٢). «ودعا آدم اسم امرأته: حواء؛ لأنها أم كل حيٍّ» (التكوين ٣: ٢٠).

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ...﴾ (٣٩ الزمر: ٦). ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

وَنِسَاءً ...﴾ (٤ سورة النساء: ١). وكما نلاحظ هنا فإن القرآن الكريم لا يتعرَّض لعنصر الضلع الذي أُخِذ من آدم، ويكتفي بالقول بأن المرأة قد خُلِقَت من الرجل، كما إنه لا يشير إلى اسم المرأة الأولى.

إبليس الملاك الساقط

(١) الخلفية التاريخية

لقد واجه الإنسان منذ فجر وعيه ثلاثة أنواعٍ من الشرور وهي:

(١) الشرور الطبيعانية: مثل البراكين والزلازل والأعاصير والفيضانات والحرائق.
(٢) الشرور البيولوجية: مثل الألم والمرض والشيخوخة والموت.
(٣) الشرور الأخلاقية: مثل السرقة والاغتصاب والتسلط والظلم.

ولكن أديان الإنسان القديم لم تربط بين هذه الشرور ومصدرٍ كونيٍّ للشر، وإنما عَزَتْهَا إلى وجود أرواحٍ أو آلهةٍ خيِّرة بطبيعتها وأخرى شريرة بطبيعتها. فالنظام المستقر والمتوازن على المستوى الطبيعاني والبيولوجي تدعمه هذه، والخروج على النظام تقوم به تلك. وقد قاده هذا التصور إلى تطوير نوعَين من الطقوس؛ الأول: يهدف إلى طلب عون الآلهة الخيِّرة، والثاني: يهدف إلى اتقاء أذى الآلهة الشريرة. أما الشر الأخلاقي فقد بقي شأنًا اجتماعيًّا لا يتصل بتلك القوى الماورائية أرواحًا كانت أم آلهة، فالذي يسرق أو يظلم أو يعتدي ليس مدفوعًا من قِبَل إلهٍ شرير، والذي يُنصف ويُعين ويرأف ليس أيضًا مدفوعًا من قِبَل إله خير. وهكذا تُرِكَت المجتمعات الإنسانية لتدير شئونها الأخلاقية من خلال أعرافها وعاداتها المحلية دون وصاية من قوة قدسيةٍ ما.

من خلال هذه التصورات، لم يكن وجود الشر في العالم يطرح أي مشكلةٍ على الفكر الديني للإنسان القديم، ولكن هذه المشكلة غَدَتْ أكثر إلحاحًا مع ميل الفكر الديني المشرقي إلى مفهوم التوحيد في سياق الألف الأول قبل الميلاد، عندما أخذ ذلك الفكر ينظر إلى الكون

باعتباره وَحْدة مترابطةً متكاملة يسودها نظامٌ دقيقٌ يجمع الأجزاء إلى بعضها في توازنٍ محكمٍ، ويرى وراء هذا الكون قدرة إلهية واحدة غير مُجزَّأة، كلية الحضور وكلية القدرة وكلية المعرفة، إليها تُعْزَى كل الكمالات التي تنتهي جميعًا إلى كمال الخير. عند هذه النقطة وجد الفكر التوحيدي نفسه أمام مشكلةٍ تتطلَّب الحل؛ فإذا كان الله هو الخير المحض فمن أين يأتي الشر؟ أمام هذا السؤال تحوَّلت آلية التفكير الجدلية بطبيعتها عند الإنسان إلى مفهوم الشيطان الكوني. وهذا الشيطان ليس كائنًا ماورائيًّا شريرًا من تلك الكائنات التي عرفتها الديانات السابقة، وإنما هو أصل الشر ومنبعه على المستوى الطبيعاني والبيولوجي والأخلاقي، إنه نقيض الله على كل صعيدٍ.

كانت الزرادشتية (وهي أول ديانةٍ توحيديةٍ معروفةٍ لنا تاريخيًّا، إذا استثنينا الآتونية المصرية التي لا نعرف عنها الكثير) أولَ عقيدةٍ مشرقية صاغت مفهومًا متكاملًا عن الشيطان الكوني. فوفق التعاليم الأصلية لزرادشت، لم يكن في البدء سوى الله الذي يدعوه زرادشت أهورامزدا، وجود كامل وتام، قائم بذاته ومكتفٍ بنفسه. ثم إن الله اختار الخروجَ من حالة الكمون والظهورَ لمخلوقاته، فصدر عنه روحان توءمان هما: سبينتا ماينيو وأنجرا ماينيو، اللذان وهبهما الله أهمَّ خَصِيصة تميزهما عنه وتجعلهما كائنَين مستقلَّين وهي خَصِيصة الحرية، فاختار الأول طريق الخير ولذلك دُعِي سبينتا ماينيو أي الروح المقدس، واختار الثاني طريق الشر؛ ولذلك دُعِي أنجرا ماينيو أي الروح الخبيث. ثم إن الروح المقدس سبينتا ماينيو عمد بمعونة أهورامزدا إلى إظهار ستة كائناتٍ قدسيةٍ هم الأميشا سبينتا أي المقدسون الخالدون، وهؤلاء بدورهم عمدوا إلى إظهار عددٍ من الكائنات الطيبة تُدْعَى بالأهورا. أما الروح الخبيث أنجرا ماينيو فقد أظهر إلى الوجود عددًا من الكائنات الشريرة تُدْعَى بالديفا. وهكذا فقد تم تأسيس معسكر الخير في مقابل معسكر الشر في انتظار المجابهة على مسرح العالم المادي الذي خلقه بعد ذلك أهورامزدا على ستِّ مراحل، وكان الإنسان آخر ما خلق في المرحلة السادسة. ومع خَلْق الإنسان انطلق التاريخ الذي سيشهد صراعًا لا هوادة فيه بين المعسكرَين، وينتهي بالانتصار المؤزَّر لقوى الخير على قوى الشر. وسوف يقود المعركة الأخيرة ضد قوى الشر مخلِّص منتظَر يُدْعى ساوشيانط، وهو الذي يقضي على الشيطان. وبعد ذلك يجري تدمير العالم القديم الملوث بالشر، ثم تجديده ليغدوَ جنَّة أرضية. ثم تُفْتَح القبور في يوم النشور، فتهبط الأرواح من البرزخ الذي كانت تُقيم فيه لتتحد مع أجسادها، وتأتي إلى الحساب الذي يفصل بين

الأشرار والأخيار. فأما الأشرار فيحرقهم نهر من النار ويمحو أثرهم بعد عذابٍ أليم، وأما الأخيار فيعيشون في الجنة الأرضية بعد أن يسقيهم ربُّهم شراب الخلود.[١]

(٢) الشيطان في التوراة

لم تتعرض قصة الخلق التوراتية إلى خلق الملائكة أو الشياطين أو أي كائنات ماورائية أخرى، على الرغم من أن هذه الكائنات تبدأ بالظهور تباعًا بعد ذلك، ولكن محرِّر سِفْر التكوين ترك لنا جملةً غامضةً في نهاية قصة الخلق يقول فيها: «فأُكْمِلَت السموات والأرض وكل جندها، وفرغ في اليوم السابع من عمله.» وهذا يعني أن يهوه لم يكن وحيدًا عندما فرغ من خَلْق العالم، بل كان مُحاطًا بحشدٍ من الكائنات الماورائية التي دعاها المحرِّر بجند السماء. وعلى الرغم من استخدام المحررين التوراتيين معاني مختلفة لتعبير جند السماء. إلا أنهم استخدموه في معظم الأحيان كمرادف لتعبير ملائكة الرب، وهؤلاء هم خدمه العاملون على تنفيذ أوامره ومساعدته في تدبير شئون الكون. نقرأ في سِفْر أخبار الأيام الثاني على لسان النبي ميخا: «قد رأيت الرب جالسًا على كرسيِّه، وكل جنود السماء وقوف عن يمينه ويساره» (٢ أخبار ١٨: ١٨). وفي المزمور ١٠٣: «باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوةً، الفاعلين أمره عند سماع صوت كلامه، باركوا الرب يا جميع جنوده، خدامه العاملين مرضاته» (١٠٣: ١٩–٢١).

ومن بين جند الرب، أو جند السماء، جماعة أشرار هم الشياطين. وهؤلاء ليسوا خلقًا مستقلًّا وإنما فريقٌ من الملائكة موكلون بشئون الشر هم أداة غضب يهوه: «أرسلَ عليهم حُموَّ غضبه، سخطًا ورجزًا وضيقًا، جيش ملائكة أشرار مهَّد طريقًا لغضبه» (المزمور ٧٨: ٤٩–٥٠). من هؤلاء الأشرار اثنان يسيران مع يهوه عندما يخرج في مهام التدمير؛ أحدهما يُدْعَى في النص العبري رشف، وهو إله الأوبئة الفتَّاكة في الميثولوجيا الكنعانية، والثاني يُدْعَى دبير أي الحُمَّى: «جلاله غطى السموات والأرض امتلأت من تسبيحه، وكان له لمعان كالنور. قدامه ذهب الوباء (= رشف)، وتحت رجليه خرجت الحمى (= دبير)[٢] …

[١] لمزيدٍ من الاطلاع على لاهوت الشيطان في الزرادشتية، راجع مؤلفي: «الرحمن والشيطان»، فصل ميلاد الشيطان.

[٢] بخصوص رشف ودبير راجع:

W. F. Allbright, Yahweh and the Gods of Canaan, Anchor, 1969, pp. 186, 139–140.

بغضبٍ خطرْتَ في الأرض، بسخطٍ دُسْتَ الأمم» (حبقوق ٣: ٣–١٢). ومنهم واحدٌ يُدْعَى المهلك مكلفٌ بالتخريب والتدمير. نقرأ على لسان يهوه في سِفْر إشعيا: «وأنا خلقت المهلك ليُخرب» (إشعيا ٥٤: ١٦). وفي سِفْر إرميا: «قد صعد الأسد من غابته وزحف مهلك الأمم، خرج من مكانه ليجعل أرضك (يا يهوذا) خرابًا، تهلك مدنك فلا ساكن» (إرميا ٤: ٧). وبينهم أرواح رديئةٌ تتلبس مَنْ يخطئ أمام الرب وتسبِّب له الجنون، على ما حدث للملك شاؤل: «وذهب روح الرب من عند شاؤل وبغتهُ روح رديء من قِبَل الرب ... وكان في الغد أن الروح الرديء من قِبَل الرب اقتحم شاؤل وجُنَّ في وسط البيت» (صموئيل الأول ١٦: ١٤ و١٨: ١٠).

بين هذه الكائنات الشريرة التي تعمل تحت إمرة يهوه شخصية رئيسة تُدْعَى بأكثر من اسم؛ فتحت اسم عزازيل نجده أشبه بالجن التي تسكن البوادي والقفار غير المأهولة، وهو يقتسم قربان الخطيئة مع يهوه، أي القربان الذي يغسل بدمه خطايا الشعب، الأمر الذي يدلُّ على علو مكانته. نقرأ في سِفْر اللاويين: «ويأخذ هارون التيسَين ويوقفهما أمام الرب لدى باب خيمة الاجتماع، ويلقي على التيسَين قرعتَين؛ قرعة للرب وقرعة لعزازيل. ويقرِّب هارون التيس الذي خرجت عليه القرعة للرب ويعمله ذبيحة خطيئةٍ، وأما التيس الذي خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقفه حيًّا أمام الرب ليُكفِّر عنه ليرسله إلى عزازيل في البرية» (اللاويين ١٦: ٥–١٠). وتحت الاسم بليعال نجده موكلًا بشئون فاعلي الإثم الذين يدعوهم النص ببني بليعال (راجع على سبيل المثال سِفْر القضاة (١٩: ٢٢–٢٣)، وسِفْر الملوك الأول (٢١: ١٠). وتحت الاسم شيطان، وهو بالعبرية شطن أي المقاوم والمعاند، نجده في اتفاقٍ مع يهوه يُنفِّذ مهام تُوكل إليه، على ما نستنتج من المزمور ١٠٩ الذي يدعو كاتبه ربه أن يُرسل من عنده شيطانًا على خصمه: «فأقم أنت عليه شريرًا وليقف شيطان عن يمينه. إذا حوكم فليخرج مذنبًا، وصلاته فلتكن خطيئة» (المزمور ١٠٩: ٦–٨). كما نجده يعمل في استقلالٍ عن يهوه معارضًا لمشيئته، على ما نجد في سِفْر زكريا، حيث ينتهر الرب الشيطان لأنه وقف عن يمين الكاهن زكريا ليقاومه: «وأراني (الملاكُ) الكاهنَ العظيم يهوشع قائمًا قدام الرب، والشيطان قائم عن يمينه ليقاومه. فقال الرب للشيطان: لينتهرك الرب يا شيطان، لينتهرك الرب الذي اختار أورشليم» (زكريا ٣: ١–٢).

والشيطان كشخصيةٍ مستقلةٍ في عملها قادرٌ على خداع يهوه، على ما نرى في سِفْر أيوب عندما أوغر صدر يهوه على عبده الصالح أيوب، بعدما سمع منه مديحًا بحقه،

ووصَفه بأنه رجلٌ صالح كامل ومستقيم، فقال له: إن أيوب لا يتَّقيه مجانًا، وإنما لما أغدق عليه من سعةٍ في الرزق وصحةٍ في البدن، ولكن إذا ناله الضرُّ من ربه فإنه سيجدف عليه. عند ذلك أطلق يهوه يد الشيطان في أيوب ليُنْزِلَ به المصائب في ماله وأهله وصحته، لكي يختبر قلبه.

هذه هي الملامح العامة لشخصية الشيطان كما تتبدَّى لنا في النص التوراتي. وكما نلاحظ، فإن الشيطان التوراتي لم يتحوَّل إلى مبدأ كونيٍّ للشر حتى اختتام الأسفار القانونية في القرن الثاني قبل الميلاد. والسبب في ذلك راجع إلى تقصير الأيديولوجيا التوراتية عن بلوغ مفهوم الكمال والخير المُطلق في شخصية يهوه، الذي بقي يتصرف حتى النهاية كزعيمٍ قبلي مدفوع بردود أفعاله الآنية وبعواطفه الفطرية، مثل الغضب والغيرة والانتقام، وهذا ما دفع بالشيطان إلى دائرة الظل عبر أحداث الرواية التوراتية؛ لأن يهوه هو صانع الخير وصانع الشر في آنٍ معًا، على ما يعلن محرر سِفْر إشعيا على لسان إلهه: «أنا الرب وليس آخر. مصور النور وخالق الظلمة. صانع السلام وخالق الشر. أنا صانع كل هذا» (إشعيا ٤٥: ٦–٧). ونقرأ في سِفْر يشوع بن سيراخ: «الخير والشر، الحياة والموت، الفقر والغنى، من عند الرب» (١١–١٤). ولكن شخصية الشيطان تطوَّرت بعد ذلك على يد محرري الأسفار غير القانونية التي مارست تأثيرًا كبيرًا في الفكر التلمودي وفي العقائد اليهودية، على الرغم من بقائها على هامش النص الرسمي للكتاب. وقد كان للأفكار الدينية الزرادشتية أثرٌ كبير في نضوج لاهوت الشيطان في العقائد اليهودية بعد أن آلت المنطقة السورية إلى الحُكم الفارسي بين عام ٥٣٩ و٣٣٣ق.م.

يقدم لنا سِفْر أخنوخ الأول الذي ترجع أصوله الأولى إلى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، التصورات اللاهوتية المبكرة التي تشرح انقسام الملائكة إلى فريق صالحٍ وآخر طالحٍ شرير. ففي تلك الأيام الأولى:

> «عندما تكاثر بنو الإنسان وولد لهم بنات حسنات وجميلات، حدث أن فريقًا من الملائكة أبناء السماء رأوا بنات الأرض فاشتهوهنَّ، فقال بعضهم لبعض: هلمَّ بنا نختار لأنفسنا زوجاتٍ من بني الإنسان وننجب منهنَّ نسلًا. فقال لهم رئيسهم سيمياز: أخشى أن تتراجعوا عن فعل هذا الأمر بعد الشروع به فأدفع وحدي ثمن هذه الخطيئة العظيمة. فأجابوه جميعًا: دعونا نُقسم قسمًا بأن تحلَّ اللعنة على مَن يتراجع عن فعل هذا الأمر. فأقسموا جميعًا وارتبطوا بقسم اللعنة هذا.

ثم نزلوا فهبطوا على قمة جبل حرمون، وكان عددهم مائتين. وقد سُمِّي الجبل حرمون نسبةً إلى قسمهم الذي ربطهم باللعن (لأن كلمة حِرم بالعبرية تعني لعنة.) وهذه أسماء رؤسائهم: سيمياز، راميئيل، تاميئيل، دانيئيل ... (إلخ). هؤلاء هم رؤساء العشرات، وكان الجميع تحت إمرتهم.»[٣]

بعد ذلك يتابع الكاتب فيقول: إن زوجات هؤلاء الملائكة الساقطين ولَدْن لهم أولادًا عمالقة أكثروا من الشر في الأرض وأكلوا الأخضر واليابس، وعندما لم يبقَ ما يكفي لطعامهم راحوا يلتهمون البشر أيضًا، فصعد صراخ البشر إلى السموات. عند ذلك نظر الملائكة ميخائيل وسورافيل وجبرائيل من الأعالي ورَأَوْا ما يجري على الأرض من شرٍّ وعنفٍ، فمضوا إلى الرب وأطلعوه على الأمر، فبعث الرب مع الملائكة إلى أخنوخ يأمره أن يذهب إلى الساقطين، وينقل لهم قضاء السماء بشأنهم؛ فهم سيشهدون ذبح أولادهم العمالقة ثم يُقَيَّدون في ثنايا الأرض حتى يوم الدينونة عندما يُقادون إلى هوة النار والعذاب الأبدي. سمع الساقطون حكم الرب عليهم فارتاعوا، والتمسوا من أخنوخ التوسط لهم لدى الرب علَّه يقبل استرحامهم واستغفارهم. فمضى أخنوخ وجلس عند ضفة النهر حيث قرأ استرحام الساقطين، ثم غرق في نومٍ عميقٍ وعرضت له رؤيا حملته إلى السماء، حيث وضعه الملائكة في حضرة الرب الذي كلَّمه قائلًا: «لا تخَفْ يا أخنوخ أيها الرجل الطيب يا كاتب الصدق. تقدم إليَّ واسمع صوتي. اذهب إلى ساهري السماء (وهو لقب الساقطين لأنهم كانوا مُكلَّفين بالسهر على أحوال الأرض، وتفقُّدها على الدوام) وقل لهم: كان أحرى بكم أن تسترحموا من أجل الإنسان لا أن يسترحم الإنسان من أجلكم. وقل لهم: لماذا توليتم عن السماء العليا المقدسة لتناموا مع النساء وتتدنسوا ببنات الناس، وتأخذوا لكم زوجات مثل بني البشر وتنجبوا منهنَّ أولادًا عمالقة؟ ... لقد أعطيتُ رجال البشر زوجات يخصبونهنَّ حتى لا يفنى جنسهم على الأرض، أما أنتم فكنتم روحانيين وخالدين على مرِّ أجيال الأرض، فلم أُعطكم زوجاتٍ لأن السماء مسكنكم. والآن فإن العمالقة أولادكم، نسل الروح والجسد، سيدعون أرواحًا شريرةً لأن أرواحًا خبيثةً سوف تنشأ عن أجسادهم (المذبوحة) ويكون في

---

[٣] المقتبسات التي أوردها هنا من سِفْر أخنوخ هي من ترجمتي عن موسوعة الأسفار غير القانونية:

J. H. Charlesworth, edt, The Old Testament Pseudepigrapha, New York, 1983, Vol. 1, p. 13 ff.

الأرض مسكنها ... سوف يسببون الأذى والعنف والدمار على الأرض، ويدفعون الناس إلى الخطيئة وإلى المعصية ... عندما يهلك العمالقة سوف تعيث الأرواح الخارجة منهم فسادًا، وترتع بلا رادعٍ إلى يوم الحساب الأخير يوم يهلك الساهرون الساقطون.»

يُقدِّم لنا هذا النص شرحًا لأسباب وجود الشر في العالم، إلا أنه يبقى ضمن الرؤيا التوراتية الرسمية للخير والشر على أنهما من صنع يهوه، الذي على الرغم من عقابه للعمالقة إلا أنه ترك أرواحًا شريرةً تنشأ عن أجسادهم القتيلة، تدفع الناس إلى الخطيئة وإلى المعصية، أما الملائكة الساقطون فسيبقون على قيد الحياة إلى يوم الحساب الأخير. هذه الفكرة سوف يجري تطويرها في سِفْر اليوبيليات (= الخمسينيات) الذي تنضج فيه شخصية الشيطان كرئيسٍ للأرواح الشريرة، وتبدأ باتخاذ خصائص المبدأ الكوني للشر.

وُجِدَت أجزاء من سِفْر اليوبيليات بين نصوص قمران باللغة العبرية، الأمر الذي يدلُّ على أن أصوله ترجع إلى القرن الأول قبل الميلاد. كما وُجِدَت أجزاء منه مترجمة إلى اللغة اللاتينية. أما النص الكامل فمتوافر فقط في اللغة الأثيوبية. والكنيسة الأثيوبية ما زالت حتى الآن تعدُّه من الأسفار القانونية لكتاب العهد القديم. يقتفي مؤلف هذا السِّفْر أثر مؤلف سِفْر أخنوخ الأول في موضوع الملائكة الساهرين الذين هبطوا إلى الأرض وتزوَّجوا من بنات الناس، وأولادهم العمالقة، والأرواح الشريرة التي أفسدت في الأرض. ثم يضيف إلى ذلك قصة الطوفان العظيم الذي أرسله الرب إلى الأرض بعد أن كثر شر البشر، وأفنى به كل ذي روحٍ إلا نوحًا ومَنْ في الفلك معه. ولكن قوى الشر ما لبثت أن نشطت مُجددًا. نقرأ في الفصل العاشر من السِّفْر ما يأتي:

> «في الأسبوع الثالث من تلك الخمسينية، أخذ الشياطين المتمرِّدون بتضليل نسل نوحٍ ودفعهم إلى الرذالات وإهلاكهم. فجاء أولاد نوح إلى أبيهم وحدَّثوه بأمر الشياطين التي تعمي وتهلك أحفاده. فصلَّى نوح إلى الرب إلهه وقال: يا إله الأرواح التي تُقيم في كل جسدٍ، أنت الذي رحمني مع أولادي وأنقذني من مياه الطوفان فلم أهلك مع أبناء اللعنة ... أَسْبِغ نعمتك على أولادي ولا تدع للأرواح الشريرة عليهم سلطانًا ... أنت تعلم ما فعله ملائكتك الساهرون آباء هذه الأرواح في أيامي، وما فعله مَنْ بقي من هذه الأرواح (بعد حملتك عليهم). فلتُوقِع بهم،

وتقودهم إلى مكان الحساب ولا تتركهم يعيثون فسادًا بين أبناء خادمك؛ لأنهم يا إلهي قساة وقد خُلِقُوا لكي يُدمروا، فلا تدع لهم سلطانًا على نفوس البشر.»[٤]

يستجيب الرب لصلاة نوح، ويأمر فريقًا من الملائكة بمطاردة الشياطين وتقييدهم، ولكن رئيسهم مستيما يلتمس من الرب ألَّا يهلك أتباعه جميعًا بل يترك له قسمًا منهم. فيوافق الرب على إمهاله ومَنْ بقي من أتباعه إلى نهاية الزمن:

«فأمرنا الرب إلهنا (والكلام هنا للملاك الذي يُمْلِي الكتاب على موسى) أن نوثِّقهم جميعًا، ولكن رئيس الأرواح مستيما مَثَل أمام الرب، وقال له: أيها الإله الخالق، اترك لي بعضًا منهم ليستمعوا إليَّ ويفعلوا ما آمرهم به؛ لأنه إذا لم يبقَ منهم أحدٌ معي لا أستطيع بسط سلطاني على بني البشر؛ لأن شر البشر عظيم، وبنو الإنسان منذرون للضلالة قبل أن يصدر حكمك بشأني. فأمر الرب أن يبقى عُشر الأرواح الشريرة مع مستيما، وأن ينزل التسعة أعشار الباقية إلى مكان الحساب، ثم أمر واحدًا منا أن يُعلِّم نوحًا كل سبل الشفاء من شر الشياطين؛ لأنه يعرف أن البشر لن يسيروا ولن يجاهدوا في سُبل الحق والخير.»

بعد ذلك يدخل يهوه والشيطان في علاقةٍ معقدة، فهو يُقيده ليكفَّ أذاه أحيانًا، ثم يطلقه لكي يتابع مهامه في أحيان أخرى. وسأكتفي فيما يأتي بمقطع من أحداث سِفْر الخروج كما يرويه كاتب النص. والمتحدث هنا هو يهوه:

«ولقد انتصب الرئيس مستيما أمامك يا موسى، وحاول تسليمك ليد فرعون، كما أنه حاول مساعدة سَحَرة مصر الذين مارسوا سحرهم أمامك ... ولكن الرب ضربهم بقروحٍ رديئةٍ، ومنعناهم عن إتيان معجزةٍ واحدة. ولكن الرئيس مستيما لم ينخذل بل استجمع قواه وأهاب بالمصريين أن يلاحقوك بكل جيوشهم وبكل عرباتهم وخيلهم، ولكني حُلْتُ بين المصريين وإسرائيل، وخلَّصنا إسرائيل من يد فرعون وشعبه ... وفي الأيام الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر، كان الرئيس مستيما مُقيَّدًا ومحجوزًا خلف مكان بني إسرائيل؛

[٤] هذه المقتبسات من اليوبيليات هي من ترجمتي عن موسوعة الأسفار غير القانونية، المرجع السابق، المجلد الثاني، ص٧٥ وما بعدها.

لكي لا يلاحقهم ويوقِع بهم. وفي اليوم الثامن عشر حَلَلْنَا قيوده مع أتباعه لكي يساعد المصريين على ملاحقة إسرائيل، فشدَّد عزيمة المصريين وقوَّاهم، ثم قيدناه مجددًا ... إلخ.»

يبقى هذا النص أمينًا لفكرة مسئولية يهوه عن وجود الشر في العالم، ثم يضيف إليها فكرة المهلة التي منحها يهوه للشيطان لكي يُتابع مهامه في غواية البشر. بعد ذلك تتطور قصة الشيطان نحو شكلها الأخير، حيث نجد أن سقوط الملاك الرئيس ومَنْ تبعه من أوليائه، لم يكن بسبب رغبتهم في نساء البشر. وإنما بسبب عصيان الملاك الرئيس أمر ربه بالسجود لآدم. وهذا التنويع على القصة موجود في أكثر من نصٍّ.

تبدأ قصة عصيان الملاك الرئيس في سِفْر أسرار أخنوخ (أو أخنوخ الثاني)، الذي يقدم تنويعه الخاص على قصة الخليقة التوراتية. فلقد خلق الرب الملائكة من جوهر النار، وذلك في اليوم الثاني من أيام التكوين، وجعلهم في طبقات لكل طبقةٍ رئيس. ولكن أحد رؤساء هذه الطبقات ويُدْعَى ساتانا إيل، تصوَّر في قلبه خطة مستحيلة، وهي أن يعلو ويصبح ندًّا للعلي في القوة، فتمرَّد هذا الملاك الرئيس على خالقه ثم أغوى مَن تحته من الملائكة وزيَّن لهم العصيان، ولكن الرب رماه من الأعالي مع ملائكته، ففقدوا بريقهم الإلهي وتحولوا إلى أرواحٍ متمردةٍ شريرةٍ تهيم فوق وجه الهاوية السفلى.[٥]

في كتاب حياة آدم الذي يعود تاريخ نصِّه الأصلي إلى زمن ما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي، نجد أن سبب سقوط الملاك الرئيس هو رفضه السجود لآدم. والقصة هنا يرويها الشيطان نفسه لآدم بعد طرده من الفردوس عندما حاول إغواءه وزوجته مجددًا، فصرخ آدم في وجهه قائلًا: الويل لك أيها الشيطان. لماذا تُهاجمنا دون سبب؟ وما الذي فعلناه حتى تُلاحقنا دومًا بالمكر والخديعة؟

«فتنهَّد الشيطان وقال: أنت السبب في كل هذا العداء والحسد. بسببك أنت طُرِدت وحُرِمت من مجدي في السماء بين الملائكة، وبسببك أنت رُميتُ من الأعالي إلى الأسافل. فقال آدم: ما الذي فعلته لك؟ وعلى ماذا تلومني؟ لماذا تلاحقنا ولم نُسبب لك ضررًا ولا أذًى؟ فأجاب الشيطان: عن أي شيءٍ تتحدث يا آدم؟

[٥] من ترجمتي عن المرجع السابق، المجلد الأول، ص١٤٨.

بسببك أنت أُخْرِجت من هناك، وبعد خلقك أنت أُبْعِدت من حضرة الرب وصحبة الملائكة. فبعدما صنعك الرب على صورته ونفخ في أنفك نسمة الحياة، أتى بك ميكائيل لنسجد لك في حضرة الرب الذي قال لك: انظر يا آدم؛ لقد صنعناك على صورتنا كشبهنا. ولقد دعا ميكائيل كل الملائكة قائلًا: اسجدوا لصورة الرب الإله كما آمر. وكان ميكائيل أول الساجدين، ثم دعاني إلى السجود قائلًا: اسجد لصورة الإله يهوه. فأجبته: أنا لا أسجد لآدم. وعندما ألَحَّ عليَّ قلت له: لن أسجد لمن هو أدنى مني مرتبةً، فلقد خُلِقْتُ قبله وعليه هو أن يسجد لي. لما سمع الملائكة التابعون لي قولي رفضوا السجود أيضًا. ولكن ميكائيل ألَحَّ علينا قائلًا: إذا لم تسجدوا سوف يصبُّ الرب جام غضبه عليكم. فقلت: إذا غضب الرب عليَّ سوف أرفع لنفسي كرسيًّا فوق النجوم وأُصبح ندًّا للعلي. فلما سمع الرب قولي ثار غضبه وأنزلني من مرتبة المجد مع أتباعي وطردنا من مقرِّنا الأعلى إلى الأرض، حيث لبثنا نندب مجدنا الضائع. وقد آلمني أن أراك تنعم بالبركة، فجئت زوجتك بالخديعة وأغويتها، فجعلتها سبب فقدانك أفراح النعيم مثلما فقدت بسببك مجدي العظيم.»[٦]

في أحد نصوص الهاجاداه (وهي مجموعة شروحٍ على هامش التلمود دُوِّنَت في القرون الأولى للميلاد؛ من أجل تقريب المعتقدات التلمودية إلى ذهن عامة الناس، من خلال أسلوب القصِّ المشبع بالميثولوجيا)، لدينا روايةٌ مشابهة عن عصيان الملاك الرئيس المدعو ساتان للأمر الإلهي. فبعد أن خرج آدم إنسانًا تام التكوين من يد الخالق، أمر الرب كل الملائكة أن يسجدوا لآدم ففعلوا، وكان رئيسهم ميكائيل أول الساجدين لكي يضرب للآخرين مثالًا في الطاعة والخضوع للأمر الإلهي، ولكن الملاك الرئيس ساتان الذي أضمر الغيرة والحسد لآدم، رفض السجود قائلًا للرب: لقد خلقتنا من ألقك وبهائك، فكيف تأمُرنا أن ننطرح أمام من خلقته من تراب الأرض؟ فأجابه الرب: ومع ذلك فإن تراب الأرض هذا يفوقك حكمةً وفهمًا. وهنا تدخَّل ميكائيل وألَحَّ على ساتان قائلًا: إذا لم تبجِّل آدم وتخضع له، عليك أن تتحمل عاقبة غضب الرب. فأجابه ساتان: إذا صبَّ غضبه عليَّ سوف أرفع عرشي فوق النجوم وأغدو ندًّا للعلي. فلما سمع الرب منه ذلك أمسك به ورماه خارج دائرة السماء،

[٦] من ترجمتي عن المرجع السابق، المجلد الثاني، ص٢٦٢.

فهوى نحو الأرض، وتبعه حشدٌ من الملائكة الذين شجَّعهم تمرُّده على إظهار ما كتموه في أنفسهم من حسدٍ لآدم ورفضٍ لسموِّه عليهم. ومن تلك اللحظة صارت عداوة بين الشيطان والإنسان.[٧]

وتتجلَّى عداوة الشيطان للإنسان بأكثر من طريقةٍ؛ فهو يُزين له الشر ويبعده عن طريق الخير، ويُغذِّي في نفسه نوازع الطمع والحسد والغرور ويدفعه إلى الكذب والغضب والظلم والفسق، وكل نقيصةٍ أخرى في السلوك الإنساني. ولعل من أهم وظائف الشيطان في هذه الأسفار كونه وليَّ الكافرين، في مقابل يهوه ولي المؤمنين. ففي النص المعروف بعنوان رؤيا إبراهيم، الذي يُرْجِع الباحثون تأليفه إلى أواسط القرن الثاني الميلادي، يصعد إبراهيم إلى السماء حيث يُريه الرب تاريخ الأرض معروضًا عليه دفعةً واحدة. ومن بين ما رأى جنة عدن وفيها آدم وحواء وبينهما الشيطان عزازيل يُطعمهما من ثمار الشجرة المحرمة، وعن يمين ويسار المشهد مجموعتان كبيرتان من الناس. يسأل إبراهيم ربه عن أهل اليمين وأهل اليسار هؤلاء، فيُجيبه بأن أهل اليسار هم الخطأة الذين أداروا ظهرهم للرب فأعطاهم إلى عزازيل ليسود عليهم، أما أهل اليمين فهم شعب الرب الذين آمنوا به واتبعوا وصاياه؛ فهو وليُّهم إلى يوم الدينونة.[٨]

ونقرأ في مخطوط نظام الجماعة، وهو من مخطوطات البحر الميت، ويرجع بتاريخه إلى القرن الأول قبل الميلاد؛ ما يأتي: «في يد أمير الأنوار سيادة على جميع أبناء الرب فهم في طريق النور يسيرون، وفي يد ملاك الظلمة سيادة على جميع أبناء الضلال فهم في طريق الظلام يسيرون، ولكن بسبب ملاك الظلمة يضلُّ أبناء البر أيضًا، فكل آثامهم وخطاياهم ومعاصيهم هي بسببه، حسب أسرار الرب، إلى نهاية الزمن.»[٩]

(٣) في القرآن الكريم

يُدعى الملاك الساقط في القرآن الكريم بالشيطان، وهي من الكلمات الأجنبية. وقد وردت في العبرية التوراتية بصيغة شطن، وفي الأسفار التوراتية غير القانونية بصيغة ساتان أو ساتانا إيل، وفي السريانية بصيغة سوتونو. ومنها جاءت الكلمة الإنكليزية Satan. كما

[٧] Willis Barnstone, edt, The Other Bible, Harper, New York, 1984, p.30.

[٨] موسوعة الأسفار غير القانونية، المجلد الأول، ص٧٠٠–٧٠١.

[٩] عن ترجمة الدكتور الخوري بولس الفغالي: كتابات قمران، الرابطة الكتابية، بيروت، ١٩٩٧، ص٢٩–٣٠.

يُدْعَى الملاك الساقط في القرآن أيضًا بالاسم إبليس، وهو على ما يبدو صيغة مُحرَّفة عن الكلمة اليونانية ديابولوس التي استخدمتها المؤلفات المسيحية. ومنها جاء الاسم الآخر للشيطان في الإنكليزية Devil.

يستخدم النص القرآني الاسم إبليس في قصِّه عن سقوط الملاك الرئيس، الذي يقوم على العناصر نفسها التي رأيناها في الأسفار التوراتية غير القانونية، وفي نصوص الهاجاداه التي غدت جزءًا من الأدبيات التلمودية. أما بعد سقوط الملاك وتحوُّله إلى عدو البشر، فإن النص القرآني يستخدم الاسم شيطان في بقية أخباره عن نشاط ذلك الملاك الأسود في التاريخ وصولًا إلى اليوم الأخير.

يُعيد النص سرد قصة السقوط في أحد عشر موضعًا، وبتنويعات طفيفة نورد أكثرها تفصيلًا فيما يأتي:

(١) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٧ الأعراف: ١١–١٨).

(٢) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٥ الحجر: ٢٨–٤٣).

(٣) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (١٧ الإسراء: ٦١–٦٥).

(٤) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (٢٠ طه: ١١٦–١١٧).

(٥) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٨ ص: ٧١–٨٥).

(٦) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (١٨ الكهف: ٥٠).

نلاحظ من البنية اللغوية للأمر الإلهي بالسجود لآدم، ورفض إبليس الانصياع لهذا الأمر، وذلك في التنويعات الخمسة الأولى على القصة، أن إبليس كان من الملائكة؛ لأن الاستثناء في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾، وتنويعاته الأخرى هو استثناء متصلٌ لا منقطع؛ لأن وقوع الإباء منه دليلٌ على أن الأمر الإلهي يشمله وأنه من الملائكة، ولكن التنويع السادس يشذُّ عما سبق؛ إذ يُعلمنا أن إبليس كان من الجن لا من الملائكة. فإذا كان الأمر كذلك، فإن الأمر الإلهي الموجه إلى الملائكة لا يشمله، كما إن إباءه من السجود لا يكون معصيةً لأن المأمور غيره. وهذا من متشابهات القرآن التي لم يصل المفسرون إلى اتفاق بشأنها.

على الرغم من أن القصة القرآنية هي أكثر اختصارًا وإيجازًا من مثيلاتها في الأسفار غير القانونية، إلا أنها تتفق معها في العناصر الرئيسة، وهي:

(٣-١) الأمر الإلهي وعصيانه

«بعد خروج آدم من يد الخالق إنسانًا تام التكوين، أمر الرب الملائكة كلهم أن يسجدوا له ففعلوا، وكان رئيسهم ميكائيل أول الساجدين لكي يضرب للآخرين مثالًا في الطاعة، ولكن الملاك الرئيس ساتان الذي أضمر الغيرة والحسد لآدم رفض السجود» (الهاجاده).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٥ الحجر: ٢٨–٣١).

(٣-٢) إبليس يسوِّغ سلوكه

«قال ساتان للرب: لقد خلقتنا من ألقك وبهائك، فكيف تأمرنا أن ننطرح أمام من خلقته من تراب الأرض؟ فأجابه الرب: ومع ذلك فإن تراب الأرض هذا يفوقك حكمًا وفهمًا» (الهاجاداه).

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (١٥ الحجر: ٣٢–٣٣). ﴿... قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٧ الأعراف: ١٢).

(٣-٣) الطرد والسقوط

«فلما سمع منه الرب ذلك أمسك به ورماه خارج دائرة السماء، فهوى نحو الأرض وتبعه حشدٌ من الملائكة الذين شجَّعهم تمرده على إظهار ما كتموه في أنفسهم من حسدٍ لآدم» (الهاجاداه).

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (٧ الأعراف: ١٣). ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٣٨ ص: ٧٧–٧٨).

(٤-٣) طلب المهلة

«فأمرنا الرب إلهنا أن نوثقهم جميعًا (= الأرواح الشريرة)، ولكن رئيس الأرواح مستيما مَثَل أمام الرب وقال له: أيها الإله الخالق، اترك لي بعضًا منهم ليستمعوا إليَّ ويفعلوا ما آمر به؛ لأنه إذا لم يبقَ منهم أحدٌ معي لا أستطيع بَسْط سلطاني على بني البشر ... فأمر الرب أن يبقى عُشْر الأرواح الشريرة مع مستيما، وأن يُنْزل التسعة أعشار الباقية إلى مكان الحساب» (سِفْر أخنوخ الأول).

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٧ الأعراف: ١٤–١٥).

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (١٥ الحجر: ٣٦–٣٨).

(٤) وعيد إبليس

يكتفي النص التوراتي من وعيد إبليس بقوله: ومنذ ذلك الوقت صارت عداوة بين الإنسان والشيطان (الهاجاداه). أما في النص القرآني فإن إبليس يسترسل في وعيده عارضًا بأسلوب فظٍّ وسائله في الانتقام:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٨ ص: ٨٢).

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٥ الحجر: ٣٩–٤٠).

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (٧ الأعراف: ١٧).

أمام هذا الوعيد يتحدَّى الله إبليس بأنَّه مهما فعل فلن يقدر على إغواء الصالحين من عباده: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (١٧ الإسراء: ٦٣–٦٥).

وعلى الرغم من أن الرواية القرآنية لا تنصُّ صراحةً على أن حشدًا من الملائكة تبعوا إبليس وتحوَّلوا إلى شياطين، إلا أن الإشارات اللاحقة إلى الشياطين بالجمع، وإلى جنود

إبليس وذُرية إبليس، تدلُّنا على ذلك: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا[١٠] هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (٢٦ الشعراء: ٩٤–٩٥). ﴿... أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ ...﴾ (١٨ الكهف: ٥٠). وكلمة ذرية هنا لا تعني النسل بالمعنى البيولوجي وإنما النظائر والأشباه، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ...﴾ (١٧ الإسراء: ٢٧). أي إن المبذرين كانوا من نوع الشياطين.

بعد سقوط إبليس ودخوله في التاريخ، نراه تحت اسم الشيطان يتربَّص ببني آدم ليضلَّهم عن سبل الحق: ﴿... إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (١٧ الإسراء: ٥٣). ﴿... وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢ البقرة: ٢٠٨). ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ...﴾ (٢ البقرة: ٢٦٨). ﴿... وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٤ النساء: ٦٠). ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ...﴾ (٥ المائدة: ٩١). ﴿... وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ...﴾ (٢٧ النمل: ٢٤).

ولا أدل على سلطان الشيطان على بني البشر من قدرته على التلاعب بعقول أنبياء الله أنفسهم، والتشويش على عملية الوحي، وذلك بأن يزرع في قلوبهم آياتٍ شيطانيةً تبدو لهم للوهلة الأولى آتية من الرحمن. وهذا هو مؤدى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (٢٢ الحج: ٥٢–٥٣). ومن أقوال بعض المفسرين في أسباب نزول هذه الآيات من سورة الحج، ومنهم الطبري، نورد الملخص الآتي:

ورد في خبر حديث الغرانيق أن الرسول تمنَّى في نفسه أن ينزل عليه من الوحي ما يُقرِّب بينه وبين قومه المشركين في مكة، ويُحبب إليهم الإيمان. وكان ذات يومٍ جالسًا في نادٍ من أنديتهم وقد نزلت عليه سورة «والنجم إذا هوى»، فأخذ يقرؤها عليهم حتى إذا بلغ قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ وكان تمنِّيه لا يزال عالقًا في نفسه، فأجرى الشيطان على لسانه: «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترجى.» ومضى

[١٠] (= جهنم).

الرسول يقرأ حتى أتمَّ السورة ثم سجد وسجد معه المسلمون، وكذلك المشركون من قريش، ثم تفرَّق الناس وخرجت قريش مسرورةً بما ذكر محمدٌ عن آلهتهم أحسن الذكر. وقد بلغ خبر السجدة مَنْ بأرض الحبشة من المهاجرين، وقيل لهم: قد أسلمت قريش. فهَمَّ بعضهم بالرجوع وتريَّث آخرون. ثم إن جبريل أتى إلى النبي وقال: ما صنعت يا محمد؟ لقد تلوتَ على الناس ما لم آتِك به. فجزع الرسول، ولكن الله كان به رحيمًا، وأنزل عليه ما نسخ الذي أجراه الشيطان على لسانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (٥٣ النجم: ١٩–٢٣).

وعلى الرغم من عصيان الشيطان وتنفيذه للعهد الذي قطعه على نفسه بمقاومة أعمال الرحمن، ومن وصفه بالكفر في بعض الآيات: ﴿... وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (١٧ الإسراء: ٢٧)، إلا أنه يبدو في بعض الأحيان، وكما هو الحال في النص التوراتي، خاضعًا للرحمن يأتمر بأمره متى يشاء: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٤٣ الزخرف: ٣٦–٣٧). ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا * فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ (١٩ مريم: ٨٣–٨٤). وبعد أن وُصِف الشيطان بالكفر في المقتبس السابق من سورة الإسراء، نجده يعلن إيمانه في سورة الحشر: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٩ الحشر: ١٦). وهو يتوَّعد المشركين، بدلًا عن الله، بالعذاب الأليم: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ... مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٤ إبراهيم: ٢٢).

وكما هو الحال في الروايات التوراتية، فإن البشر موزَّعون بين فريقَين هم أهل اليمين الواقعون تحت سلطة الرحمن فهو وليُّهم، وأهل الشمال الواقعون تحت سلطة الشيطان فهو وليُّهم: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ...﴾ (٢ البقرة: ٢٥٧). ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٦ النحل: ٦٣). ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ (٥٦ الواقعة: ٢٧–٣١). ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ *

وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ (٥٦ الواقعة: ٤١–٤٤). ومن الجدير بالذكر أن الإنجيل أيضًا قد أتى على ذكر أهل اليمين وأهل الشمال، وذلك في قول يسوع عن عودته في اليوم الأخير: «ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القدِّيسين معه، فحينئذٍ يجلس على كرسي مجده ويجتمع أمامه جميع الشعوب، فيميز بعضهم عن بعضٍ كما يميز الراعي الخِرافَ من الجِداء، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار. ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي رِثوا الملكوت المُعَد لكم منذ تأسيس العالم ... ثم يقول أيضًا للذين على اليسار: اذهبوا عنِّي يا ملاعين إلى النار الأبدية المُعدة لإبليس وملائكته. فيمضي هؤلاء إلى عذابٍ أبديٍّ، والأبرار إلى حياة أبدية» (إنجيل متى ٢٥: ٣١–٤٦).

أما عن مصير إبليس عند اختتام تاريخ العالم، فلا نمتلك إلا إشاراتٍ عابرة تدلُّ على أن مآله هو وأتباعه إلى النار الأبدية. من ذلك ما ورد من المقتبس السابق من سورة الأعراف: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وفي المقتبس من سورة الشعراء: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾.

سقوط الإنسان الساقط

لم يطل الوقت بآدم وزوجه في الجنة؛ لأن معصيتهما للخالق قد تسبَّبت بطردهما من الجنة إلى الأرض القاحلة؛ ليُحصِّلا قُوتَهما منها بالتعب والعرق. وسنبتدئ أولًا بسرد الرواية الرسمية التوراتية لقصة السقوط كما وردت في سِفْر التكوين، ثم ننتقل إلى الرواية غير الرسمية التي وردت في الأسفار غير القانونية.

(١) الرواية التوراتية

«وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الرب الإله آدم قائلًا: من كل شجر الجنة تأكل أكلًا، وأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها؛ لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت» (التكوين ٢: ١٥–١٦).

«وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب. فقالت للمرأة: أحقًّا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحيَّة: من ثمر الجنة نأكل، وأما من ثمر الشجرة التي وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمسَّاه لئلا تموتا. فقالت الحيَّة للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفَين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدةٌ للأكل، وأنها بهجةٌ للعيون، وأن الشجرة جيدةٌ للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها معها أيضًا فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر.

وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت. فقال: ومن أعلمك أنك عُريان؟ هل

أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألَّا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله للحية: لأنكِ فعلتِ هذا ملعونة أنتِ من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنكِ تسعين وترابًا تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوةً بينكِ وبين المرأة ونسلها، هو يسحق رأسكِ وأنتِ تسحقين عَقِبَه. وقال للمرأة: تكثيرًا أُكَّثر من أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادًا، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليكِ. وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلًا لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكًا وحسكًا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزًا حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها؛ لأنك من ترابٍ وإلى ترابٍ تعود.

ودعا آدم اسم امرأته حواء؛ لأنها أُم كل حيٍّ. وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصةً من جلدٍ وألبسهما. وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان صار كواحدٍ منا عارفًا الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا، ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل في الأرض التي أُخِذَ منها، فطَرَد الإنسان، وأقام الرب شرقي جنة عدن: الكروبيم (= ملائكة مجنحة حارسة) ولهيب سيف متقلبٍ، لحراسة طريق شجرة الحياة» (التكوين ٣: ١–٢٤).

في هذه القصة الرسمية لسقوط الإنسان نُلاحظ غياب الشيطان عن مسرح الحدث، ولا يوجد ما يُشير إلى أن الحيَّة التي أغوت حواء بالأكل من الشجرة المُحرَّمة كانت قناعًا للشيطان. أما بعد تشكُّل ونضوج لاهوت الشيطان في القرنَين السابقَين للميلاد وما تلاهما، فقد عمدت الأسفار غير القانونية إلى المطابقة بين الحية والشيطان، وتشابكت قصة سقوط إبليس مع قصة سقوط الإنسان؛ فإبليس هو الذي تخفَّى في هيئة الحيَّة وتسلَّل إلى الفردوس؛ لكي ينتقم من آدم الذي كان سبب بليته وخسارة مجده السماوي. وعلى ما قرأنا في المقتبس الذي أوردناه سابقًا من كتاب حياة آدم، يقول الشيطان إنه بعد طرده مع أتباعه من مقرِّه الأعلى إلى الأرض، لبث يندب مجده الضائع بحزنٍ وأسى، وقد آلمه أن يرى آدم ينعم هناك بالبركة والسرور، فجاء زوجته بالخديعة وأغواها فجعلها سبب فقدانه أفراح النعيم. وفي سِفْر أسرار أخنوخ (أو أخنوخ الثاني) يشبك المحرر القصتَين على الشكل الآتي:

«وفي اليوم السادس خلق الربُّ الإنسان من سبعة عناصر، فجعل لحمه من تراب الأرض ودمه من الندى، وعينَيه من الشمس، وعظمه من الصخر، وذكاءه من الغيوم ومن

سرعة الملائكة، وشعره وأوردته من عشب الأرض، وروحه من نفَس الرب ومن الريح، ودعا اسمه آدم. ثم أسكن الرب آدم في جنة زرعها على الأرض في عدن شرقًا ليرعى عهده ووصاياه، وأراه طريقَين: طريق النور وطريق الظلام، وقال له: هذا حسنٌ وذاك سيئ. ومع ذلك فقد كان الخالق مُطَّلعًا على فؤاد آدم عارفًا بطبيعته الخاطئة، فقال في نفسه: وهل بعد الخطيئة سوى الموت؟ ثم أوقع الرب سُباتًا على آدم وأخذ من أضلاعه واحدةً، وخلق منه زوجًا له دعاها حواء، ولكن الشيطان تسلَّل إلى الفردوس وأغوى حواء، وجعلها تُخطئ ولكنه لم يقارب آدم.[١]

(٢) الرواية القرآنية

في الرواية القرآنية تتشابك قصة سقوط إبليس مع قصة سقوط الإنسان. نقرأ في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٢ البقرة: ٣٤–٣٧).

وفي تنويع ثانٍ على القصة يُدخل عليها عناصر جديدة، نقرأ في سورة الأعراف: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

---

[١] راجع سِفْر أسرار أخنوخ في:

Willis Barnstone, edt, The Other bible, Harper, New York, 1984.

مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٧ الأعراف: ١٩–٢٤).

وفي تنويعٍ ثالثٍ نقرأ في سورة طه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (٢٠ طه: ١١٦–١٢٤).

تقوم الرواية القرآنية على العناصر الرئيسة لرواية سِفْر التكوين، ولكنها تختلف عنها في النقاط الآتية:

(١) المُغوي في الرواية القرآنية هو الشيطان لا الحية. وهذا ما تشترك به مع الأسفار غير القانونية.

(٢) الشيطان لا يوسوس إلى حواء بل إلى آدم، وذلك في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ ...﴾ (٢٠ طه: ١٢٠). وفي تنويعٍ آخر يوسوس الشيطان إلى الزوجَين معًا، وذلك في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ...﴾ (٧ الأعراف: ٢٠). الأمر الذي يرفع عن حواء وِزر الخطيئة الأولى.

(٣) لا تبادر حواء إلى الأكل من ثمر الشجرة ثم تُغري زوجها بالأكل، بل إن الزوجَين يأكلان منها معًا: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا ...﴾ (٢٠ طه: ١٢١). ﴿... فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ...﴾ (٧ الأعراف: ٢٢). وهنا تغيب الإشارة إلى مَن هو البادئ بالأكل والمُحرِّض عليه.

(٤) لا يوجد في الجنة شجرتان مميزتان هما شجرة المعرفة وشجرة الحياة، بل شجرة واحدة يدعوها الشيطان شجرة الخُلد (أي الحياة الخالدة). وربما قصد النص إلى القول بأن هذا هو اسمها الحقيقي. ومن الناحية اللغوية فإن شجرة الخلد وشجرة الحياة تؤدِّيان المعنى نفسه. وقد أكل الزوجان من شجرة الخلد. فإذا كان المعنى الباطني للأكل من الشجرة هو الفعل الجنسي على ما يذهب إليه كثيرٌ من مُفسري الكتاب المقدس، فإن الخلد هنا هو خلود الجنس البشري الذي أدَّى إليه ذلك الفعل الجنسي الاستهلالي. وفيما

عدا ذلك فإن الروايتَين تشتركان في البنية العامة وفي المفاصل الرئيسة للحبكة، على ما تبينه المقارنة التالية:

سِفْر التكوين	الرواية القرآنية
(١) وأخذ الرب الإله آدم وأسكنه في جنة عدن ... وأوصى الرب آدم قائلًا: من جميع شجر الجنة تأكل أكلًا، وأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها؛ لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت.	• ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢ البقرة: ٣٥).
(٢) فقالت الحية للمرأة: أحقًّا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تلمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منها تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفَين الخيرَ والشر.	• ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ...﴾ (٧ الأعراف: ٢٠). ﴿... قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ (٢٠ طه: ١٢٠). ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (٧ الأعراف: ٢١).
(٣) فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، فأخذت من ثمرها وأعطت زوجها أيضًا.	• ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا ...﴾ (٢٠ طه: ١٢١).
(٤) فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عُريانان، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر.	• ﴿... فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ...﴾ (٧ الأعراف: ٢٢).
(٥) فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فاختبأت؛ لأني عريان، فقال: مَنْ أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألَّا تأكل منها؟	• ﴿... وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٧ الأعراف: ٢٢).
(٦) وقال الرب لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، بعرق وجهك تأكل خُبزًا حتى تعود إلى الأرض التي أُخِذْتَ منها ... فطرد الرب الإنسان.	• ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ...﴾ (٢٠ طه: ١٢٣). ﴿... وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٧ الأعراف: ٢٤).

سِفْر التكوين	الرواية القرآنية
(٧) وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منَّا عارفًا الخير والشر، والآن لعله يمدُّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد.	• ﴿... وَقَالَ* مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (٧ الأعراف: ٢٠).

* (لهما الشيطان).

إلى هذا فقد احتوت الرواية القرآنية على أهم عنصرٍ في الرواية التوراتية غير الرسمية، وهي استبدال الشيطان بالحية. كما احتوت على عنصرٍ هام آخر وهو توبة آدم التي قَبِلَها الرب: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة). وتوبة آدم مفصَّلة في كتاب حياة آدم الذي اقتبسنا منه في موضعٍ سابقٍ، وهو يحكي عن أحوال الزوجَين على الأرض. فبعد طردهما من الفردوس:

«مشى الاثنان مدة تسعة أيامٍ يبحثان عن الطعام، ولكنهما لم يجدا طعامًا يُشبه ما كانا يأكلانه في الفردوس، بل طعامًا مما تأكله حيوانات الأرض. فقال آدم لحواء: لقد جعل الرب هذا الطعام نصيبًا للحيوانات بينما كنا نتناول هناك طعام الملائكة. من الأفضل لنا أن نبكي أمام الرب فنستغفره، ونُعلن الندم والتوبة لعله يُسامحنا ويرأف بنا ويزودنا بأسباب الحياة. فقالت حواء: قل لي يا سيدي ما هو الندم؟ وكيف أستغفر؟ لكيلا يأتينا عكس مُرادنا ويُدير الرب وجهه عنَّا، ولا يُعير أذنًا صاغية لصلاتنا. سيدي، قد يدوم استغفارك طويلًا، فأنا مَنْ جلب عليك العناء والمشقة. فقال آدم: لن يكون بمقدورك القيام بما سأقوم به، ولكن ابذلي قدر استطاعتك. سوف أصوم لمدة أربعين يومًا وأنا غاطسٌ في مياه نهر الأردن، أما أنتِ فامضي إلى نهر الدجلة وخُذي لكِ حجرًا قفي عليه في وسط الماء، واغطسي إلى الرقبة ثم البثي سبعة وثلاثين يومًا، والزمي الصمت لأن شِفَاهنا التي تنجَّست بالأكل من الثمرة المُحرمة غير جديرةٍ بالتوسُّل إلى الرب، لعله بعملنا هذا يرحمنا ويرأف بنا.»

ولكن الشيطان تنكَّر في هيئة ملاك وَضَّاء، وجاء إلى حواء وحال بينها وبين متابعة استغفارها، ثم قادها إلى آدم مدَّعِيًا أن الرب قد استجاب لهما. فلما رآهما آدم قادمَين تعرَّف على الشيطان، فصرخ وانتحب وناداها قائلًا: أين ذهب ندمكِ واستغفاركِ؟ وكيف وقعتِ ثانية فريسة لإغواء عدونا الذي حرمنا مسكننا الفردوسي ومُتعنا الروحانية. عند ذلك

انتبهت حواء إلى خديعة الشيطان فسقطت على وجهها في التراب، وصرخت في وجهه: الويل لك أيها الشيطان، لماذا تُهاجمنا دون سببٍ؟ وما الذي فعلناه لك حتى تلاحقنا دومًا بالمكر والخديعة؟ عند ذلك قصَّ عليهما الشيطان ما جرى من عصيانه أمر الخالق بالسجود لآدم، وما تبع ذلك من غضب الرب عليه وطرده من السماء. ثم يتابع النص سرد أخبار أسرة آدم وما جرى من نزاع بين قابيل وهابيل، وما جرى لبقية أولاد آدم إلى أن حضرته المنية، وينتهي النص بالمشهد الآتي:

«ولسبعة أيامٍ أظلمت الشمس وأظلم القمر والنجوم. وكان شيت يحتضن جسد أبيه، وحواء تُشبك ذراعَيها فوق رأسها المُنكَّس والمستند على ركبتَيها، وكل الأولاد يبكون بحرقةٍ، وبينما هم على هذه الحال ظهر الملاك ميكائيل واقفًا عند رأس آدم وخاطب شيت قائلًا: انهض عن جسد أبيك وتعالَ لأُريَك ماذا أَعَدَّ الرب له. فلقد رحم الرب مخلوقه وتاب عليه. وعزف الملائكة بأبواقهم وأنشدوا: مبارك أنت أيها الرب الذي أشفق على مخلوقه. عندها رأى شيت ذراع الرب تمتد فتحمل آدم وتُسلِّمه إلى ميكائيل قائلًا له: ليكن آدم في حرز لديك إلى يوم الدينونة في آخر الزمن. عندها سأحوِّل حزنه إلى فرح، وأجعله يتربع على عرش الذي غلبه (= الشيطان)».[٢]

(٣) قابيل وهابيل

بعد طرد آدم وحواء من الجنة، أنجبت حواء من آدم ولدَين؛ الأول دُعِيَ قايين (أو قابيل في الموروث الإسلامي)، والثاني دُعِيَ هابيل، وهذه قصتهما كما وردت في سِفْر التكوين ٤: ١–١٣، وفي سورة المائدة: ٢٧–٣١.

سِفْر التكوين: «وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين، ثم عادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعيًا للغنم، وكان قايين عاملًا في الأرض. وحدث بعد أيامٍ أن قابيل قدَّم من أثمار الأرض قُربانًا للرب، وقدَّم هابيل أيضًا من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب على هابيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قايين وسقط على وجهه.

[٢] هذه المقاطع والملخصات هي من ترجمتي عن كتاب حياة آدم. راجع موسوعة الأسفار غير القانونية:

J. H. Charlesworth, edt, The Old Testament Pseudepigrapha, vol. 2, p. 258 ff …

فقال الرب لقايين: لماذا اغتظت؟ ولماذا سقطت على وجهك؟ إن أحسنت أفلا رفعٌ؟ (أي إذا عملت حسنًا أفلا تقبل؟).

سورة المائدة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

سِفْر التكوين: «وكلَّم قايين أخاه. وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرب لقايين: أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم، أحارسٌ أنا لأَخي؟ فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إليَّ من الأرض، فالآن ملعونٌ أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها، تائهًا وهاربًا تكون في الأرض. فقال قايين للرب: ذنبي أعظم من أن يُحْتَمل.»

سورة المائدة: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

الطوفان الكبير

(١) الخلفية الميثولوجية

أسطورة الطوفان الكبير الذي غَمَرَ الأرض وأفنى البشر والكائنات الحية، عدا فئة قليلة نجت وأعادت بناء الحضارة، هي أسطورةٌ شائعةٌ في ثقافات العالم القديم وفي الثقافات البدائية المعاصرة. ولكن السومريين في جنوب وادي الرافدَين كانوا أول مَنْ قدَّم لنا وثيقةً مكتوبةً عن هذه الأسطورة ترجع إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، وقد احتوت الأسطورة السومرية العناصر التي بَنَتْ عليها بقية ثقافات المنطقة، إضافة إلى الثقافة اليونانية، تنويعاتها الخاصة.

وُجِدَت الأسطورة السومرية منقوشةً على رقيمٍ فخاريٍّ مكسور وكثير التشوُّه، ولكن الأسطر القليلة الباقية من النص كافية لإطلاعنا على الخطوط العامة للقصة؛ فقد رأى الملك الكاهن المدعو زيوسودرا في إحدى الليالي حُلمًا سمع فيه صوت أحد الآلهة يُكلِّمه من وراء جدار، ويُعْلِمُه عن قرار مجمع الآلهة بإفناء الحياة على الأرض. عند هذه النقطة يتشوَّه الرقيم. ومن المرجَّح أن الجزء المفقود من النص يتحدث عن تعليمات الإله بخصوص قيام زيوسودرا ببناء سفينةٍ عملاقةٍ يحمل فيها عددًا من البشر، إضافة إلى أزواج من كل أصناف الحيوانات. وعندما يتَّضح النص للقراءة مرة ثانية نجد وصفًا مُكثفًا لاندياح الطوفان وتراجعه: «هبَّت العواصف كلها دفعةً واحدةً، ومعها انداحت سيول الطوفان فوق الأرض، وغمرتها لسبعة أيامٍ وسبع ليال، ودفعت العواصف المركب العملاق فوق المياه المتعاظمة. ثم ظهر إله الشمس أوتو ناشرًا ضياءه في السماء والأرض. فتح زيوسودرا كوة في المركب تاركًا أشعة أوتو تسقط منه. ثم خرَّ ساجدًا أمام أوتو ونحر ثورًا وقدَّم ذبيحةً من غنم.»

بعد ذلك يعود الرقيم إلى التشوُّه. وعندما يتضح للقراءة ثانية نأتي إلى خاتمة القصة، حيث يصف المقطع الأخير سرور الآلهة بنجاة الحياة من التدمير الكامل، ثم إسباغهم على بطل الطوفان نعمة الخلود: «زيوسودرا الملك سجد أمام آنو وإنليل. فوهباه روحًا خالدة مثل الآلهة، عند ذلك دُعِيَ زيوسودرا باسم حافظ بذرة الحياة. وفي أرض دلمون حيث تشرق الشمس أسكناه.»[١]

اعتمادًا على العناصر الرئيسة لهذه الأسطورة السومرية، قدَّم لنا البابليون عدة نصوصٍ عن الطوفان الكبير، أوضحها النص الوارد في آخر ملحمة جلجامش، حيث يروي بطل الطوفان نفسه القصة لجلجامش الذي قصده ليسأله عن الكيفية التي حصل بها على الخلود.

فقد اتَّخذ مجمع الآلهة بتحريض من إله العاصفة إنليل قرارًا بإفناء الحياة على الأرض، ولكن قبل الشروع بتنفيذ خُطتهم قام الإله إيا (= إنكي) بنقل الخبر إلى أوتنابشتيم ملك مدينة شوريباك وكلَّمه من وراء جدارٍ، وأمره أن يبني سفينةً عملاقة وفق مخططٍ خاص شرحه له. وعند اندياح الطوفان عليه أن يحمل إليها كل ما يملك من ذهبٍ وفضةٍ، وأهله وأقاربه، ونخبة من أصحاب الصناعة والحرف، وعددًا لا يحدده كاتب النص من حيوانات الأرض ووحوشها. صدع أوتنابشتيم بما أُمِرَ، وعندما بدأت نُذُر الطوفان بمطرٍ غزيرٍ مُدمرٍ دخل السفينة وأغلق عليه الباب. استمر المطر بالهطول، ثم انهارت السدود وتدفَّق ماؤها، وانفتحت بوابات المياه الجوفية، فتعاظم الطوفان وحمل السفينة، بينما كانت العواصف الثائرة تحصد البشر وتُحطِّم الأرض مثل جرةٍ فخارية، حتى الآلهة أنفسهم ذعروا من هول الطوفان وهربوا جميعًا، فالتجئوا إلى السماء السابعة سماء الإله آنو كبيرهم، وربضوا هناك عند الجدار الخارجي يرتعدون. وقامت بينهم الإلهة عشتار تنوح وتندب فَناء البشرية، وتُعلن ندمها على الموافقة على قرار الطوفان.

ستة أيام وست ليالٍ والرياح تهبُّ، والعاصفة وسيول المطر تطغى على الأرض. ومع حلول اليوم السابع هدأ البحر وسكنت العاصفة وتراجع الطوفان. فتح أوتنابشتيم كوة السفينة، كان الهدوء شاملًا وقد آل البشر إلى الطين، فتهالك وانحنى يبكي. ثم إن السفينة استقرَّت على قمة جبل نصير الذي منعها من الحركة أسبوعًا. خلال ذلك أتى أوتنابشتيم

[١] Alexander Heidel, The Gilgamesh Epic, Phoenix, Chicago, 1963.

بحمامة وأطلقها، فطارت بعيدًا ثم عادت إليه؛ لأنها لم تجد يابسة تقف عليها. وبعد فترة لا يُحددها كاتب النص أطلق أوتنابشتيم سنونو فطار بعيدًا ثم عاد إليه. وبعد فترةٍ أخرى أطلق غرابًا فطار بعيدًا وحام وأكل ولم يعد. عند ذلك أطلق أوتنابشتيم جميع ركاب السفينة في الاتجاهات الأربع، وقدَّم ذبيحة للآلهة أحرق تحتها القصب الحلو والآس وخشب الأرز لتشم الآلهة الرائحة الزكية. تجمَّع الآلهة حول القربان، وعندما وصلت عشتار رفعت عقدها الكريم الذي صنعه لها آنو وقالت: «أيها الآلهة الحاضرون، كما لا أنسى هذا العقد اللازوردي في عنقي، كذلك لن أنسى هذه الأيام أبدًا وسأذكرها دومًا. هلموا جميعًا إلى الذبيحة إلا إنليل؛ لأنه دونما تفكُّر قد سبَّب الطوفان.» وعندما وصل إنليل ورأى السفينة ثارت ثائرته وقال: «هل نجا أحد من الفانين؟ ألم نقرر إهلاك الجميع؟» فتوجَّه إليه إيا بقوله: «أيها المحارب، أيها الحكيم بين الآلهة، كيف دونما تروٍّ جلبت هذا الطوفان؟ كان بإمكانك أن تُحمِّل الآثم إثمه والمعتدي عدوانه، تمهله فلا يهلك ولا تهمله فيشتط. لو أرسلت بدل الطوفان الأسود الذئاب لقللت من عدد البشر، لو أرسلت بدل الطوفان المجاعة لأنقصت من البشر، لو أرسلت عليهم الطاعون لحصد منهم. وبعدُ لستُ الذي أُفشي سر الآلهة الكبار. لقد أريت أوتنابشتيم حلمًا فاستشف من الأمر. والآن اعقد أمرك بشأنه.» فصعد إنليل إلى السفينة ثم أخذ بيد أوتنابشتيم وأصعده هو وزوجته معه وجعلهما يركعان أمامه، ثم وقف بينهما ولمس جبهتيهما مباركًا وقال: «ما كنتَ قبل اليوم إلا بشرًا فانيًا، ولكنك ستغدو وزوجتك مثلنا خالدين.» وبعد ذلك أمر بأخذهما وجَعَلَهما يسكنان في القاصي البعيد عند فم الأنهار.[٢]

(٢) الرواية التوراتية

إن الشكل الأدبي الأخير لملحمة جلجامش يعود بتاريخه إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ولكن نسخة منها وُجِدَت محفوظة في مكتبة الملك آشور بانيبال بمدينة نينوى، تعود بتاريخها إلى أواسط القرن السابع قبل الميلاد، وهذا يدل على أنها بقيت متداولة إلى حين وصول سبي يهوذا إلى بابل نحو عام ٥٨٧ق.م.، وكان لدى محرِّري التوراة فرصةٌ للاطِّلاع على قصة الطوفان الكبير، ودمجها في روايتهم عن بدايات التاريخ البشري في سِفْر التكوين.

[٢] انظر ترجمتي الكاملة للوح الحادي عشر من النص في مؤلَّفي «جلجامش – ملحمة الرافدَين الخالدة».

فخلال تسعة أجيال أعقبت وفاة آدم كان شر البشر يكثر على وجه الأرض، فندم الرب على خَلْقه للإنسان وعزم على إفنائه بواسطة طوفان شامل.

تتصف قصة الطوفان التوراتية بالاضطراب والتشوش والتناقض في المعلومات؛ وذلك بسبب لجوء المحرر إلى الجمع بين روايتَين مختلفتَين عن الطوفان في نصٍّ واحدٍ، دون محاولةٍ منه للتوفيق بينهما في سرديةٍ متسقةٍ. في الرواية الأولى يظهر الإله التوراتي بالاسم يهوه؛ ولذلك يدعونها الباحثون بالرواية اليهوية (Y)، أما في الرواية الثانية فيظهر تحت اسم إيلوهيم (أو الله في الترجمات العربية، وGod في الإنكليزية)؛ ولذلك يدعونها بالرواية الإيلوهيمية (E). ومثل هذا الجمع بين الرواية Y والرواية E نصادفه في العديد من قصص سِفْر التكوين، ولكنه هنا يتجلَّى في أوضح أشكاله وأكثرها تعقيدًا، ولغرض التيسير على القارئ فقد قمت بتفكيك القصة إلى عناصرها اليهوية والإيلوهيمية، ثم إلى شبك الثانية في سرديةٍ متصلةٍ ومطردة خالية من التشوش والتناقض:

«كان نوح رجلًا بارًّا كاملًا في أجياله. وسار نوح مع الله. وولد نوح ثلاثة بنين: سام وحام ويافث. وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلمًا. ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت، إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض. فقال الله لنوح: نهاية كل بشرٍ قد أتت أمامي؛ لأن الأرض امتلأت منهم ظلمًا. فها أنا مهلكهم مع الأرض، اصنع فُلكًا من خشب جُفر، وتجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل ومن خارج بالقار، وهكذا تصنعه: ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك وخمسون ذراعًا عرضه وثلاثون ذراعًا ارتفاعه، وتصنع كوًّا للفلك وتكمِّله إلى حدِّ ذراع من فوق، وتصنع باب الفلك في جانبه. مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله. فها أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسدٍ فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت، ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك. ومن كل حيٍّ من كل ذي جسدٍ اثنَين من كلٍّ تُدْخل إلى الفلك لاستبقائها معك تكون ذكرًا وأنثى. من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها، اثنَين من كلٍّ تُدْخل إليك لاستبقائها. وأنت فخذ لنفسك من كل طعامٍ يؤكل واجمعه عندك فيكون لك ولها طعامًا. ففعل نوح حسب كل ما أمره الرب» (التكوين ٦: ٩–٢٢).

«ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض. فدخل نوح وبنوه ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان، ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة، ومن الطيور ومن كل ما يدبُّ على الأرض دخل اثنان اثنان إلى الفلك ذكرًا وأنثى، كما أمر الله نوحًا. وحدث بعد سبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض.

في سنة ستمائةٍ من حياة نوح، في الشهر الثاني، في اليوم السابع عشر من الشهر، في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة. (التكوين ٧: ٦–١٢). «وكان الطوفان على الأرض أربعين يومًا على الأرض، وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض، وتعاظمت المياه وتكاثرت جدًّا على الأرض، فكان الفلك يسير على وجه المياه، وتعاظمت المياه كثيرًا جدًّا على الأرض فتغطَّت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء، خمس عشرة ذراعًا في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطَّت الجبال، فمات كل ذي جسدٍ كان يدبُّ على الأرض ... وتبقَّى نوح والذين معه في الفلك فقط» (التكوين ٧: ١٧–٢٤).

«ثم ذكر الله نوحًا وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك، وأجاز الله ريحًا على الأرض فهدأت المياه وانسدَّت ينابيع الغمر وطاقات السماء، فامتنع المطر من السماء، ورجعت المياه عن الأرض رجوعًا متواليًا ... وبعد مائةٍ وخمسين يومًا نقصت المياه واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبل أراراط ... وحدث بعد أربعين يومًا أن نوحًا فتح طاقةً في الفلك التي كان عمِلها، وأرسل الغراب فخرج مُتردِّدًا حتى نشفت المياه عن الأرض. ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلَّت المياه عن وجه الأرض، فلم تجد الحمامة مقرًّا لرجلها فرجعت إليه ... فلبث أيضًا سبعة أيامٍ أُخَر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك، فأتت إليه عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها، فعلم نوح أن المياه قد قلَّت عن الأرض. فلبث أيضًا سبعة أيام أُخَر، وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضًا.

وكان في السنة الواحدة والستمائة (من عمر نوح) في الشهر الأول في أول الشهر، أن المياه نشفت عن الأرض. فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر وإذا وجه الأرض قد نشف. وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفَّت الأرض. وكلَّم الله نوحًا قائلًا: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك، وكل الحيوانات التي معك ... فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه وكل الحيوانات ... وبنى نوح مذبحًا للرب وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة، وأصعد محرقات على المذبح. فتنسَّم الرب رائحة الرضا، وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضًا من أجل الإنسان؛ لأن قلب الإنسان شريرٌ منذ حداثته، ولا أعود أيضًا أُميت كل حيٍّ كما فعلت. مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال (التكوين ٨: ١–٢٢).

«وبارك الله نوحًا وبنيه وقال لهم: أثمروا واكثروا في الأرض، ولتكُن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض ... وها أنا مقيمٌ ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم، ومع كل ذوات الأنفس الحيَّة ... لا ينقرض كل ذي جسدٍ بمياه الطوفان، ولا يكون أيضًا طوفان ليخرب الأرض. وقال الله: هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر. وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض؛ فيكون متى أنشر سحابًا على الأرض وتظهر القوس في السحاب أنِّي أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حيةٍ (التكوين ٩: ١–١٤). وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، فكانت كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة ومات» (التكوين ٩: ٢٨–٢٩).

(٣) بين الرواية التوراتية والرواية البابلية

تعتمد الروايتان التوراتية والبابلية على العناصر نفسها، وتسير الأحداث فيهما على نحو متوازٍ؛ فقرار الطوفان يتخذه الإله إنليل في الرواية البابلية بعد موافقة مجمع الآلهة عليه، وفي الرواية التوراتية يتَّخذ القرار الإله يهوه منفردًا نظرًا لعدم وجود مجمع للآلهة. أما الدافع إلى ذلك فهو ازدياد شر البشر على الأرض، على ما نفهم ذلك بشكلٍ صريحٍ في مطلع القصة التوراتية، وبشكل غير مباشرٍ في نهاية القصة البابلية، حيث يقول إيا لإنليل: «كيف دونما تروٍّ جلبت هذا الطوفان؟ كان بإمكانك أن تُحمِّل الآثم إثمه والمعتدي عدوانه ... إلخ.» بعد ذلك يقوم كلٌّ من الإله إيا والإله يهوه باختيار رجلٍ صالحٍ لمهمة إنقاذ بذرة الحياة على الأرض، ويُعطيه تعليمات مُفصَّلة حول مخطط السفينة وكيفية بنائها، وركَّابها وما يُحمل فيها من متاعٍ. فقد كان على أوتنابشتيم أن يحمل معه عددًا غير محددٍ من أهله المقربين وممتلكاته، وعددًا غير محددٍ أيضًا من حيوانات الأرض. وكان على نوح أن يحمل معه امرأته وأبناءه ونساء أبنائه، ومن الحيوانات من كُلٍّ زوجَين اثنَين، إضافة إلى ما يكفي من طعام، ولكن أوتناشتيم كان أكثر فطنة من نوح؛ لأنه حمل معه أيضًا نُخبة من أهل الصناعة والحرف، من شأنها حفظ منجزات الحضارة من الضياع.

انداح الطوفان في الروايتَين بتأثير عاملَين رئيسَين هما: ماء المطر والمياه الباطنية التي تفجَّرت من أعماق الأرض. وأضافت الرواية البابلية إلى ذلك مياه السدود التي انهارت. وقد استمرَّ طغيان الطوفان في الرواية البابلية سبعة أيام، تلتها سبعة أيام أُخَر استقرَّت السفينة خلالها على جبل نصير، أثناء ذلك وعلى ثلاث فتراتٍ غير محددةٍ أطلق أوتنابشتيم

على التوالي ثلاثة طيور هي الحمامة والسنونو والغراب. أما في الرواية التوراتية (E) فلدينا أربعون يومًا لطُغيان الطوفان وأربعون يومًا لتراجعه، إضافة إلى ثلاثة أسابيع أطلق خلالها نوح الغراب أولًا ثم الحمامة مرتَين، وقد رَسَت السفينة بعد تراجع الطوفان على جبلٍ يدعوه النص بجبل آراراط.

بعد أن تأكَّد كلٌّ من أوتنابشتيم ونوح من انحسار الطوفان عقب بشارة الطائر الثالث، أطلق رُكاب السفينة وقدَّم قربانًا لإلهه. يلي ذلك مباركة إنليل لأوتنابشتيم وزوجته وإسباغ نعمة الخلود عليهما، ومباركة يهوه لنوح وبنيه وإعطائه عمرًا مديدًا بلغ ٩٥٠ سنة. أما عن الميثاق الذي عقده يهوه مع كائنات الأرض بعدم إرسال طوفان مدمرٍ مرة أخرى، وقوسه الذي وضعه في السحاب (وهو قوس قزح) ليذكِّره بميثاقه، فيقابله قول الإلهة عشتار عندما رفعت عقدها اللازوردي: «كما أني لا أنسى هذا العقد اللازوردي في عنقي، كذلك لن أنسى هذه الأيام، وسأذكرها دومًا.»

(٤) بين الرواية القرآنية والرواية التوراتية

وردت قصة نوح والطوفان في القرآن الكريم بشكلٍ مختصرٍ في السور الآتية: (٧ الأعراف: ٥٩–٦٤)، (١٠ يونس: ٧١–٧٣)، (٢٦ الشعراء: ١٠٥–١٢٢) (٣٧ الصافات: ٧١–٨٣)، (٥٤ القمر: ٩–١٦)، (٢٣ المؤمنون: ٢٣–٣١)، (٧١ نوح: ١–٨). وهنالك إشاراتٌ عابرةٌ إلى القصة في السور التالية: (٢١ الأنبياء: ٧٦–٧٧)، (٢٥ الفرقان: ٧٧)، (٢٩ العنكبوت: ١٤–١٥)، (٤٠ غافر: ٥–٦). أما القصة الأكثر تفصيلًا فقد وردت في (سورة هود: ٢٥–٤٩).

تحتوي الرواية القرآنية على العناصر الرئيسة للقصة التوراتية، وتسير على التوازي معها، ولكن باستخدام الأسلوب المكثَّف الموجز الذي يقفز فوق التفاصيل:

(٤-١) شر البشر يكثُر على الأرض، والله يختار الرجل الصالح نوحًا لهدايتهم

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (٧١ نوح: ١–٧). ﴿... رَبِّ لَا تَذَرْ

عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ❁ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (٧١ نوح: ٢٦–٢٧).

ونلاحظ هنا أن الرواية القرآنية قد انفردت بذكر الدعاء الذي توجَّه به نوح إلى ربه لكي يُهلك الكافرين ولا يترك لهم أثرًا، وهذا يعني أنه كان يتمنَّى على ربه أن يُرسل كارثةً شاملة لا تُبقي ولا تذر.

(٤–٢) قرار الطوفان والإعلام عنه والتعليمات

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ❁ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (١١ هود: ٣٦–٣٧).

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (١١ هود: ٤٠).

نلاحظ من قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أن نوحًا كان يصنع السفينة تحت إشراف الرب بعد أن تلقَّى منه التعليمات الخاصة بذلك وحيًا. كما أنه قد حمل زمرة من الصالحين إضافة إلى أهله، وهذا عنصرٌ غير واردٍ في الرواية التوراتية. أما عن التنور الذي فار عند ابتداء الطوفان، فيقول أغلب المفسرين بأنه تنور كانت تخبز فيه امرأة نوح الخبز، ومنه تدفقت المياه السُفلية.

(٤–٣) دخول الفلك وانداياح الطوفان

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ❁ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ❁ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (١١ هود: ٤١–٤٣).

تنفرد الرواية هنا بذكر قصة ابن نوح التي لم تَرِد في التوراة. كما أنها لا تنصُّ على فترةٍ معينةٍ لطغيان الطوفان وتراجعه.

(٤-٤) تراجع الطوفان والرسو على الجبل

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١١ هود: ٤٤).

نستدلُّ من قوله أعلاه: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ ويَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ على أن علل الطوفان كانت مياه الأمطار والمياه السفلية التي تفجَّرت من الأعماق. أما الجوديُّ فهو جبل بالعراق قرب الموصل.

(٤-٥) النزول ومباركة بطل الطوفان

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١ هود: ٤٨).

ونلاحظ هنا غياب عنصر إطلاق الطيور الوارد في الرواية التوراتية.

وقد أنعم الله على نوح بحياةٍ مديدةٍ، فعاش عددًا من السنوات يُعادل ما ذكرته الرواية التوراتية.

نقرأ في سورة العنكبوت:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ...﴾ (٢٩ العنكبوت: ١٤).

ونقرأ في سِفْر التكوين:

«وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، فكانت أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة، ومات» (التكوين ٩: ٢٨).

القيامة والتصورات الأخروية

التصورات الأخروية، أو الإسكاتالوجيا Eschatalogy، هي ذلك النوع من الأفكار الدينية المتعلقة بنهاية التاريخ والزمن الدنيوي، والدخول في الزمن المقدَّس المفتوح على الأبدية، وما يتصل بذلك من مسائل مصير الروح، والبعث، والحساب والعقاب. وسنشرع فيما يأتي باستقصاء هذه التصورات في كتاب التوراة، ثم ننتقل بعد ذلك إلى التجديدات التي أحدثتها الأسفار التوراتية غير القانونية، ونقارن أخيرًا هذه الحصيلة مع التصورات القرآنية.

(١) في كتاب التوراة

تنسج التصورات التوراتية عن حياة ما بعد الموت على مِنوال مثيلاتها في الديانات السومرية والرافدينية القديمة. فأرواح الموتى تهبط إلى العالم الأسفل المدعو بالعبرية شِئول، والتي تَرِد في الترجمات العربية بعدة صيغٍ؛ فهي الهاوية، والهاوية السفلى، والجُب الأسفل، والحفرة السفلى. وهذه الهاوية هي أرض ظلمة وديجور لا يرى أهلها نورًا: «قد شبعت من المصائب نفسي وحياتي إلى الهاوية دنت ... وضعتَني في الجُب الأسفل، في ظلمات في أعماق» (أيوب ١: ٢–٢٢). وسكانها هم ظلال وأخْيِلة: «الهاوية من أسفل مهتزة لك، لاستقبال قدومك، مُنهضةٌ لك الأخيلة» (إشعيا ١٤: ٩). «يا رب، أفلعلك للأموات تصنع عجائب أم الأخيلة تقوم تُمجدك؟» (المزمور ٨٨: ١٠). والإقامة فيها أبدية، والطريق إليها لا يقود إلى خارجها: «هكذا الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد ولا يرجع بعد إلى بيته» (أيوب ٧: ٩–١٠). وأرواح الأخيار تمضي إليها مثل أرواح الأشرار، بما في ذلك أرواح الأنبياء. فبعد موت النبي صموئيل هبطت روحه إلى الهاوية. وعندما ضاقت نفس الملك شاؤل استعان بامرأةٍ صاحبة جانٍّ لكي تستحضر له روح صموئيل من العالم الأسفل، وعندما فعلت

وصعد صموئيل، قال لشاؤل: «لماذا أقلقتني بإصعادك إيَّاي؟ فقال شاؤل: قد ضاق بي الأمر جدًّا ... فدعوتك لكي تُعلمني ماذا أصنع» (صموئيل ٢٨: ٧–١٥). والهاوية مهما امتلأت لا تشبع بل تطلب المزيد: «الهاوية والهلاك لا يشبعان» (الأمثال ٢٧: ٢٠). هذا العالم الأسفل عبارة عن مملكةٍ مُستقلةٍ لا سلطة لإله التوراة عليها، وأهلها لا يعرفون الرب وهو من جانبه قد نسيهم: «لأن الهاوية لا تحمدك، الموت لا يسبِّحك. لا يرجو الهابطون إلى الجب أمانتك، الحي هو الذي يحمدك كما أنا اليوم» (إشعيا ٣٨: ١٨–١٩). «ليس الأموات يسبِّحون الرب ولا من ينحدر إلى أرض السكون. أما نحن فنبارك الرب من الآن وإلى الدهر» (المزمور ١١٥: ١٧).

والإقامة في الهاوية ليست مُقدمةً لبعث الجسد الميت وعودة الروح إليه؛ لأن الميت يضطجع ولا يقوم على حد تعبير سِفْر الجامعة: «الإنسان يسلم الروح فأين هو؟ قد تنفد الحياة من البحر والنهر يجفُّ، والإنسان يضطجع ولا يقوم» (الجامعة ١٤: ١٠–١٢). وموت الإنسان كموت البهيمة كلاهما يئول إلى الفناء: «موت هذا كموت ذاك ونسمة واحدة للكل. فليست للإنسان مزيةٌ على البهيمة لأن كليهما باطلٌ، يذهب كلاهما إلى مكانٍ واحدٍ» (الجامعة ٣: ١٩–٢٠). وبالتالي فلا قيامة عامة للموتى في اليوم الأخير ولا بعث ولا نشور، أما الثواب والعقاب ففي هذه الدنيا لا في الآخرة: «مخافة الرب تزيد الأيام وسِنُو المنافقين تَقْصُر» (الأمثال ١٠: ٢٧). ومع ذلك نجد أيوب يتساءل عن الحكمة من سعادة الأشرار في هذه الحياة وبؤس الأخيار: «لماذا تحيا الأشرار ويشيخون؟ نعم ويتجبرون قوةً، نسلُهم قائمٌ أمامهم وذريتهم في أعينهم، وبيوتهم آمنة من الخوف» (أيوب ٢١: ٧–٩). والفريقان يَئُولان إلى نهاية واحدةٍ، كما يتابع أيوب، فأين العدالة في ذلك: «هذا يموت في عين كماله كله مطمئن وساكن، أحواضه ملآنة لبنًا ومخ عظامه طري، وذاك يموت بنفسٍ مُرةٍ ولم يَذُق خيرًا. كلاهما يضطجعان معًا في التراب والدود يغشاهما» (أيوب ٢١: ٢٣–٢٦).

ومن الجدير بالذكر أن الهاوية كانت من الأسماء التي أطلقها النص القرآني على الجحيم، وقد ورد ذكرها مرة واحدة في سورة القارعة، حيث نقرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (١٠١ القارعة: ٦–١١).

هذا الموقف من مسألة البعث والقيامة العامة للموتى، بقي السمة العامة للأيديولوجيا اليهودية حتى القرن الأول قبل الميلاد، عندما انقسم الربانيون اليهود إلى فرقتين هما: فرقة الصدوقيين المحافظين الذين التزموا بالتفسير الحرفي للنص وأنكروا قيامة الموتى، وفرقة

الفريسيين الراديكاليين الذين قالوا بقيامة الموتى استنادًا إلى شريعةٍ مفترضةٍ غير مكتوبةٍ أنزلها الرب على موسى إلى جانب الشريعة المكتوبة، وجرى تداولها شفاهةً عبر أجيال الحكماء. وفكرة الشريعة غير المكتوبة هذه هي التي التقطها فيما بعدُ حكماء التلمود، وأسندوا إليها كل التجديدات التي قدموها إلى الفكر الديني. وقد بقي هذا الخلاف قائمًا بين الفرقتَين إلى عصر يسوع المسيح، الذي كان على خلاف مع الفريسيين ونالهم من نقده اللاذع ما لم ينله الصدوقيون، ولكنه وقف إلى جانبهم في مسألة قيامة الموتى. وفي أواسط القرن الأول الميلادي عندما قبض اليهود على بولس الرسول وقدَّموه للمحاكمة بتهمة خروجه في تعاليمه على الشريعة، لاحظ بولس أن قضاته ينقسمون بين فريس وصدوقي، فحاول إثارة الخلاف بين الفريقَين وصاح بأعلى صوته قائلًا: «إنني فريسي ابن فريسي، وأنا أُحاكَم على إيماني بقيامة الموتى.» فحدثت مُنازعة بين الفريسيين والصدوقيين وتمَّ تأجيل المحاكمة (العهد الجديد – أعمال الرسل: ٢٣).

على أن غياب فكرة البعث والقيامة العامة للموتى، لم يستبعد الفكرة الأساسية الأخرى في الإسكاتالوجيا التوراتية، وهي اليوم الأخير ونهاية التاريخ. فالتاريخ ينتهي بيوم الرب الذي يدمِّر العالم القديم ويُفني شعوبه من أجل التأسيس لملكوت الرب. وهذا الملكوت ليس ملكوتًا سماويًّا يعيش فيه الأخيار ويعاقَب الفجار كما هو الحال في المسيحية والإسلام، بل هو مملكةٌ أرضيةٌ تخلف ممالك العالم البائدة، يحكمها الإله يهوه بشكلٍ مباشر وتكون بمثابة نعيم أرضي لبني إسرائيل. أما البقية الباقية من الأمم التي عبرت محنة اليوم الأخير فيتحولون إلى عبيدٍ وخدمٍ لشعب الرب.

ومجيء يوم الرب ليس بعيدًا وإنما قريبٌ إلى زمن الناس هذا: «أسكتْ قدام السيد الرب؛ لأن يوم الرب قريب» (صفنيا ١: ٧). «آه على اليوم لأن يوم الرب قريب. يأتي من القادر على كل شيءٍ» (يوئيل ١: ١٥). ويستهل يهوه يومه بصرخة الحرب المُرَّة: «قريب يوم الرب العظيم، وسريع جدًّا صوت يوم الرب، يصرخ حينئذٍ الجبار مُرًّا. ذلك اليوم يوم سخطٍ، يوم ضيقٍ وشدةٍ، يوم خرابٍ ودمار، يوم ظلام وقتام، يوم سحاب وضباب، يوم بوقٍ وهتاف على المدن المحصَّنة وعلى الشُّرف الرفيعة. وأضايق الناس فيمشون كالعُمي لأنهم أخطئوا إلى الرب، فيسفح دمهم كالتراب ولحمهم كالجِلَّة. لا فضتهم ولا ذهبهم يستطيع إنقاذهم في يوم غضب الرب، بل بنار غيرته تؤكَل الأرض كلها؛ لأنه يصنع فناءً باغتًا لكل سكان الأرض» (صفنيا ١: ١٤–١٨). «هو ذا الرب يخلي الأرض ويفرغها، ويقلب وجهها، ويبدد سكانها» (إشعيا ٢٤: ١).

ويترافق هجوم يهوه مع وقوع عدد من الكوارث الكونية والطبيعية: «ولولوا لأن يوم الرب قريب، قادم كخراب من القادر على كل شيءٍ ... هو ذا يوم الرب قادم، قاسٍ بسخط وحمو غضب ليجعل الأرض خرابًا ويبيد منها خُطاتها. نجوم السماء لا تُبرز نورها. تظلم الشمس عند طلوعها والقمر لا يلمع بضوئه ... وتتزعزع الأرض من مكانها في سخط رب الجنود وفي يوم حموِّ غضبه، ويكونون كظبي طريدٍ وكغنم بلا من يجمعها» (إشعيا ١٣: ٦–١٤). «عليك رعب وحفرة وفخ يا ساكن الأرض ... لأن ميازيب من العلاء انفتحت، وأسس الأرض تزلزلت، انسحقت الأرض انسحاقًا، تشقَّقت الأرض تشققًا، تزعزعت الأرض تزعزعًا، وترنحت الأرض ترنحًا كالسكران، وتدلدلت كالعرزال، وثقل عليها ذنبها. تسقط ولا تقوم» (إشعيا ٢٤: ١٧–٢٠). «اقتربوا أيها الأمم لتسمعوا، ويا أيها الشعوب أصغوا. لتسمع الأرض وملؤها، المسكونة وكل ما تُخرجه؛ لأن للرب سخطًا على كل الأمم، وحموًّا على جيشهم، قد حرَّمهم للذبح، فقتلاهم تُطْرَح وجيفهم تصعد نتانتها، وتسيل الجبال بدمائهم، ويفنى كل جند السموات، وتلتف السموات كدرجٍ (من ورق) وكل جندها ينتثر» (إشعيا ٣٤: ١–٥). «جماهير جماهير في وادي القضاء؛ لأن يوم الرب قريبٌ في وادي القضاء، الشمس والقمر يُظْلمان، والنجوم تحجز لمعانها، والرب من صهيون يزمجر، ومن أورشليم يُعطي صوته فترجف السماء والأرض» (يوئيل ٣: ١٤–١٦). «ويكون في ذلك اليوم أنه لا يكون نور. الدراري تنقبض. ويكون يوم واحد معروف للرب، لا نهار ولا ليل بل يحدث أنه في وقت المساء يكون نور» (زكريا ١٤: ٦–٧).

على أنقاض الأرض الخربة وأشلاء قتلى الشعوب تُقام مملكة يهوه الذي يتربَّع على عرشه ملكًا في جبل صهيون: «ويكون في ذلك اليوم أن الرب يُطالب جند العلاء في العلاء وملوك الأرض على الأرض ... ويُجْمَعون كأسارى في سجن ويُغْلَق عليهم في حبسٍ. ثم بعد أيام كثيرة يتعهدون. ويخجل القمر وتخزى الشمس؛ لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وقُدام شيوخه قد مُجِّد» (إشعيا ٢٤: ٢١–٢٣). «الرب قد ملكَ. لبس الجلال، لبس القدرة ائتزر بها» (المزمور ٩٣: ١)، «الرب قد ملك. ترتعد الشعوب. هو جالسٌ على الكروبيم. تتزلزل الأرض» (المزمور ٩٩: ١). وفي المقتبس الأخير إشارة إلى عرش يهوه الذي تحمله ملائكة الكروبيم، وهم كائناتٌ مُجنَّحة لها وجهٌ إنسانيٌّ وجسد يحمل سمات الثور والأسد.

بعد أن يتحقَّق ملكوت الرب يدعو يهوه إليه شراذم شعبه من كل مكان، ويريحهم في أرضهم إلى الأبد، ثم يسوق إليهم مَنْ بقي من الشعوب ليكونوا عبيدًا لهم: «ويكون في ذلك

اليوم أن السيد يُعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه ... ويجمع منفيي إسرائيل ويضم مُشتَّتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض ...» (إشعيا ١١: ١١–١٢). «لأن الرب يرحم يعقوب ويختار إسرائيل ويريحهم في أرضهم، فتقترن بهم الغرباء، وينضمون إلى بيت يعقوب، ويأخذهم شعوب ويأتون بهم إلى موضعهم، ويمتلكهم بيت إسرائيل في أرض الرب عبيدًا وإماءً، ويَسْبُون الذين سَبَوْهم ويتسلَّطون على ظالميهم» (إشعيا ١٤: ١–٢). «قومي استنيري (يا أورشليم)؛ لأنه قد جاءكِ نوركِ ومجد الرب أشرق عليكِ؛ لأنه ها هي الظلمة تُغطي الأرض، والظلام الدامس الأمم. أما عليكِ فيشرق الرب، ومجده عليكِ يُرَى، فتسير الأمم في نوركِ والملوك في ضياء إشراقك ... وبنو الذين قهروكِ يسيرون إليكِ خاضعين، وكل الذين أهانوك يسجدون لدى باطن قدمَيك» (إشعيا ٦٠: ١–٣ و١٤).

بعد ذلك تدخل الأرض في حالةٍ فردوسيةٍ: «فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي والعجل، والشبل والمُسَمَّن معًا وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبَّة ترعيان تربض أولادهما معًا، والأسد كالبقر يأكل تِبنًا، ويلعب الرضيع على سرب الصِّل ويمد الفطيم يده على جُحر الأفعوان، لا يسوءون ولا يُفسدون في كل جبلٍ قدسيٍّ؛ لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطِّي المياه البحر» (إشعيا ١١: ٦–٩). «لا ترفع أمةٌ على أمةٍ سيفًا، ولا يتعلمون الحرب فيما بعدُ، بل يجلسون كل واحدٍ تحت كرمته وتحت تينته ... ويملك الرب عليهم في جبل صهيون من الآن إلى الأبد» (ميخا ٤: ٣–٧).

على الرغم من هذا الموقف اللاهوتي الواضح من مسألة البعث والحساب، إلا أن بعض محرري الأسفار التوراتية تركوا لنا إشاراتٍ قليلة وغامضة عن قيامة الأموات، فتحت الباب فيما بعدُ لمؤلفي الأسفار غير القانونية للتوكيد تدريجيًّا على هذه المسألة؛ ومن ثم إلى صياغة لاهوت متكامل بخصوصها. من ذلك مثلًا ذلك الموقف الحائر الذي يبديه مؤلف سِفْر الجامعة من مصير الروح: «من يعلم، روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق؟ وروح البهيمة هل هي تنزل إلى أسفل الأرض؟» (الجامعة ٣: ٢١). وما ورد في سِفْر دانيال: «وفي ذلك الوقت (= اليوم الأخير) يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك، ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت ... وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي.» ومن المعروف أن سِفْر دانيال هو آخر الأسفار القانونية، ويرجع تاريخ تدوينه إلى القرن الثاني قبل الميلاد، أي إلى الفترة التي بدأت فيها الأسفار غير القانونية بالظهور. وكما نلاحظ من قول محرر السِّفْر: «وكثيرون من الراقدين ... إلخ» أن اللاهوت التوراتي الرسمي لم يحسم أمره بخصوص القيامة العامة حتى هذا الوقت المتأخر.

(٢) في الأسفار غير القانونية

يُقدم لنا سِفْر عزرا الرابع عددًا من التصورات الأخروية التي أسست للاهوت البعث والقيامة في الفكر الديني اليهودي. يعود تاريخ تأليف النص العبري المفقود لهذا السِّفْر إلى أواخر القرن الأول قبل الميلاد، وقد وجدت له ترجمات إلى اللغات اليونانية واللاتينية والأثيوبية والقبطية والأرمنية، إضافة إلى ترجمتَين عربيتَين محفوظتَين بمكتبة الفاتيكان، والترجمة اللاتينية هي أكمل الترجمات وهي المعتمَدة من قبل الباحثين اليوم.

في مدينة بابل التي سبق إليها عزرا مع مسبيي يهوذا، تَعْرِض له عدة رؤًى متتابعة. في الرؤيا الأولى يطرح عزرا على ربه عددًا من التساؤلات التي تتعلق بأصل الشر في العالم ومصير إسرائيل والبشرية، فيقول له الرب عن طريق الملاك أوريئيل إنه في البداية لم يفرض على آدم إلا وصية واحدة فقط، ومع ذلك لم يكن أهلًا للالتزام بها، فأخطأ وحَكَمَ الرب عليه وعلى ذريته بالموت، وعن آدم نشأت شعوب وأمم كثيرة مشوا وراء أفكارهم وأداروا ظهورهم للرب، فأهلكهم بطوفانٍ عظيم وأنجى نوحًا وأهله، ولكن أمم ما بعد الطوفان لم تكن بأحسن حالًا من سابقاتها، بل لقد فَجَرَتْ وضلَّت أكثر منها؛ ولذا فقد اختار الرب إسرائيل شعبًا خاصًّا له وأعطاه الشريعة لتهديه، ولكن إسرائيل ضلَّت عن السبيل وعاشت بذرة الخطيئة التي زُرِعَت في قلب آدم مع الشريعة جنبًا إلى جنبٍ، ثم ذهب الخير واستقرَّ الشر في القلوب، فآلت إسرائيل إلى الخراب وإلى الدمار.

ينظر عزرا حوله ويرى أن خطيئة بابل وبقية الأمم لم تكن أقل من خطيئة إسرائيل، فلماذا حُمَّ القضاء عليها وحدها بينما ترتع بقية الأمم بالثراء والدعة وتُكافأ على شرِّها؟ فيقول له الملاك أوريئيل بأن فهمه قاصرٌ عن استيعاب ما يجري في العالم؛ لأن أسبابه كامنة وراء ما يبدو للعيان من ظواهر، وطرق الله خفية على البشر. ثم يكشف له عن مجيء ساعة قريبة يحصد فيها من زرع بذرة الشر محصوله، ويحصد من زرع بذرة الخير محصوله. وهذه الساعة تحلُّ في موعد محسوب لا يتقدم ولا يتأخر. فكما أن رحم المرأة لا يستطيع الاحتفاظ بالجنين إذا أتاها المخاض، كذلك هي الأرض التي أُتْخِمَت بالموتى منذ بدء الخليقة، ولكنها لا تلفظهم قبل حلول مخاضها في اليوم الأخير.

ولتلك الساعة علاماتها. ففي ذلك اليوم يتملَّك الناس ذعرٌ عظيم، وتغيب سُبل الحق ويُفْقد الإيمان. الشمس تشرق في الليل والقمر يطلع في النهار. النجوم تغيِّر مجراها وتتساقط على الأرض. الدم ينبثق من الأشجار، والصخر يتكلم ويُسْمَع صوته. تتشقق الأرض عبر المفازات الواسعة، وتندلع نيران لاهبةٌ لا تنطفئ. تترك الطيور أعشاشها،

والكواسر تهجر مقرَّاتها، والبحر يلفظ أحياءه. تحمل النساء مسوخًا، وابن السَّنة يتكلم، والحوامل تضع في ثلاثة أو أربعة أشهر. تجفُّ الحقول وتفرغ الإهراءات، ويختلط ماء الأرض الحلو بمائها المالح. يقوم الأصدقاء والإخوة ضد بعضهم ويتقاتلون بضراوةٍ. يُفْقَد الرشد والتفكير السليم، وتنسحب الحكمة إلى مخبئها فلا يجدها أحد. عمل الناس لا يعطي ثماره وكدُّهم يذهب هباءً.

بعد ذلك ينقل الرب لعزرا عن طريق الملاك خبر مملكة المسيح القادمة على الأرض:

«هو ذا يوم يأتي بعد ظهور الإشارات التي أخبرتك بها، فتظهر المدينة التي لا أثر لها الآن، ويُكْشَف عن الأرض غير المنظورة الآن. عندها سيرى كل من نجا من تلك الكوارث التي أخبرتك بها عجائبي. عندها سوف يظهر المسيح ابني والذين معه، وينعم الذين نجَوْا مدة أربعمائة سنة. ثم يموت المسيح وكل ذي نسمة معه، ويعود العالم إلى الصمت الذي كان عليه قبل البدايات لمدة سبعة أيام. بعد ذلك يستيقظ العالم النائم ويتلاشى منه ما هو قابل للفساد ... سوف تلفظ الأرض الأجساد النائمة في باطنها، وتُخْرِج ردهات المطهر ما عُهِدَ إليها من أرواح، ويظهر العليُّ مستويًا على عرش الدينونة. عندها تزول الرحمة ويغيب الصبر ويبقى الحساب. عندها ينزرع الحق وينمو البر، يصحو الخير ولا ينام الصلاح، ويُعْرَض الثواب والعقاب. عندها تبرز هاوية العذاب ويبرز في مقابلها مقام النعيم. يُكْشَف عن أتون الجحيم ويظهر في مقابله الفردوس المقيم. عندها يقول العلي للأمم التي بُعِثَت من الموت: انظروا إلى الذي أنكرتم وصاياه، ثم انظروا إلى هذه الجهة وإلى تلك. هنا السكينة والنعيم وهناك العذاب والجحيم. هذا ما يقوله العليُّ في يوم الدينونة، يوم لا شمس فيه ولا قمر ولا نجوم، لا سحاب ولا رعد ولا برق ولا ريح ولا هواء ولا ماء، لا صباح ولا مساء، لا صيف ولا ربيع، لا حر ولا صقيع، لا وابل ولا ندى، لا ظُهر ولا مغرب، لا فجر ولا إشراقة نور، وحده مجد العلي يتلألأ.»[١]

عقب ذلك يقول عزرا للملاك: إن الفئة الناجية هم قلةٌ، والهالكون هم الكُثر؛ لأن الشر المزروع في النفس الإنسانية قد حرف جُلَّ البشر عن طرق الله. فيجيبه الملاك: إن الحصى في الأرض أكثر من الرصاص، والرصاص أكثر من الحديد، والحديد أكثر من

[١] هذه المقاطع والملخصات من سِفْر عزرا الرابع هي من ترجمتي عن موسوعة الأسفار غير القانونية:

J. H. Charlesworth, The Old Testament Pseudepigrapha, vol. 1, pp. 525 ff.

النحاس، والنحاس أكثر من الفضة، والفضة أكثر من الذهب؛ لأن الثمين في الأرض هو القليل والنادر. وهذا هو شأن طبقات البشر. لقد خُلِق العالم من أجل الكثيرين، ولكن القلة هي المُعَدَّة للخلاص ولوراثة العالم القادم.

ولدينا في سِفْر أخنوخ الأول وصف مسهبٌ لمجريات اليوم الأخير. وقد عُثر على مقاطع من هذا السِّفْر ضمن مخطوطات البحر الميت، الأمر الذي يدلُّ على أن زمن تأليفه لا يتعدَّى أواخر القرن الأول قبل الميلاد. وعلى الرغم من العثور على مقاطع متفرقة منه باللغتين اليونانية واللاتينية، إلا أن النص الكامل متوفرٌ فقط باللغة الأثيوبية، والنص طويلٌ ومليء بالتفاصيل؛ ولذلك سوف نكتفي فيما يأتي بإيراد بعض الملخصات التي تحتوي على أفكار ذات صلةٍ بموضوعنا.

ففي ذلك اليوم ستعيد الأرض أمانتها وتعيد الهاوية ما أخذته إليها. وفي ذلك الوقت لن يستطيع أحدٌ إنقاذ نفسه مقابل ذهب أو فضة من أهوال الساعة ومن مجلس القضاء. سيتجابه الآباء والأبناء والإخوة ويقتلون بعضهم من الفجر إلى المغيب، ولن يتردد الأب في أن يمدَّ يده على ابنه ليقتله. الأمهات يُلقين أطفالهنَّ عن صدورهن، والمرضعات يتركن رضائعهن، والحوامل يُجهضن. وبعد انتهاء أهوال الساعة سيبعث الأموات من قبورهم، والذين هلكوا في الصحراء، والذين غرقوا في الأنهار، والذين ابتلعتهم أسماك البحر، سيعودون ويقفون للحساب أمام ربِّ الأرواح الذي يجلس على عرشه، وكتب الأحياء مفتوحةٌ أمامه، ومجلس ملائكته منعقد لكي يشهدوا إحقاق الحق وإقامة العدل. في تلك الكتب دُوِّنَت أعمال البشر كلها منذ الجيل الأول وحتى الجيل الأخير. عند ذلك تُوزَن أعمال البشر بالميزان، والمخطئون يُسَاقون من قِبَل الملائكة ويُلْقَون في هوةٍ عميقةٍ تتأجج فيها النيران، ومهما وفد إليها من الناس لا تمتلئ، وفيها أدوات التعذيب وسلاسل حديدية يُغَل بها أتباع عزازيل. عندها سيتوسلون من أجل بعض الراحة، ويلتمسون من ملائكة العذاب أن يعيدوهم إلى الحياة فيؤمنوا ويمجِّدوا ويسبِّحوا الرب، فيقول لهم رب الأرواح بأن مصيرهم قد تقرَّر والأمر والقضاء بحقهم قد صدر. أما الأبرار والمختارون فسيُنقذون في ذلك اليوم ولن يرَوْا بعد ذلك وجه الخطأة والأشرار، وتحت عناية رب الأرواح سوف يأكلون وينامون ويقومون إلى الأبد، يَرْتدون عباءات المجد وثيابًا لا تبلى، وجوههم تشعُّ نورًا، وشفاههم تمجِّد رب الأرواح.[٢]

[٢] هذه الملخصات من سِفْر أخنوخ الأول، عن المرجع السابق الصفحة ٣٦ وما بعدها.

وفي نص الهاجاداه لدينا وصف للجنة والجحيم يَرِد في سياق أعمال الخلق التي قام بها الرب في مطلع الزمن، عندما خلق سبع سموات طباقًا تتدرج من السماء الأولى التي تستند حوافها الخارجية إلى الأرض عند الجهات الأربع، وصُولًا إلى السماء السابعة التي تتصل بيدَي الخالق. وخلق سبع أرضين أيضًا يفصل بين كل أرض وأخرى سبع طبقاتٍ فرعية، وقد جعل الجحيم في الجهة الشمالية من الأرض، وقسَّمه إلى سبع درجاتٍ لكل درجة حصَّتها من الخطأة على قدر ذنوبهم، وقَسَّم الدرجة إلى سبعة أجنحة والجناح إلى سبعة آلاف كهف والكهف إلى سبعة آلاف حجرةٍ. وهنالك أنهار من حمم تجري في كل مكان، وأنهار من إسفلت وقطران تغلي وتضطرم. وهنالك خمسة أنواع من النيران وقودها قطع من الفحم كل قطعةٍ بحجم جبلٍ، وهنالك ملائكة العذاب موزَّعون في كل مكان. وجعل الفردوس في الجهة الشرقية من الأرض، وقسَّمه إلى سبع درجات لكل درجة حصَّتها من الصالحين على قدر صلاحهم. وجعل للفردوس بوابتَين عليهما ألوف من ملائكة الرحمة. فإذا وصل واحد من أهل النعيم إلى البوابة، استقبلوه ونضوا عنه حلَّة القبر وألبسوه عباءة من سحاب المجد، ووضعوا على رأسه إكليلًا من لآلئ وأحجار كريمة وفي يده سبعة أغصان تفوح بأطيب روائح الجنة، ثم اقتادوه إلى مكان ربيع دائم فيه أشجار من كل نوع، وأنهار جارية من لبنٍ وخمرٍ وعسل، وشجرة الحياة التي تُثْمر سبعة عشر نوعًا لكل نوع مذاق ورائحة. ولكل واحد من أهل الفردوس ظُلَّة يجلس تحتها، وأمامه منضدة مصنوعة من أحجارٍ كريمةٍ يقوم على خدمتها ستون ملاكًا يقولون له: كُلْ من هذا العسل واشرب من هذه الخمرة؛ لأنك جاهدت في دراسة التوراة. وليس في الفردوس نورٌ يأتيه من خارجه، بل إن نوره مُستمَدٌّ من ضياء وجوه الصالحين الذين تبدَّلت هيئاتهم فصار أقبحهم يُضاهي يوسف في الحُسن والجمال.[٣]

(٣) الإسكاتالوجيا القرآنية

تعالج الإسكاتالوجيا القرآنية أربعة موضوعاتٍ رئيسة سوف نعرضها فيما يأتي، وهي: الساعة، والبعث، والحساب، والثواب والعقاب.

---

[٣] من ترجمتي وتلخيصي عن:

Willis Bamstone, The Other Bible, Harper, New York, 1984, pp. 16–20.

الساعة

﴿... وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (٤٢ الشورى: ١٧).

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (٧٠ المعارج: ٦–٧).

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٢١ الأنبياء: ٤٠).

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ...﴾ (٢١ الأنبياء: ١٠٤).

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٣٦ يس: ٤٩–٥٠).

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ...﴾ (٦٩ الحاقة: ١٣–١٧).

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (٢٥ الفرقان: ٢٥).

﴿... وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ...﴾ (٣٩ الزمر: ٦٧).

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ (٧٣ المزمل: ١٤).

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ (٥٦ الواقعة: ٤–٦).

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (٩٩ الزلزلة: ١–٢).

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ... وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ (٨٤ الانشقاق: ١–٤).

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ (٥٢ الطور: ٩–١٠).

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (٧٠ المعارج: ٨–٩).

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ (٧٥ القيامة: ٧–١٠).

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ (٧٧ المرسلات: ٩–١٤).

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ... وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ (٨١ التكوير: ١–١٤).

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ (٢٢ الحج: ٢).

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ (٧٠ المعارج: ١٠–١٤).

﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...﴾ (٦٠ الممتحنة: ٣).

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٢٦ الشعراء: ٨٨–٨٩).

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٨٠ عبس: ٣٤–٣٧).

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٢٥ الفرقان: ٢٥–٢٦).

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٨٩ الفجر: ٢١–٢٢).

﴿... قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ...﴾ (٦ الأنعام: ٧٣).

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٠ غافر: ١٦).

﴿... وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (٦٩ الحاقة: ١٧).

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ...﴾ (٤٠ غافر: ٧).

البعث والقيامة العامة

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (٢٣ المؤمنون: ١٥–١٦).

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٦ النحل: ٣٨).

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُم ...﴾ (٦٤ التغابن: ٧).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٣٦ يس: ٧٨–٧٩).

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٧٩ الزمر: ٦٨).

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣٦ يس: ٥١–٥٢).

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٧٠ المعارج: ٤٣–٤٤).

الحساب ومجلس القضاء

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ...﴾ (٧٨ النبأ: ٣٨–٣٩).

﴿... وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (١٨ الكهف: ٤٧–٤٩).

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٢ الانفطار: ١٠–١٢).

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٩٩ الزلزلة: ٦–٨).

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ...﴾ (٢١ الأنبياء: ٤٧).

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ...﴾ (٧ الأعراف: ٨–٩).

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (١٠١ القارعة: ٦–١١).

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٧ الإسراء: ١٣–١٤).

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (٧٨ النبأ: ٢٨–٢٩).

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ... فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * ... وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ (٦٩ الحاقة: ١٩–٢٥).

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣٩ الزمر: ٦٩).

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٩ الزمر: ٧٥).

الثواب والعقاب

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (٢٦ الشعراء: ٩٠–٩١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٦٦ التحريم: ٦).

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (١٥ الحجر: ٤٣–٤٤).

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ...﴾ (٣٩ الزمر: ٧١).

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٥٠ ق: ٣٠).

﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ (٨٧ الأعلى: ١٠–١٣).

﴿... وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (١٤ إبراهيم: ١٧).

﴿... لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ...﴾ (٣٥ فاطر: ٣٦).

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ...﴾ (٢٢ الحج: ١٩–٢٢).

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ (٧٦ الإنسان: ٤).

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (٤٠ غافر: ٧١–٧٢).

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٦٩ الحاقة: ٣٠–٣٢).

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٣٣ الأحزاب: ٦٥).

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ... فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٣٥ فاطر: ٣٧).

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ... فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ...﴾ (٣٢ السجدة: ١٢–١٤).

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ... وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٣٩ الزمر: ٧٠–٧٣).

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ...﴾ (٥٧ الحديد: ٢١).

﴿... يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (١٨ الكهف: ٣١).

﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (٣٧ الصافات: ٤٤–٤٩).

﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ... وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ (٥٢ الطور: ٢٢–٢٤).

﴿... فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ...﴾ (٤٧ محمد: ١٥).

المقارنة

في التوراة بشقيها	في القرآن
(١) ولولوا لأن يوم الرب قريب (صفنيا).	• ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (٧٠ المعارج: ٦–٧).
(٢) ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت (دانيال).	• ﴿... وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٢٥ الفرقان: ٢٦).
(٣) يصنع فناءً باغتًا لكل سكان الأرض (صفنيا).	• ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ...﴾ (٢١ الأنبياء: ٤٠).
(٤) هو ذا الرب يُخلي الأرض ويبيد سكانها (إشعيا).	• ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ...﴾ (٣٩ الزمر: ٦٨).
(٥) الشمس والقمر يُظلمان، والنجوم تحجب لمعانها (يوئيل). والدراري تنقبض (زكريا).	• ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (٨١ التكوير: ١). • ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (٧٥ القيامة: ٧–٩).
(٦) النجوم تغير مجراها وتتساقط على الأرض (عزرا الرابع).	• ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (٨١ التكوير: ٢). • ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ (٨٢ الانفطار: ٢).
(٧) وأُسس الأرض تزلزلت. تزعزعت الأرض تزعزعًا وترنَّحت مثل السكران (إشعيا).	• ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (٩٩ الزلزلة: ١). • ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ (٥٦ الواقعة: ٤).
(٨) سوف تلفظ الأرض الأجساد الثاوية فيها (عزرا الرابع). في ذلك الوقت ستعيد الأرض أمانتها (أخنوخ الأول).	• ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (٩٩ الزلزلة: ٢). • ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ (٨٤ الانشقاق: ٣–٤).

في التوراة بشقيها	في القرآن
(٩) وتلتف السموات كدرج (إشعيا).	• ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ...﴾ (٢١ الأنبياء: ١٠٤). • ﴿... وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ...﴾ (٣٩ الزمر: ٦٧).
(١٠) لا فضتهم ولا ذهبهم يستطيع إنقاذهم في يوم غضب الرب (صفنيا).	• ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ❋ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٢٦ الشعراء: ٨٨–٨٩).
(١١) يقوم الأصدقاء والإخوة ضد بعضهم ويتقاتلون (عزرا الرابع).	• ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ❋ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ❋ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ (٧٠ المعارج: ١٠–١٢). • ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...﴾ (٦٠ الممتحنة: ٣).
(١٢) الأمهات يُلقين أطفالهن عن صدورهن، والمرضعات يتركن رضائعهن، والحوامل يجهضن (أخنوخ الأول).	• ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ...﴾ (٢٢ الحج: ٢).
(١٣) الرب قد مَلَك، لبس الجلال. لبس القدرة (المزمور: ٩٣).	• ﴿... لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٠ غافر: ١٦).
(١٤) ويظهر العليُّ مستويًا على عرش الدينونة (عزرا الرابع). الرب قد ملك، ترتعد الشعوب. وهو جالس على الكروبيم (المزمور: ٩٩).	• ﴿... وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (٦٩ الحاقة: ١٧).
(١٥) سيبعث الأموات من قبورهم، والذين هلكوا في الصحراء، والذين غرقوا في الأنهار، والذين ابتلعتهم الأسماك، سيعودون (أخنوخ الأول).	• ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (٢٣ المؤمنون: ١٦). • ﴿... قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ❋ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ...﴾ (٣٦ يس: ٧٨–٧٩).

في التوراة بشقيها	في القرآن
(١٦) ويقفون أمام رب الأرواح الذي يجلس على عرشه، وكُتب الأحياء مفتوحة أمامه، ومجلس ملائكته منعقد لكي يشهدوا إقامة العدل (أخنوخ الأول).	• ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٨٩ الفجر: ٢٢). • ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ...﴾ (٣٩ الزمر: ٧٥). • ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ ... وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ...﴾ (٣٩ الزمر: ٦٩).
(١٧) عند ذلك توزن أعمال البشر بالميزان (أخنوخ الأول).	• ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ...﴾ (٢١ الأنبياء: ٤٧).
(١٨) عندها تبرز هاوية العذاب، ويبرز في مقابلها مقام النعيم (عزرا الرابع).	• ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (٢٦ الشعراء: ٩٠–٩١).
(١٩) والمخطئون يُساقون من قِبَل الملائكة ويُلقون في هوةٍ عميقةٍ تتأجَّج فيها النيران.	• ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ ...﴾ (٣٩ الزمر: ٧١). • ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ (٨٨ الغاشية: ٤).
(٢٠) ومهما وفد إليها من الناس فإنها لا تمتلئ (أخنوخ الأول). الهاوية والهلاك لا يشبعان (الأمثال).	• ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٥٠ ق: ٣٠).
(٢١) وجعل الرب الجحيم في الجهة الشمالية من الأرض، وقسَّمه إلى سبع درجات لكل درجة حصَّتها من الخطأة وفق ذنوبهم، وهناك ملائكة العقاب موزعون في كل مكان (الهاجاده).	• ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (١٥ الحجر: ٤٣–٤٤). • ﴿... عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ...﴾ (٦٦ التحريم: ٦).
(٢٢) وفيه أدوات التعذيب وسلاسل حديدية يُغَلُّ بها أتباع عزازيل.	• ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ (٧٦ الإنسان: ٤). • ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٦٩ الحاقة: ٣٠–٣٢).

في التوراة بشقيها	في القرآن
(٢٣) عندها يتوسَّل الأشرار لكي يعادوا إلى الحياة مجددًا لكي يؤمنوا بالرب ويسبِّحوه، فيقول لهم رب الأرواح بأن الحكم قد صدر بحقهم ولا رجعة فيه (أخنوخ الأول).	• ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ... فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٣٥ فاطر: ٣٧).
(٢٤) وجعل الرب الفردوس في الجهة الشرقية من الأرض وقسَّمه إلى سبع درجاتٍ ... وجعل له بوابتين عليهما ملائكة الرحمة الذين يستقبلون أهل النعيم ويُلبسونهم عباءات من سحاب المجد ويضعون على رءوسهم أكاليل من لآلئ (الهاجاداه).	• ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٣٩ الزمر: ٧٣). • ﴿... يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ...﴾ (١٨ الكهف: ٣١).
(٢٥) ثم يقتادونهم إلى مكان ربيع دائم وأنهار جارية من لبن وخمر وعسل (الهاجاداه).	• ﴿... فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ...﴾ (٤٧ محمد: ١٥).
(٢٦) فيه أشجارٌ من كل نوعٍ وشجرة الحياة التي تُثمر سبعة عشر نوعًا لكل نوعٍ مذاقٌ ورائحة (الهاجاداه).	• ﴿... وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ...﴾ (٤٧ محمد: ١٥).
(٢٧) وليس في الفردوس نور يأتيه من خارجه (الهاجاداه).	• ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۞ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۞ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ۞ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ (٥٦ الواقعة: ٢٧–٣٠). • ﴿... لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (٧٦ الإنسان: ١٣).
(٢٨) بل إن نوره مستمدٌّ من ضياء وجوه الصالحين (الهاجاداه). وجوه الأبرار في الجنة تشع نورًا (أخنوخ).	• ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ...﴾ (٥٧ الحديد: ١٢).

في التوراة بشقيها	في القرآن
(٢٩) ولكل واحدٍ من أهل الفردوس ظُلَّة يجلس تحتها، وأمامه منضدة من حجرٍ كريم يقف لخدمتها ستون ملاكًا يقولون له: تناول من هذا العسل، واشرب من هذا الخمر (الهاجاداه).	• ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ (٥٢ الطور: ٢٤). • ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٦ الواقعة: ١٨–٢١).

هذه هي أبرز وجوه التشابه بين الإسكاتولوجيا التوراتية والإسكاتولوجيا القرآنية. ولقد كان باستطاعتنا التوسُّع في المقارنة أكثر من هذا لو كنا قد قدَّمنا كل ما ورد لدى الجانبين من تصوُّرات أخروية، واقتبسنا من الأسفار غير القانونية أكثر مما فعلنا، ولكننا لم نجد فائدةً تُرْجَى من ذلك، وآثرنا الاختصار والتركيز على أهم العناصر في تلك التصورات.


هنداوي